الأعمال الإبداعية

مكتبة ٢٠٠٠ الأسرة

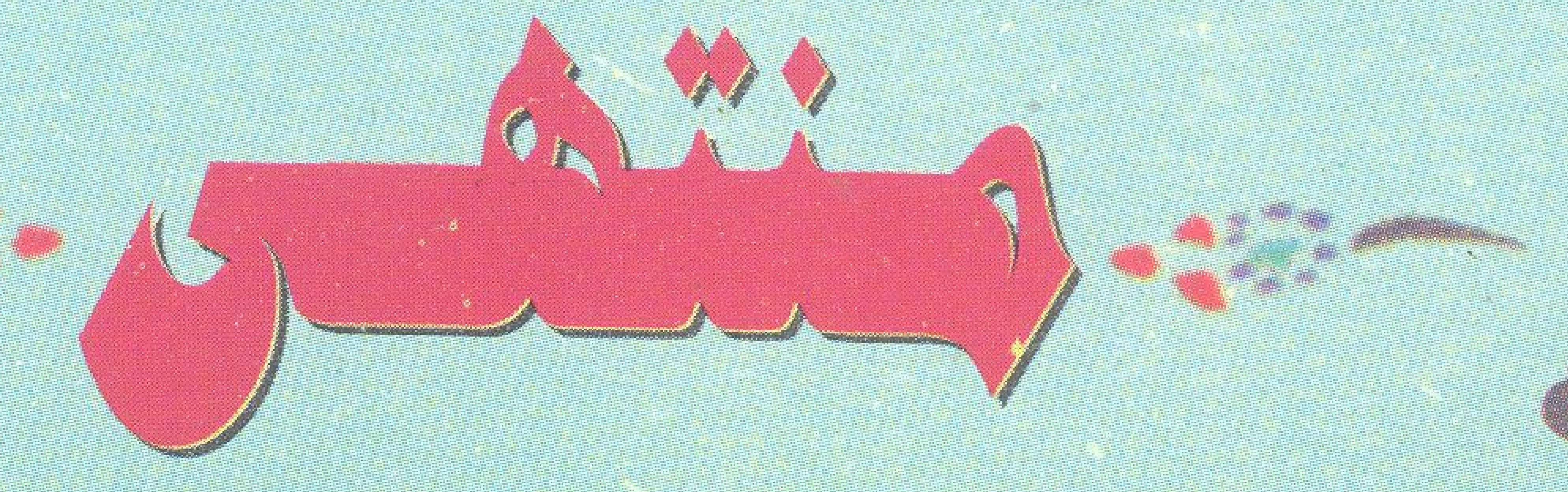
مهرجان القراءة للجميع

عشر سنوات

2000

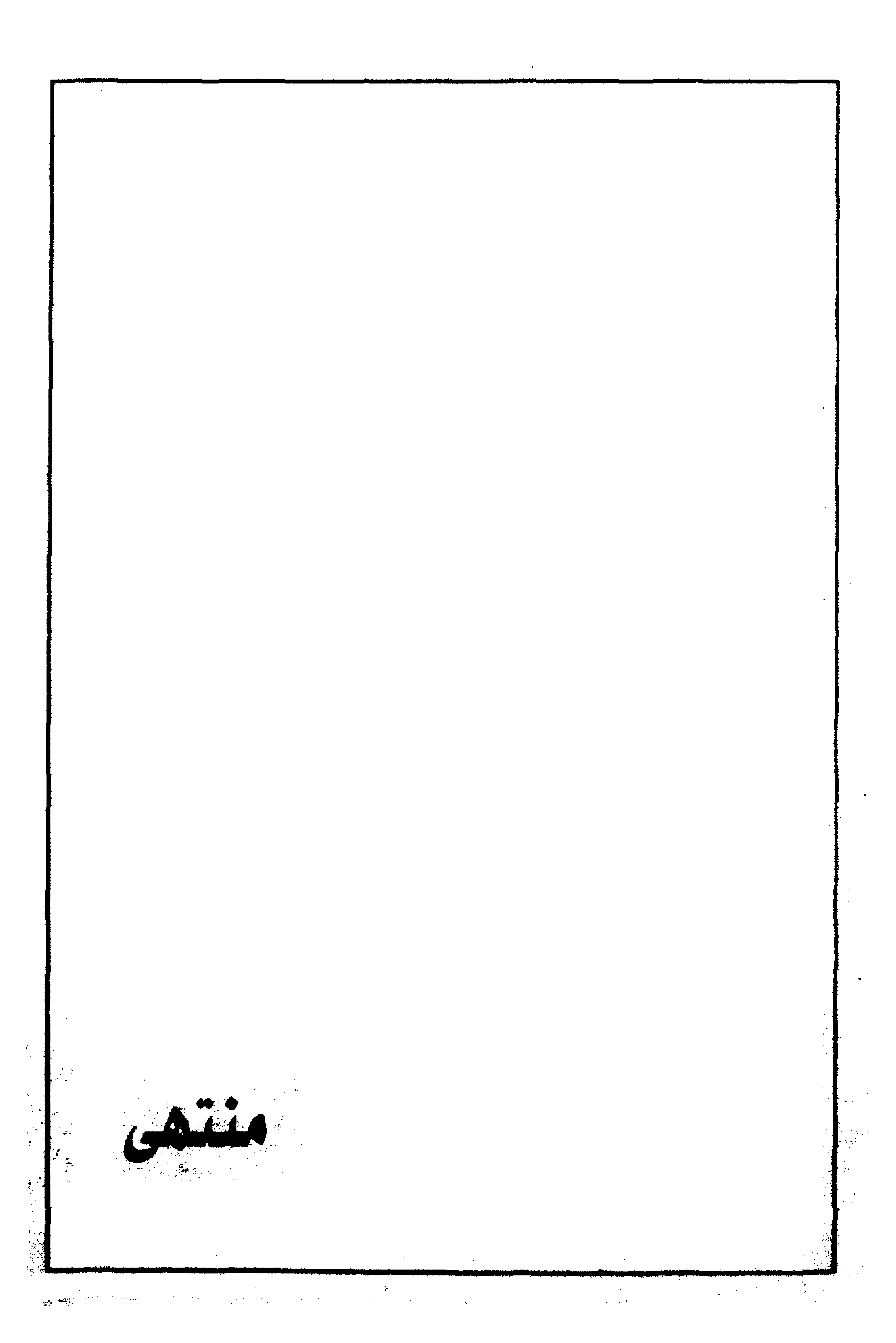
هالة البدرى

رواية



منتهى

الهيئة المصرية
العامة للكتاب


منتهی

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني: منتهى
التقنية: ألوان جواش على ورق
المقاس: ٢٥ × ٢٥ سم

حلمى التونى (١٩٣٤ -   )

فنان تشكيلى، تميز فى مجال الإخراج الصحفى والكتب والمطبوعات إلى جانب استمراره فى إقامة المعارض، وهو صاحب أسلوب شاعرى بالغ الرقة، يستوحى الرسوم الشعبية فى صيغة فنية معاصرة.

فاز بالعديد من الجوائز عن رسومه لكتب الأطفال، كما فاز بميدالية معرض لايبزج للكتاب عام ١٩٨١. وهو عضو لجنة تحكيم معرض بيروت الدولى. كما فاز بجائزة اليونيسيف عن ملصق العام الدولى للطفل.

واللوحة المنشورة بالغلاف رسمت خصيصاً للطبعة الأولى من الكتاب.

محمود الهندى

منتهى

هالة البدري



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

منتهى

هالة البدرى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـبـاب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

إليك :

فأنت والكتابة منتهاي

نطالة

الفصل الأول

- ١ -

توقفت العربة أمام الباب الخارجى للدوار ، محدثة صوتا أخرج الكلاب عن صمتها • كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الثالثة من صباح ذلك الليل الذى يوشوش فيه القمر الأرض بنور ناعم ، انعكس على النهر صانعـا من سطحه مرايا فضية متكسرة ، تتحرك على ايقاع نسمة هواء تعزف نغماتها بين جدائل شجر شعر البنت ، والصفصاف العالى • عوى الذئب ينادى الأرنب الأسطورى الذى تسلل الى كرة السماء المضيئة • جاء صوته من بعيد ، فلم يخدش اطمئنان المسافرين الذين يعرفون أن حدود حركته تتوقف عند الحقول البعيدة ، وبعضهم يعرف جحره بجـوار الجـسر العتيق المتهدم •

توقف محرك السيارة ، وعاد السكون يبسط نفوذه بقوة ، تاركا مساحة لنقيق ضفادع ساهرة تعنى للعشق ، وكلب معجب بنباحه وسط الهدوء كى تتسلل الى انسجة الصمت ، وتصبح جزءا منها •

ترجل رشدى المصيلحى ، متجنبا أن تلمس يده المجبرة باب السيارة • له هيئة رياضية مفتون بتنميتها ، ووجه مستدير أحمر البشرة يحمل آثار النعمة وارهاق السفر ، يومض بلمحات مصرية رغم القسمات المخلطة ولون عينيه الزرقاوين ، وشعره الأسود

وحاجبيه الكثيفين ، اللذين يضفيان احساسا بالقسوة على صاحبهما ، لا يضيع الا اذا ابتسم وبانت أسنانه ، وداست ضحكته شفتيه الرفيعتين ٠

خطا خطوات مرتاحة واثقة ، رغم وهن ساقيه الجريحتين ، خشخشت فوق أوراق الكافور المتساقطة تحت المشربيات ، حتى وصل أسفل نافذة نوم طه ٠ سعل ثلاث مرات متتالية ، لما شق الهواء صدره المتعب ونادى :

ـ يا أبو عبد الله

تململ النائم ٠ أعاد رشدى النداء :

ـ يا أبو عبد الله

رأى طه طريقا واسعا ، وصديقا يلوح له من بعيد ، ويصيح باسمه ٠ ركض ناحيته فاتحا ذراعيه لاستقباله ٠ تعثر فى الصوت ، فقطع عليه انفلات الفضاء المباح له ٠ تنبه وفتح عينيه ، فاصطدم بسقف الحجرة ، وعروق الخشب الجوزية ، فأدرك أنه كان نائما ٠ سمع صوتا قادما من الخارج ، عرف أنه ليس من خيالات أحلامه ٠ قفز ـ رغم ثقل جسمه ـ دون أن يدرك من الداعى وهو يجيب ٠٠

ـ نعم ٠٠ حالا ٠٠

فتح النافذة يستفسر ٠ تحركت وديدة ونزلت من سريرها ، وأضاءت لمبة الجاز ٠ وصلتها جلبة الخفراء أمام السلاحليك ٠ أحضرت الفانوس الكبير ، والعمدة يرحب بأخيه العائد من حرب فلسطين أثناء الهدنة :

ـ أهلا ٠٠ أهلا ٠٠ حمد الله على السلامة ٠٠ أنا نازل حالا ٠٠

دبت حركة ناعمة فى الغرف المطلة على الشارع والنهر ، هرول طه يفتح باب الشقة مائلا بجسمه الى الأمام ، واجتاز

السباط (*) وهو يعدل من حركة قدميه داخل البلغة التى لم يسيطر عليها بعد · طويل ، صلب البنيان ، عريض الصدر ، ذو ساعدين قويتين وكفين نفرت عروقهما · عاشرته الشمس فى المدى الفسيح صيفا وشتاء ، فاشتعل البرونز على جبهته وأنفـــه · له عينـــان سوداوان ثاقبتان ، يركزهما فى بؤبؤ المتحدث معه فيربكه دون ذنب جناه ، وأنف حاد ، وفم واسع تحرسه شفتان فيهما زرقة ، وشعر أسود كثيف يختفى دائما تحت عمامة بيضاء ، لم ينس أن يضع طاقيتها على رأسه ، رغم الاستيقاظ المباغت قرب الفجر · فرت آثار النوم هارية أمام ضربات نشاطه المفاجىء ، سمع ضجة غريبة قبل أن يصل الى باب السلم · رفع رأسه ، وهو يحبك العباءة فاجأه شبح عار كما ولدته أمه ، طويل ، رفيع ، بدا فى الليلة المقمرة أشبه بظل يقفز الدرجات الرخامية نحو الطابق الثانى · ارتبك زمنا لم يطل ، ثم رفع المصباح الى أعلى ليحدد ملامحـــه ، وهو يركض وراءه · كاد أن ينكفىء فوق الباسطة ، أثناء تجنبـــه لخادمتين شابتين رقدتا فى الهواء الطلق ، وأيقظتهمـــا الجلبـــة الطارئة دون أن تدريا ما يحدث حولهما · لاحظ تكور البنت الثالثة فى الركن وهى تمسك جلبابا تحاول ستر جسمها به · توهج اللهب نكشف وجه الهارب ، والدرجات تنطوى تحت لطمات قدميه ·

ـ قف يا كلب ·· الى أين ستصعد ؟ لو وصلت الى السماء سأطولك ·· فى بيتى يا ابن الفاجرة ؟! فى دارى ؟ والله لن يخلصك من يدى عزرائيل !!

ذابت الطوابق بين الرجلين ، حتى وصل بشير القهوجى الى باب السطح واحتار ·· استدار ليواجه العمدة ، فعرف أنه وقع

(*) السباط هو الشرفة الداخلية التى تطل على الحوش وتستعمل كممرات أيضا لأنها تربط أجزاء البيت التى تفتح كلها عليها ·

فى المصيدة · تراجعت خطواته المرتعشة ، وبانت أسنانه البيضاء وسط السواد المحيط · برقت فى مقلتيه نجمتان توهجتا بتحد أشعر الصياد بالقرف والاشمئزاز الذى يسبق القتل احتقارا للحياة ، وليس فرحا بها · طار أمامها خفاش فزع من رائحة الدم القادم · أزاح بشير بكوعة باب البرج الذى انتصب خلفه فجأة ، ودخل · تقدم صائده من الباب ، وأحكم اغلاق الترباس ، وقال لاهثا :

ـ انتظرنى هنا · سأنتهى من استقبال الضيوف ، وأعود اليك لأصفى حسابى ·

نزل غاضبا ينز العرق من وجهه ، لا يكاد باطن قدمه يلمس الرخام حتى يتركه لباطن القدم الأخرى · فرت النائمات والعارية من طريقه · لاحظ خيالات تتراقص عند بئر السلم ، تظهر كلما توهج ضوء الشرارات ، ثم تختفى · عرف فيهن نساء بيته · وقفن مبتعدات عن سكته ، ولم تجرؤ واحدة أن تنطق حرفا معه ·

مضى كحجر منفلت من مقلاع مسلط الى هدفه ، يطقطق جسمه بانفجار مكتوم · أخرجت الجلبة كل من كان مدثرا بسديم نومه ، وصحت الأبنية غرفة وراء أخرى ، واشتعلت أنوار صغيرة على خجل · وبدا أهل الدار فى الحوش المظلم ـ الذى يقاوم الضوء البازغ فى جنباته ـ بدثار النوم مثل حجيج يدور ويطوف فى انتظار البركة · طرقعت القبلات متقطعة فوق الأيدى المرحبة ، ثم فوق الوجنات واختتمت بالاحتضان والعناق الدافىء · وتصاعدت التساؤلات عن جرح رشدى تقلل من فرحة عودته حيا ، واسئلة أخرى عن الحرب ، والهدنة ، وعدد الجرحى · فاجاهم هزال نزيهة زوجته ، قالت لها وديدة :

ـ لو يعلم أن سفره سياكلك بهذا الشكل ما سافر ··

قالت نزيهة ضاحكة لسلفتها :

ـ الرجـال يحـاربون ولا يعنيـهم ان كان الخوف عليهم سيقتلنا أم لا !!

اشتعل الحديث عن رحلة العودة الى مصر ، ونسى الموجودون مؤقتا مفاجأة الليلة ·· تسللت أم حلمي من بين العائلة متجهة الى السطح ، دون أن يلحظها غير وديدة التى ركضت وراءها يملؤها شعور باعتزامها أمرا · أمسكت بكتفها من الخلف ، حين بدأت تصعد السلم ·

ـ الى أين ؟

ـ ابتعدى عن طريقى يا وديدة ، واسألى الناس ان كانوا فى حاجة الى عشاء !!

ـ يا خبر اسود يا نعيمة · أخوك يقتلنا · أتريدين مصيبة فوق ما نحن فيه ؟

ـ المصيبة اذا تركناه فوق السطح · سيقتله طه ويضيع فى شربة ماء · أنتركه يقتل هذا الصرصور ؟!

لم تنتظر ردا من وديدة ، واكملت :

ـ مالنا نحن والخادمة ؟ المشـكلة لأهلهـا ·· يذبحونهـا او يزوجونها هذا شأنهم · لكن العمدة لن يتركها تمر على خير !

ـ ارجعى يا نعمة · لن يغفر لك اخوك · لقد استباح الرجل حرمة داره ·

ـ العقل زينة يا أختى · ابتعدى عن الموضوع ، وأنا المسئولة·

استمرت نعمة فى الصعود ، يطرقع مداسها تحت ثقل أردافها الممتلئة المستديرة ، فارعة ، أخذت عن أمهـا ـ ذات الأصـل الشركسى ـ بياض البشرة وحدة الملامح ، ومن أبيها سمرة العينين واتساعهما · لها شعر طويل تعقده فى ضفائر وتضيف اليه عند خروجها من البيت أسلاكا من الذهب الخالص ··

تراجعت وديدة عائدة تهمهم بكلمات غاضبة ، غير مقتنعة بما ستفعله أخت زوجها ، وتطلب من الله الستر · اصطدمت بعينين مذعورتين تلمعان فى الظلام · انهارت روايح على الأرض :

ـ أحب على رجلك ياستى ، استرينى !! استرينى ، يسترك ربنا دنيا وآخرة ·

نشجت ببكاء محمـوم ، تطاير رذاذه فوق اليـدين اللتين تشبثتا بقدم ربة الدار · تألمت وديدة ، وهى تحاول جاهدة أن تنفلت دون أن تعرف ماذا تفعل · قالت :

ـ قومى اختبئى فى مقعد الغلة ، وفى الصباح رباح ·· لو ذهبت الى داركم الآن ، ستعرف البلد كلها الفضيحة ··

قامت نصف قيام ، وهى تجهش وتمسح أنفها بظهر يدها ··

ـ هو الذى يأتينى والله العظيم · خفت أن أخبركم · كان يهددنى مرة ، ويعدنى بالزواج مرة ·

سمعا صوت نعمة قادمة على أطراف قدميها · قالت هامسة فى حزم ·

ـ اخرسى يا فاجرة · وهان عليك عرضك أن تفرطى فيه ؟

دفنت رأس أبيك فى الوحل · فزى قومى ·· نامى فى المقعد ·

سألتها وديدة فى حذر : ماذا فعلت ؟

قالت ، دون أن تبارح نظراتها حركة روايح وتتابع ابتعادها حتى إختفت :

ـ فتحت له الترباس ، وتركته يتصرف !!

دخلتا معا الى الصالة الكبيرة فى شقة أم طه ، وانضمتا الى تجمع العائلة ، كبارها وصغارها ، حول رشدى ونزيهة ·

قالت وديدة لحماتها التى تكفكف دمعها :

ـ ماذا يا نينا ؟ وصل لنا بالسـلامة ماذا نريد أكثر من هذا ؟!

اجابت عديلة : آمنت بالله ..

قامت كوثر ابنة طه توزع عصير الليمون على أفراد العائلة ، الذين جلسوا يستمعون الى رشدى حتى فجر اليوم التالى ..

فى الصباح ، بعد أن دبت الحركة فى ارجاء الفدادين الخمسة التى بنى عليها الدوار ، عرفوا كيف كان بشير يتسلل الى الحرملك، اذ ظل الحبل الذى كان يستخدمه معلقا ومربوطا فى الهلال المفرغ أعلى الباب الخشبى الأوسط . وعندما ارسل العمدة أحد الخفراء لاحضار بشير ، وعاد اليه خاوى اليدين قال :

ـ هكذا ، اذن . أقسم لآتى به ، ولو كان مختبئا تحت بز أمه . أما من هربه ، فعقابه مؤجل الآن !!

وتواترت انباء من القرية أن راضى الصياد وزوجته حميدة وولدهما مأمون قد صحوا فزعين على صوت هبدة كبيرة على السطح ، ارتجت لها جدران دارهم . وقد ظنوا أنها ستخرق عروق الخشب التى أنت ، وكادت أن تنخلع . وقبل أن يكتشفوا سرها ، شاهدوا خيالا ينط الى الشارع ، ويركض هاربا مملطا من هدومه . وأضافت الفلاحات ، اللاتى تجمعن يملأن الجرار ساعة صلاة الفجر انهن قلبن الأمر فلم يجدن امكانية لأن يقفز رجل من برج الدوار ، ومن كل هذا الارتفـاع ، اذ ان دار راضى مقتطعـة من مساحـة الزريبة ، وتواجه الدوار بسوره العالى من جهتين ، أما جهتهـا القبلية والشرقية فتحتل ناصية الشارع ! ولم يظهر بشير فى الناحية كلها مرة أخرى ..

كشفت قنوع الداية على روايح قبل ظهر ذلك اليوم الأغبر في وجود أمها وأم طه بنفسها ، ووجدت جنينا يتحرك فى بداية شهره الخامس . واخبرت كبيرة البلد أن الاجهاض خطير ، وقد ينهى حياة الفتاة ، ثم أردفت :

ـ الأمر أمركم ، والشورى شورتكم ، وأنا عبد المأمور !!

تركتهم يفكرون . وقبل أن تصل الى الباب الكبير ، كانت أم العمدة قد اتخذت قرارا برحيل البنت ، وترك الأمر كله لوالديها .. ورغم التعليمات التى أصدرتها الى الجميع بعدم الحديث مطلقا فى هذا الموضوع ، الا أن الخبر سرعان ما تسلل الى المنتهى ، فمن غير المألوف أن تخرج خادمة من الدوار قبل أن تتزوج . وحتى بعد الزواج ، كان من النادر أن تترك الخدمة ، بسبب صعوبة الحصول على عمل ..

قالت بعض الفلاحات أنهن شهدن روايح تغسل ملابس مبطشة بالدم ، وأن جلبابا بطوله كان غارقا في بقايا اجهاضها ضربته امها فوق الحجر عند حافة النهر . ورغم جهدها فى مداراته وسط ملابسها السوداء ، وملابس اخوتها ، الا أن النسوة الخبيرات لم يفتهن ما فعلت ، حتى أن واحدة منهن لم تعرض عليها المساعدة . وعندما مرت الفتاة ووجهها في اصفرار الليمون ، وعلى رأسها طست الغسيل المعصور ، وقالت العواف ، لم تستطع احداهن أن ترد عليها ، ومصمصت أم محمود شفتيها ، وقالت بصوت ممطوط سمعه الجميع :

ـ عشنا وشفنا .. الد .. اختشوا اا ماتوا !!!

وكانت قنوع قد قلبت البنت على ظهرها ، وادخلت فيها عودا جافا من سباطة البلح رشقته فى فتحة الرحم ، فلما صرخت مقالة ،

وازرقت بشرتها الخمرية التى كانت بالأمس قبل انكشاف الفضيحة فى لون الخوخ ، قالت لها الداية بالفـــم الملآن :

ـ ولك عين لتصرخى • اكتمى والا أجيب أجلك !!

بكت روايح صامتة ، ومسحت أمها دموعها خلسة بطرف طرحتها السوداء الشبيكة وهى تنظر الى الأرض ، وكانت قنوع قد أعدت مجموعة من الأعشاب أدخلتهـا من خـلال قمع الزيت النظيف من فتحة الفرج قبل أن تضع العود الخشن ، ثم سقتهـا منقوع القرفة المغلى ، ورمان ، وحبوب الاسهال ، وراحت البنت تتلوى ممسكة بطنها ، وقبل أن تخرج منها الآهة الثانية حشرت الولية ذيل جلبابها فى فمها وهى تقول :

ـ عضى فيه أو عضى فى الأرض • الآن تتوجعين ؟! كان حلوا ساعتها يا قادرة ؟!

عندما خرجت من القاعة ، وفى يدها خرقة يتحرك فيها جنين أسود همد بعد دقائق •• قالت :

ـ شد حيلك يا أبو شعيشع • الدنيا ياما فيها يا أخى •

بكى الرجل وقال : أمر الله •

ربتت على كتفه : صلى على النبى • صلى على النبى ، واستهدى بالله وكل مشكلة لها رب يحلها •• ارمى حملك على خالقك !!

فى ركن بعيد من حائط الزريبة لاحظ كل من دخل اليهـا طينا ناعما جديدا ، مدهوكا ، مازال مبتلا ، غامقا ، تلمع على وجهه عيدان قش ذهبية ، لم تبدله بعد أيام الشقاء ، وعندما دخل أبو شعيشع الدوار حاملا فوق ظهره المحنى جوال القمح ليخزنه فى

المقعد العلوى ، صادف أن وقعت عينا أم طه عليه • تقدمت نحوه بعد ان سحبت زجاجة الفنيك من مكانها وقالت له :

ـ شد حيلك • خذ هذه • كوب واحد منها ، وتخلص روحك !

أطرق الرجل وقال دون أن يرفع بصره او يضع الجوال على الأرض •

ـ الضنى غالى ياستى • ابنتى ولا تهون •

وتنهد مرارا والعبرات تمرق سريعة تملأ الممرات والأخاديد التى حفرتها السنون فى بشرته دون أن يستطيع مسحها وقال :

ـ لا تهون •

شدت المرأة على عصاتها بعصبية أظهرت العـرق التركى الشركسى نافرا بين خيوط رقبتها ، وتحول وجهها الى لون النبيذ القانى ، وهى تكشكش جفنيها وتزمهما حول عينيها الزرقاوين الضيقتين ، وتزعق فتزداد حدة ملامحها وضوحا :

ـ اجمد يارجل هذا شرفك !!

ابتلع الكلمات والحمل الثقيل يسوط ظهره فى الحر اللافح

ـ الضنى غالى •

وانصرف متمتما : لا حول ولا قوة الا بالله !!

بعد أسبوع علت الزغاريد ، وسهرت امرأة الشـيخ عيسى الخياطة تفصل ثياب العروس الستان الأبيض ، والبمبى ، واللبنى ، وارسلت العريس الى البندر لشراء فستان قطيفة جورجيت أسود لكى ترتديه روايح فى المناسبات مدى الحياة مثل باقى نساء الكفر• ودارت صينية الحنة التى تفرش أرض الجنة معبأة فى قراطيس صغيرة على بيوت القرية تدعوها لحضور الفرح ، واسـتلمت الأمهات الدعوة ، واخبرن الداعية :

ـ من عينى ياأختى طبعا سنحضر وألف مبروك ، وعقبال الحبايب كلهم !!

وعندما هلت العصارى جلس أبو شعيشع واضعا يده فى يد فرج ابن أخيه ليكتب المأذون الكتاب ، ورغم أن كل من حضرت الفرح قد لصقت فمها قبل دخول الدار فى أذن جارتها ، وأقسمت أنها تعرف تفاصيل الفضيحة الا أن واحدة من البلد كلها لم تتغيب ذلك اليوم ، وقد جئن جميعا حاملات أقماع السكر ، وزجاجات الشربات ، ومقاطف الأرز ، وأجولة الطحين ، بل تجاسرت احداهن وذبحت للعروس ذكر بط كانت قد زغطته خصيصا لموسم السابع والعشرين من رجب • جلست النساء فوق الحصير في حوش الدار . واحتل الرجال الشارع فوق دكك وكراويتات جمعوها من الدور المجاورة ، وشربوا منقوع الشربات الأحمر من الورد والفراولة ، وظلت أم شعيشع تناوله للصبايا وتفرغه فى الأكواب ، حتى تأكدت أن كل فرد قد ارتوى ، ولعلعت كمال بصوت رفيع مغردة •• بجمال العروس الذى لم تشاهده مرة واحدة فى حياتها اذ أنها ولدت كفيفة وأسمتها أمها التى لم يكن يعيش لها ذكور « كمال » لعلها تأتى بالولد وقد حدث !!

ورددت البنات : هيصة عند الشعايشة •• هيصة ••

حلوة ياواد وصغيرة ، مالية عليك المندرة ••

دخل العريس وهاج المدعوون فقد اقترب مشهد النهاية المنتظر ، ووقفوا جميعا وهم يحيطون به ، وعلت الأيادى أمام الوجوه تصفق بايقاع واحد خشن ، واشتركت النساء فى رقصة جماعية تقفزن فيها وتدبدبن الأرض وهن يدفعنه ناحية العروس التى كانت تنظر اليه خلسة من تحت ثقوب التل الأبيض حتى جلس بجوارها وسط الكوشة المزينة بصف النخيل ، ورفع الطرحة عن وجهها وشرب معها الشربات ثم حملها خطوات قليلة

الى بيت أبيه الذى افرد له ولابنة اخيه مقعدا جديدا كان قد بناه مؤخرا فوق سطح الدار ، وتعالت ضربات الرصاص من فوهات بنادق الخفراء والدفوف تعوى والبنات يغنين

افرحى يادى الأوضة .. افرحى يادى الأوضة

وحين أغلق الباب الخشبى الجديد ، وتدحرجت البنات مع الصبيان على السلالم الطينية تاركين العروسين توقفوا فى وسط الدوار وأشعلوها نيرانا حارة قائلين :

دوسى يا العروسة على المقصب دوسى

داست العروسة شخشخت بحلقها

ضحك العريس وقال حلال يافلوسى

ولم يتزحزحوا حتى خرج الشاش فوق عصى خشبية مرفرفا فى يد قنوع ، واستلمته الأيادى خطفا ، وخرجوا من الدار يلفون البلد والحناجر تزعق صارخة :

قولوا لابوها يقوم بقى يتعشى .

وتعلن أن شرف البنت لم يمس ، وأن كل واحد يبلع لسانه .

- ٢ -

شق القارب الصغير الصباح الفضى بمقدمة مدببة فتحت جرحا نافذا الى عمق النهر ٠ رمى راضى الشبكة واستنشق هواء رطبا صافيا دغدغ حواسه ٠ رفعت حميدة المجدافين الى أعلى حتى غرقت الحبال ثم شدتهما معا برفق ، وجرت الماء على ايقاع مبحوح لخشبتين يضربهما مأمون معا ليهيج الأسماك فتفر الى المصيدة ٠ عقد راضى الشبكة وسحبها ، أسر أسماكا مازالت تحمل بقايا نعاس ٠ برقت ولمعت فى غبشة النهار قبل أن تضحك الشمس ، وتكشف عن أسنانها الذهبية ٠ فرحوا بالرزق وتصاعد غناؤهم :

هيـــلا هيـــلا ٠٠ الرزق عـلى الله

هيلا هيلا والرزق ما شــاء الله

جمعوا المحصول فى مشنة مبطنة بسعف النخـل المبلــل وألقموها القاع المظلم ٠٠ جدفوا فى مياة ترتجف بعناق ريح الفجر الناعمة حتى دخلوا منطقة الغاب على حافة النهر ٠ انزلق راضى الى الماء البارد ، ارتعشت شفتاه بتمتمات صامتة وهو يستأذن ملائكة النيل التى صحت مع أول ضوء أن تهبه صيدا وفيرا ، وأقسم لها أنه أبدا ما ازعج نومها ، وما حمل مشعلا ليليا وهيج مكان رقادها ٠ ثم امسك سوطه ولسع السطح لسعة مباغتة تأوه منهـا النهر بعنف وصرخ وسط السكون ، وترددت الآهات تطن فى الأعماق وتعصرها ، فرت الأسماك ، وألقت بنفسها الى الشبكة ٠ علا صوت

الخشبتين أكثر طك ·· ططك ·· طططــك ·· طططــك ·· ألهبت السياط وجه النهر ، وارتج الماء وترنح ، وارتفع فى موجة غمرت الصياد والكون ساكت · تسرب الضباب بين أعواد البوص حتى خنق المركب واختفى به · لم يهتم ، فرح بلعبته أكثر · اشتعلت رغبة العصا فى عناق النهر بعنف ، طرقعت فى يده وسط السكون · مازال النهر يتألم والرجل يتقدم ، يتوغل حتى وقع فى حفرة عميقة وأفزع قرموطا نائما فى جحره ، تلعبط فى القاع الزلق معكرا الماء ثم هرب · أزاح راضى الغاب فانبعث منه أنين رفيع خافت · رأى النهر يغزل فتحات جروحه بسرعة ويلتئم · اكتفى بما فعل وقرر اللحاق بالقارب وهو يضرب الماء بيديه ثم التفت قبل أن يصعد الى عائلته وسوطه بلسعة أخيرة ، واتخذ مكانه مع الشباك ، وعاد مأمون الى الدفة والمجدافان بين يدى حميدة يعانقان اليم الرصاصى الذى أظهر فرحه بألوان زاهية متفرقة كشفت عن جمال خــلاب انعكس عليها باطمئنان فلم يقلقها الرذاذ الذى يهوش طرحتهـــا السوداء · هرب السمك الى حتفه ، وقع أسيرا تدفق التيار حولهم مهدهدا المركب الذى اعتلاه شامخا · انحنى الصياد يجر العقد ، لمح جسما يتقدم فى وقار بلا ملامح مسلما قيادته الى النهر · اعتدل وفتح قدميه ليتوازن · حاول أن يكتشفه قبل أن يصــل ويفاجئهم · قال :

ـ جدفى الى اليسار ببطء يا حميدة · شيء عائم خــلف الضباب ·· ربك يسترها ، ولا يكون رمة تخرق الغزل ·

تركت الزوجة المجداف الأيمن ساكنا ، وحركت توأمه ، غير المركب اتجاهه رويدا وعيناها لا تبارحان المدى تتابعان رحلة التيار والكتلة السوداء الطافية فى هدوء وسط الأمواج الناعمة تزيح أمامها أعشابا ملونة هشة صنعت موكبا مهيبا مزينا بالنفايات · جذبت يسارا مرات أربع ، ثم أرسلت نبضة للمجداف الأيمن ثم

توقفت ·· ترقبوا المصيبة القادمة ، وكل منهم يحاول الا يتشاءم · تركوا الأمر لله · عزفت مارش اقترابها ، واصبحت على وشك الكشف عن نفسها · انفجر التوتر داخل راضى ، وقال ممسكا بحروف الكلمات لا يريد التفريط بها :

ـ هى عطلة والا غيرها ·

ردت حميدة وهى تحاول ان تطمئن قلبها :

ـ لا تحمل هما يا اخوى ·

اتضحت التفاصيل وسط السكون ·· قدمت نفسها بلا ضجة

ـ غريق يا حميدة · لا حول ولا قوة الا بالله ·

ـ يا عين امه يا ابنى ·

تسمروا الا من خفقات تتشبث بالمكان ·

قال مأمون : هل انزل لأنتشله يا أبى ؟

ـ انتظر · انحرفى شمالا حتى لا نقع معه فى التيار ·

ـ حـــاضر ·

ـ ضربتان ·· ضربة · لا نريد لحركتنا ان تغير اتجاهه ·

خطف الشبكة بما تحمل وما يفر بسرعة وعاد يأخذ مكان زوجته · فرد جناحه الأيمن سدا يمنع مرور الغريق ·

ماض الناس على الجسر وانتشر الخبر يمسح الأفق ، اخرجوا الجثة وأرقدوها تحت جميزة كبيرة · لم يكن الشيخ طه قد انهى افطاره فى الدوار الخارجى حين دخل الخفير يستأذن فى ابـــلاغ المركز · ادرك انه يوم عصيب لا حيلة فيه · اعطى اوامره لاتخاذ الاجراءات المعتادة لاعلان كل القرى المجاورة التى تطل على فرع النهر ، ثم دخل الى اهل بيته ، وجلس على المصطبة فى الحوش ، واخبر وديدة أن تستعد لاستقبال البوليس والنيابة ·

سألته : لم الهم والصباح عفى وجميل ؟

أجاب : ما باليد حيلة ٠٠ المركز لا يريدنا أن نطلع الغريق ، وكرامة الميت دفنه ٠٠ لانها تحسب عليهم جناية ٠٠ آخر جثة نشلناها بهدلوا البلد فى طولها ٠

قالت : أين نذهب من ربنا يا عمدة اذا رأيناها وسكتنا عنها ؟!

قال : لا أعرف ٠ أحيانا أقول لنفسى لماذا لا نترك الغريق لرحلته وقدره فاذا وقف حدنا أخرجناه ، واذا كان وسط التيار تركناه ٠ قرى كثيرة رضخت يا أم عبد الله لأوامر الضباط ، وكلما ارتكن غريق على ضفتهم أزاحوه بعصا ، وأسلموه للماء ٠ حرام ٠٠ والا حلال هذا يا ربى ؟! بنى آدم يا ناس هى المروءة انتهت من الدنيا ؟!

قالت ضاحكة : أين الشعر عن المروءة ؟

قال : الهم غاسلنى ٠٠ ثم نظر الى أبعد نقطة فى المدى كأنما يقرأ على صفحة مسطورة أمامه ٠

مررت على المروءة وهى تبكى
فقلت علام تنتحب الفتاة ؟
قالت وكيف لا أبكى وأهلى
جميعا دون خلق الله ماتوا ؟

انتقل اليها شعور عارم بالحيرة :

ـ لا ماتوا ولا يحزنون ٠٠ أفعل ما يمليه عليك ضميرك ٠٠ والناس تتحمل ٠ هو يوم والا أكثر ؟!

خرج يجر قدميه منحنيا بجسده الى الأمام مثلما يمشى الجمل ، يفكر فى ترتيبات استقبال البوليس والنيابة ٠٠ قامت عن

فوق المصطبة تكمل اشرافها وحيدة على حركة العمل الصباحية فى الدار بعد أن سافرت نعمة ، وأم طه مع رشدى الى الاسكندرية ليستكمل شفاءه فى بيته ، واصطحبوا معهم ابنتها كـــوثر لكى تشترى جهازها ، وتختار الأقمشة المناسبة لفرحها · حاولت أن تتذكر حلم الليلة السابقة الذى أفاقها مذعورة أكثر من مرة ·· بضة رقيقة الجسم والملامح لها شعر كستنائى يأتلف مع عينيهـا العسليتين ، وبشرتها الناعمة ، وفم مستدير ينفتح عن ابتســامة هى أعذب ما فيها حين تنكشف السنتان الأماميتان اللتان ارتكن حرف احداهما فوق حافة الأخرى ، وعلى عــكس نســاء الدوار جميعهن كانت وديدة رشيقة فى زمن عبرت فيه الرشاقة عن الشقاء، وتفاخرت فيه نساء طبقة الريف الوسطى بالسمنة دلالة على رغـد العيش وكثرة الخدم · اجتهدت فى تجميع شتات الحلم الذى وصل الى ذهنها بعض نبضاته لربما يفسر لها ما يحدث اليوم ·

كانت فى أعماقها تصدق وجود قوى خفية تتحكم فى المصائر حولها ، رغم أنها رفضت نهائيا أن تستطلع الغيب أو تدخـــل العرافين دارها ·· تنصت الى الصمت فى أوقات بعينها وبغزيرة منذرة اختبرتها حتى آمنت بها ، تتحسس بأصابعها الفراغ المحيط بها ، تستقبل لغته نبضات فوق أناملها ، وتشتم رائحة اللحظات وتصلها بهجة الوانها أو اكتئابها ثم تستشرف الآتى ·· فاذا ذكرت احدى قريباتها أو عاملاتها شيئا عن السحر أو قـــدرة الشيوخ الطيبين تطلب منها أن تقوله همسا ، وتستعيذ بالله من الشيطـان الرجيم ، ويقشعر بدنها عند سماع اى حكاية عن « عمل » وجدته صاحبته عند عتبة الباب ، أو تحت الوسادة ، وتهب غاضبة اذا جاءت كلمة واحدة عن السحر الأسود فى البيت ، حتى أنها تطلب ممن بدأت الحديث الخروج فورا · ورغم ذلك تحرص على تغطية الأوانى الملوءة بالطعام خوفا من أن يشمها العفريت ، وتتخذ كل

الاجراءات الكفيلة بحمايتها واسرتها دون أن تفصح عن ذلك ، وتتوجس من ظهور قط أسود فى الليل وتقسم أنه ليس لهم ، وتلعن اليوم الأغبر الذى عرف فيه الجان مكانهم ، وتطلب من الله سرا أن يكون جنيا تائها ضل طريقه · كان الله يستجيب لدعائها فى صلواتها لأن أمها كانت صالحة على حد تعبيرها ·· شىء واحـــد كانت تتحدث عنه وتؤمن به وتخشاه فى آن معا ، هو أحلامها ·· وتعترف بقدرتها على تفسيرها ، وفك طلاسم رموزها ، وتحكى أن بداية ادراكها لهذه الهبة جاءت كاسحة دامغة لا لبس فيها ، فى ليلة استعدت فيها الأسرة لاستقبال مولودها الســـابع ·· ورغم أعوامها التى لم تكتمل ثمانية ، الا انها كانت تدور مثل النحلة دون طنينها ، فهى تحب بهجة الميلاد ودفئه ، ورائحة الحلبة واليانسون والمغـــات ، وضجيج الخالات وصديقات أمها ، وجـدتها اللاتى يأتين خصيصا لمساعدة الوالدة على اجتياز آلام مخاضها ·· كانت تريد أن تثبت لأمها انها وجه الخير بحق ، فقد رزق والداهـــا بصبيين فى عامين متتاليين ، ثم أجهضت مواليدهما لسـنوات حتى جاءت وديدة فشحذتها امها من ربها ، ونذرت ان حفظها اللـــه لتشحذن لاعالتها ، وأن تكون ملابسها ، وكل احتياجاتها من الغير حتى تبلغ السابعة ، ولم يمر وقت طويل حتى رزقت بغيرهـــا ، واستمرت تعطى للدنيا طفلا كل عامين حتى هذه الليلة التى سهرت فيها وديدة معها تقاوم النعاس الى أن طلبت اليها جدتها خديجة الصعود الى السرير ، على وعد بايقاظها لحظة بزوغ الجنين ، فاستسلمت لكنها قامت فجأة على صوت يقول :

– وديدة أفيقى أنت تحلمين ·

فلما فتحت عينيها ، ورأت خالتها « نصرة » أمامها ، عانقتها خوفا ، واخبرتها باكية أنها رأت صبيا صغيرا يبكى فى مشنـــة العيش ولا يجد من ترضعه · طمأنتها أن المولود لم يصل بعد ،

وراحت تهدهدها ، وتربت على ظهرها حتى نامت . بعد قليل جاءت الخالة على صوت نحيبها الذى يتصاعد ، وأفاقتها ، فحكت لها أنها ترى أمها تموت ، وأن الطفل مازال يبكى الجوع . انقبض وجه المرأة لكنها دارت انفعالها بابتسامة ، وطالبتها بالنوم ، وأخذت ترقيها من عين اخواتها وخالاتها ، وعماتها وصديقاتها ، وكل من رآها ولم يصل على النبى ، ثم قرأت سـورة « الصمدية » حتى تراجعت الأصوات ، والأضواء ، وانزلقت الى بئر أحلامها ، وتكرر المشهد طوال الليل ، ولم تدر أنه انسحب الا عندما زلزلت أركان البيت الكبير صرخات طعنت النوم وأفزعت فراشها فنطرها الى الأرض لتجد نفسها وجها لوجه أمام الجثمان المسجى أمامهـا ، والوليد يصرخ فوق كومة قماش وملابس قديمة . عاريا ، مقطوع الصرة فى ركن من الغرفة .

عاشت تبوح بأحلامها همسا لبناتها ، تفتتح يقظتها بعد كل رؤية بالتبتل الى الله أن يقلب شرها خيرا ، وتبدأ حكايتها قائلة بصوت عال فسرنا بالصلاة على النبى ، ثم تتدفق وتستمتع كما لم تستمتع بشىء فى حياتها قط ، وتتحول الكلمات أمامها الى صور تدفع باللذة الى شرايينها ، ولا تنتهى الا وقد سلبت عـواطف سامعيها . ثم اكتشفت فى منتصف العمر أن عدم البوح بالأحلام الشريرة قد يمنع تحققها حتى يقع المحظور ، فتضطر لاستدراك ما فاتها من متعة الرواية ، لكن أحلامها لم تكن دائما نذير شؤم ، بل كانت مصدر بهجة لها ولعائلتها ، وسامر لياليهم الطويلة حول « راكية » النار فى الشتاء ، أو على السباط حول قفة كيزان الذرة المشوية فى الصيف ، ومنها ما تذكرته سنوات كثيرة ، لكن رؤية بعينها ظلت تعاودها طوال حياتها ، وتلح عليهـا ، كانت حين شاهدتها للمرة الأولى فى الخامسة عشرة يطلب ودها خطـاب كثيرون لكنها الحت على أبيها أن يستبقيها وقتا أطول لرعاية أخيها جابر . جادلته كثيرا ذلك اليوم فطمأنها أن زوجته نعمة لم ترزق

بأطفال وتحبه بشغف ، لكنها تمسكت وتدللت حتى رضخ الأب رغم اقتناعه بالخطيب ، ليلتها سهرت تفكر كثيرا فى أمها ومصيرها حتى غفت • أيقظتها طفلة تسع نجمات وكواكب تبزغ فى حجرها واحدا بعد واحد • أضاءت ثوبها نجمتان صغيرتان ، ثم كوكبان كبيران فنجمة ، ثم كوكبا فنجمة ، وأخيرا كوكبان سطعت كلها ، وتوهجت ، وامتلأ حجرها ببهاء وأهازيج ، وحشود أناشيد عذبة شجية • دفعها انبهارها الى الخوف والانكماش ، كورت من نيل جلبابها بقجة خبأتهم فيها ، لكن الضياء اخترق القماش ، وتلألأ • احتضنتها • نفذت من جسمها ولم تنفع حيلة فى اخفائها • تسلل اليها اطمئنان ولفها فرح طفولى بسطت ملابسها واطلقتها ، وارتجلت رقصة ، وراحت تدور ، وتدور حتى تألقت ، وصفت ، وارتفعت عن الأرض كتلة من النور المشع ، وهى تغنى سعادتها والكواكب والنجوم حولها من كل ناحية ، حتى خيل اليها أنها ستذوب فى الفضاء الى الأبد • شبعت ، وانتبهت الى انطفاء كوكبين • هزتهما بعنف ، لم يستجيبا ، صرخت وقربتهما من قلبها ، ومن أخوانهما دون جدوى • بكت ، أحاطتها نجومها وكواكبها ، واستقرت بعضهما فوق شعرها تاجا جميلا ، وحطت الباقيات على صدرها ويديها ، وابتسمت لها ، لكنها كانت قد غرقت فى حزنها واعتلت سحابة ذاوية احترق فيها المطر ، مهترئة توشك على الأفول حتى سمعت صوتا يطلب منها :

– ارضى بنصيبك •

رفعت وجهها مستفسرة ، فلما رضيت تحولت الى شهاب صعد الى السماء حتى نوى وتلاشى •

ركضت الى خالتها « نصرة » تستفسر عن المعنى فأخبرتها أنها ستجنى من الدنيا الكثير ، لكن جزءا من أرباحها ليس لها ، وخافت المرأة أن تبوح بما شعرت به • نسيت زديدة هذا الحلم

حتى جاءت مولودتها الأولى قمر ، فلما بشرت بكوثر عرفت أنها سترزق بمولود ذكر بعد ذلك ، وكلما اقترب تحقيق حلمها تذكرت الكوكبين الذاويين ، لكنها سرعان ما انصرف ذهنها عنهما حتى وصل عبد الله الذى كنيت به • وتوالى ميلاد أبنائها بنفس ترتيب المجرة التى دارت فى حجرها فى صباها الباكر • وكثيرا ما ضبطت نفسها تتأمل أولادها خائفة وتسأل نفسها :

ـ من الذى سأراه ينطفىء فى حياتى ؟

عندها تغلق عينيها رافضة أن تصدق ، حتى يتردد فى بئرها صوت حاسم :

ـ ارضى بنصيبك •

اشتعلت تحقيقات البوليس • ضربوا راضى وزوجته ، وكل من كان متواجدا ساعة انتشال الجثة •

قال الضابط وهو يحقق مع راضى : شهم •• طيب اشرب وشوف من سينفعك ؟

صرخ الصياد : يا سعادة البك دخل الشبكة ماذا افعل ؟ مصيبة ربنا بعثها • نعترض على ربنا ؟

جف حلقه فسعل وأراد شربة ماء لكنه لم يجرؤ على طلبها واكمل :

ـ الرجل منفوخ ، وبان عليه مات من أيام •

ـ تطلعه بلد ثانية • بلده أولى به • لا يأتى من ورائكم الا البلاء • قف مكانك لا تتحرك حتى يظهر له صاحب والا •• ؟!

ـ لكن يا بك ·· انا ··

لكمه الضابط فى فمه فسال الدم :

ـ كلمة واحدة وارمى بك الى السجن ·

ـ حاضر ·· حاضر ·· لا حول ولا قوة الا بالله ·

ـ ادخل ابنه يا عسكرى ·

دخل شاب زائغ العينين غير مصدق لما يحدث ، سمع كثيرا عما يفعله البوليس لكنه لم يواجهه مرة ·

ـ نعم ·· نعم ·

قال الضابط : من هذا الرجل يا ولد ؟

رد بيديه وملامح وجهه قبل أن ينطق · سمع الضابط يقول :

ـ أنتم اغرقتموه ، وصرختم تطلبون النجـدة لكى تبعدوا الشبهات ·

ذهل مامون· اقسم بالختمة والنعمة الشريفة انهم لا يعرفونه·

ـ والله يا سعادة البك هو ميت من أيام ، ورائحته منتنـة خنقتنا ، وجسمه منفوخ ، وملسوع من الشمس · هذا رمـة قديمة يا افندى ·

ـ اعترف أحسن لك ·

خاف الولد : يا بك البلد كلها شافتنا والنهار كان طالع ، والغريق كان معششا وسط فروع شجر وقش وبلاء · حتى اسال الناس كلهم ، وعم أبو شميشع حمله معنا ، وهدمته فيها حاجات كثيرة شابكة تقدر تشوفها بنفسك ، وشيخ الخفر كان موجودا ، واهل البلد حوطونا ، واشتركوا معنا أصله كان ثقيلا ·

ـ خذه يا عسكرى وأرسله الى الجهادية ٠٠ أدخله الجيش وقيده هارب واعمل له محضرا ، ورحله فورا ٠

(وقع راضى فوق قدم الضابط : فى عرضك يا سعادة البك ٠ الولد صغير ٠ أحب على رجلك ترحمنا الله لا يسيئك !!

لم يسلم أحد الفلاحين من الضرب والاهانة ٠ انتقم البوليس من عدم تنفيذ أوامره ، وصل أول فوج من قرية ميت نيمون القريبة لكنهم لم يتعرفوا على الرجل الراقد مفتوح البطن ، والرأس تحت الجميزة فوق طاولة ، وقف الأطفال عن بعد يتابعون أفعال الطبيب الشرعى ، وانقضى النهار والغريق يستقبل ضيوفه ، وفودا من العزب ، والقرى الواقعة على فروع النهر دون جدوى ، انقشع النور فحملوه الى ميضة جامع قريب ، وفى اليوم الثانى بعد الفجـر بقليل وصلت جماعة تعرفت عليه بصعوبة ، وافزع عويلهم الكائنات التى لم تكن قد شبعت من النوم بعد ٠ حملوه ، وتركوا للكفـر عفريتا يظهر للسائر وحيدا فى القيلولة فى مكان انتشاله من النهر ، يبدو له مثل عمود دخان أو زعابيب عفار تنبثق من الأرض فجأة ٠٠ تجنب الأطفال المكان شهورا ثم نسوه فى الصباح ، وتذكروه فى الليـــــل ٠

- ٣ -

تحلق اطفال طه : عبد الحميد وبنورة واسماعيل حول متولى وهو يفطم العجل ·· وضع الفول الذى نقعه من الليلة السابقة امامه ، وراح يدقه حتى انفرط قلبه وتحول الى دشيش عجنه بالماء ، ثم كوره فى كرات بحجم كفه · تقدمت بنوره وسألته :

ـ لماذا تحرمه من الرضاعة يا عم متولى ؟ حرام ·· مازال صغيرا ··

ـ اتم اليوم اربعين نهارا ·· لو تركناه يرضع يشفط بلد بحالها ، والجاموسه لا تدر بعده أى لبن ·

ـ عندنا جاموس كثير ، والنبى اتركه لأمه ·

ـ حظه ما يعلم به الا ربنا · العجول تاتى كلها فى ربيع البرسيم ، وجاء هو فى يابسة ، ومازال الوقت طويلا امامه حتى الشتاء ·

سحب الكلاف العجل الصغير الذى كان محجوزا فى حظيرة بعيدة ، وفتح فمه وألقى بكرة الفول المعجون ثم دفس اصابعه حتى وصل بها الى البلعوم وتاكد من اتخاذها الطريق الى معدته ، ثم دلق فى فمه قليلا من الماء بكوز كان بجواره ·

قال اسماعيل : اتركه لى أزغطه ·

ضحكوا ومتولى يضع كرة اخرى والعجل يفلفص فى حضنه دون جدوى حتى انهى الكمية ، وافلته ، فوقف ينطر راسه وغطى

الزبد فمه ·· ملس الرجل فوق رقبته ، وسأل بنورة أن تفعل مثله وقـــــال :

ـ لأجل خاطرك سأعطيه حبة لبن ، ولو أنه كان الواجب فطمه نهائيا الآن ، ولا يشرب لبن أمه مرة أخرى ·

انتعش العجل حين وقف تحت قدميها الخلفيتين ، ومسح وجهه فى ضرعها غير مصدق انفلاته رغم الشبع الذى يحسه · رفع لسانه يلتقط أول حلمة تدلت فى فمه ، وراح يستعطفها ومتولى يربت بيده فوق رقبتها ويقول لها :

ـ حن ·· حن ·· حن هذا ولدك حن ·

سرعان ما تدفق نهر الحب فى فم الصغير ، وصبغ اللـــون الأبيض شدقيه ، وصرخ الأطفال مهللين · قال عبد الحميد :

ـ لماذا لا يذهب الى الغيط مع البهائم ، ويأكل ذرية ؟

ـ لا نستطيع أن نربط العجل قبل ثلاثة شهور لكن لأجـــل خاطرك سيذهب اليوم فى أول خارجة للغيط وراء أمه ، ونضع له كمامة وأمرنا الى الله ·

حين اعتلت الشمس قبة السماء ، ومسحت دموع الندى من فوق النباتات فى الحقول ، خرجت المواشى من باب الزريبة الخلفي الى الشارع ، وخرج عبد الحميد يتحنجل وراءها ، بعد أن منـــع بنورة من الذهاب معه · أقسمت هى أن تروح غصبا عنه ، وانتظرت حتى اختفت القافلة ، وتحركت خلفها ، وبدت فى المدى كعصفور يصغر كلما ابتعدت خطواته ·· تلاشت ·

جلست على حافة النهر أمام الغيط ، وراحت تكون عروسا من فصوص الطين التى اقتطعتها من الأرض الطرية ، وبنت بيتـا

وفرنا ، وقرصت الطمى ، وبططته فى شكل أرغفة الخبز ، وصنعت مطرحة ، ثم سورت المكان بسور رشقت فيه قطع الغاب الرفيعة وزينت الساحة أمام الدار بغصن صغير مورق بدا فى المشهد العام كشجرة وارفة ، وراحت تعجن طينة أخرى تنحت منها تماثيل لفلاحات وفلاحين • رآها عبد الحميد عن بعد ، جاء متلصصا يشاهـــد ما تصنع ، ووقف أمامها غاضبا لأنها لم تمتثل لأوامره • صرخت فى وجهه •

– وأنت مالك ؟

لم يرد • رفس أبنيتها الجميلة ، هرسها ، وحولها الى فتات طمى سرعان ما التحمت فى جسد الجسر • قذفته بكرة طين ، والدموع تنفجر من عينيها ، وأنفها ، وعادت باكية الى الدوار •• رأت السيارة تستدير لتدخل من الباب الكبير ، ركضت لتلحـــق بها ، وهى تجفف عبراتها ، ونسيت عراكها مع أخيها الأكبر ، وارتمت فى حضن كوثر ••

دخلت كوثر الى حوش الدار عاقدة شعرها الأحمر الطويل فى شكل ذيل حصان يطوحه رأسها يمينا وشمالا أثناء حركتهـــا السريعة التى تشبهها بمهرة أصيلة تعانق المدى البعيد فرحـــة بانطلاقها مع الريح • سبقتها هيصة وزيطة احتضان اخوتهـــا الصغار • شعنونة ، لها بشرة رقيقة تمشى فوقها كتيبة من النمل اذا غضبت تبرقش ببراقش حمراء ، وتعلو ملامحها الحادة وعينيها السوداوين لمعة تذكر كل من حادثها بنظرة طه التى تربك محدثه • حملت بين يديها اكداسا من البضائع تسوقتها من الاسكندرية • لم تصبر حتى تصعد الى الطابق الأول لكى تفرج أمهـــا على ما اشترته من التحف الغريبة ، وأمتار الحـــرير والقطيفـــة ، والأصواف الملونة ، ألقت بهم على المصطبة أمام بـــاب المطبخ ،

وأمرت بسيونى أن ينزل كل مشترواتها فى الحوش ، وأن يصعد بحقائب عمتها ، وجدتها الى فوق ·· ضحكت وديدة ، وهى تفرز القماش قائلة :

ـ ألم تشاهدى لونا غامقا واحدا ؟! كل الألوان فاقعة ؟! ألا تشبعى من الأحمر أبدا ؟!

اقتربت من أذن أمها ، واطلقت نظرتها ، فأصابت بؤبؤ عين نعمة لكى تستفزها وهى تشير الى كيس مغلق تفتحه قائلة :

ـ اشترت لك عمتى أرخص فستان فى السوق · بذنجانى مشرب بأسود طبعا ·

ردت نعمة دون أن تصلها كلمة واحدة :

ـ ماذا تقولين يا مقصوفة الرقبة ؟! متى ترحلين ونخلص من مقالبك وشرورك ؟!

قالت أم طه موجهة الحديث الى ابنتها :

ـ تريدين ابعاد مقالبها ؟! انها طيبة ولا تفهم شيئا فى الدنيا وكلمة حلوة واحدة تجعلها ترمى بنفسها الى البحر ·

قالت نازلى التى ورثت جسم نعمة الفارع وثدييها اللذين نفرا بحلاوة رغم صغر سنها ، ووجه جدها المستدير ، وملامح مسمسمة وعينينزرقاوين داكنتين فى لون مياه البحر العميقة التى تخبىء تحتها صخورا نمت فوقها طحالب فى لون البنفسج · قالت وكانت قادمة من فوق السطح تنشر الشعرية مع رخية فى الشمس ·

ـ أوحشتنى يا جدتى · غدا تمشى كوثر ، ولا يبقى لك الا انا واحتضنتها بحرارة ، والجدة ترتجف ، وتزم شفتيها ،

خائفة من تأثير العواطف التى جعلتها فى السنوات الأخيرة تهتز حتى ينفجر من عينيها شلال دموع رغم ارادتها ·

ـ ابعدى عكاكيزك عنى ·· من يصدق أن هؤلاء حفيداتى ؟! مصمصات وجلد على عظم ·

همست وديدة لنعمة :

ـ القط لا يحب الا خناقه !!

سمعن صوتا آتيا من بين درابزين سوباط الطابق الثانى المغلق ·· وأم حسبو تقـــول :

ـ حمد الله على السلامة يا ست أم طه · البيت نور ياست أم حلمى ·· أهلا يا عروس ·· عقبال الحبايب ·

قالت كوثر ضجرة بصوت منخفض :

ـ كيف قبلتن دخولها الى البيت بعدما فعلته ؟ حرام · خالة ستيتة تزعل ، وقد ربتنا طول العمر ؟!

ردت وديدة فى حزم مدافعة عن أم حسبو (التى لطشت عريس حـلاوتهم ابنة ستيتة) :

ـ تزوجت على سنة الله ورسوله يا كوثر ، ومات الرجل ودفن أيضا ، ومن غير المعقول أن تتضايقى فى كل مـرة تدخل فيها الدار · لا أزيد كلاما فى هذا الموضوع ·· هى تدخل البيت كل ثلاثة شهور لكى تقطع الشعرية بالدولاب ، والرزق على الله ·· نحن أكبر بيت فى البلد يستهلك انتاجها طوال السنة ، وعملها موسمى ، ومازال الوقت مبكرا على حصاد القمح الجـــديد ، واحتياج باقى الفلاحين لها ·

قالت كوثر ضجرة : تقلى الطعمية أمام دارها كل يوم وتلتم أحسن لها ، بدلا من دخول بيوت الناس الذين لم يعودوا يطيقونها ٠

قالت نعمة : انشغلى بحالك يا كوثر ، وسى محمد سليم الذى جاء وراءنا الى الاسكندرية دون سبب ولا خشى ٠٠ الواحدة كانت لا ترى عريسها الا ليلة الدخلة !!

ضحكت كوثر ، ووضعت كفها فوق شفتيها ومضغت كلاما مبهما لم يستطعن تفسيره ٠ قالت نعمة :

ـ أسكتى أحسن ، اذا كانت أمك راضية لأنه ابن أخيها ٠٠

قالت وديدة موجهة حديثها الى أم طه :

ـ ما هى أحوال رشدى الآن ؟ هل طمأنك الطبيب ؟

قالت حماتها : سيلتحق بوحدته فى الاسكندرية بعد اسبوعين بعد الاطمئنان على الرئة أولا ، وحتى اذا استمرت الحرب لن يعود اليها الا اذا طلب هو ذلك ، وطبعا سيفعل ، وأتمنى من الله أن يرفضوا لأن حالته النفسية صعبة ٠٠ ابنى شديد ، ولا يعجبه العجب ، ولا يتحدث طوال اليوم الا عن تسليح الجيش ، وديون الانجليز لمصر ، ولماذا لم يشتروا بها الدبابات والأسلحة التى عرضوها عليهم بعد الحرب العالمية ، وكلام كثير أنت تعرفين رشدى ٠٠ لن نخلص من هذه الحرب على خير ، وسيغضب رؤساءه ، وربنا يستر يا وديدة ٠

هزت راسها واستطردت وهى تضغط فوق عصاها اكثر حتى حفرت العصا الأرض تحتها ، وغاصت رغم صلابة التراب ٠

ـ لا اخفى عليك ابلغنى حموه اللواء عبد الحليم باشا القصبى ان غضبه ، وطرطشة كلام الضباط وصلت الملك ، والبلد

هائجة ، والناس بدأوا يصدقون أن أسئلة اسماعيل باشا النقراشى كان وراءها معلومات صحيحة ، ويتساءلون عن نقص ذخيرة الجيش ، وخاصة الطيران والدبابات ، واحتمالات استمرار الحرب ، وامكانيات الحصول على سلاح ٠

ـ حمد الله على السلامة يا أمى ٠

التفتت عديلة الى حيدر ابنها الذى انحنى مقبلا يدها ، ووقفت كل الموجودات لتحيته وهو يقول :

ـ والله عال يا أم طه تتحدثون كأنكم كنتم فى مجلس الحرب ؟

ـ الذى يريد أن يهتم يا حيدر يبحث ويسأل ولا يعيش لاهيا ، كأنه فى دنيا ثانية ٠

ـ هذه لعبة كبيرة ٠ رفض الملك دخول الحرب ، وأبلغ أحمد خشبة باشا وزير الخارجية السفير البريطانى رسميا بعدم نية مصر ارسال جيشها النظامى ، لكن الموافقة جاءت اضطرارا بسبب المظاهرات ، وقرار الدول العربية دخول الحرب ٠ والمسألة كلها كانت صورية اذ ظن الملك ان الانجليز سيمنعون مرور الجيش المصرى عند بوابة رفح ، ولذلك لم يهتم بالتسليح ٠

قالت كوثر : كيف هذا يا عمى ؟ سمعت من عمى رشدى ان عزام باشا أمين الجامعة ارسل برقية من عمان قبل اعلان دولة اسرائيل بأسبوع كامل ذكر فيها أن الوزير البريطانى أخبره باعتقاد انجلترا أن الدول العربية كلها ستدخل الحرب بعد خمسة عشر يوما ، وأنهم لن يعترضوا ٠

ـ هذا كلام يا كوثر ، والحقيقة لا يعلمها الا الله ٠

عندما هلت نسمة العصر جلست البنات حول كوثر فـــوق حصيرة كبيرة فرشنها على السباط ، وفردن مجلات الموضة يخترن موديلات جديدة لفساتينهن ·· رن فى الفراغ صوت نعمة الحلو :

ما قلنا يالعريس واشجبت. صفينا الكراسى
ما قلنا يا العـــريس :

اثنين لشيـــل الهـــدوم	واثنين لشـــيل الدست
واثنين يحمـــوا العريس	واثنين يحموا الســـنت
واثنين لطلق البخـــور	واثنين لطلق المســـك
واثنين يقولـــوا للعريس	مبروك عليك الســـت

قالت البنات :

صفينا الكراسى ، ما قلنا يا العريس واشجبت

نزلت وديدة الى وسط الدار تتابع عملها الذى لم ينته بعد · رأت رخية تمسك بمحاشر الشعرية التى حمصتها فى الفـــرن لترصها فوق القبة حتى تبرد قالت لها :

ـ شهلى يا رخية الدنيا على وجه غروب ! حالا يطلبـون العشاء !!

ـ حاضر ·· باقى كام محشرة ونخلص يا ستى ··

جلست فوق المصطبة واضعة يدها تحت خـــدها تهمهم بكلمات خافتة غاضبة :

« هذا الولد نوى على الشر ·· يقضى طول يومه فى الغيط لا أراه ·· والله لن أتركه على هذا الحال » ·

قامت الى غرفة العيش ، جرى وراءها كتكوت صغير يصوصو ويلتقط الفتات من الأرض ، فتحتها وأخرجت سبتا من البوص فردت فوقه مفرشا قطنيا وضعته أمام الفرن ، وراحت تجس المحاشر ، كلما وجدت واحدة باردة أفرغتها في السبت ٠٠ التفتن جميعا الى عواء طفل يقطع نياط القلوب ، فزعت وديدة وتركت الشعرية من يدها بعد أن عرفت صوت عبد الحميد ، وركضت تقطع الحوش الى الخارج ونعمة تصيح بها من فوق درابزين السباط ٠

ـ انتظرى يا أم عبد الله ٠ سيأتى حالا ٠

دخل الخفير بسيونى ساندا الطفل حتى أوصله الى المصطبة وأجلسه عليها ، وقد زاد بكاؤه حين لمح أمه ٠ بهتت الموجودات وركضن فوق السلم وقطعنه قفزا ثم سكتن أمام وديدة وهى تتحسس ابنها الذى تحول جسمه الى خطوط حمراء داكنة صبغها اليود وهو ملفوف الرأس والركبة بشاش أبيض ، ويرتق جلد يده مجموعة شرائط لاصقة فى أماكن متفرقة ٠٠ كان من الواضح أنه تعرض لحادث وتم اسعافه دون أن يدرى أهل الحرملك بالخبر !!

قال بسيونى : الحمد لله اطمئنوا ٠٠ جاءت سليمة ٠ أمسك بسلبة عجل كبير أصر على توصيله من الغيط الى الزريبة ، فلما خرج به الى سكة الزراعية فر منه ، وجره وراءه ، ولحق به الفلاحون ٠ وحملوه فى سيارة الى طبيب المركز ، وحضرة العمدة قال عالجوه قبل أن يدخل للست والحمد لله الحكيم طمأن طه بك فى التليفون ٠٠

لم تستطع وديدة أن تضمه الى صدرها ، أو تمسح شعره خوفا على جروحه وفاضت دموعها صامتة وهى تقول :

ـ كان ضرورى تمسك العجل ·· كنت ستموت تحته ··
قامت تسنده وبنورة تمشى وراءه تبكى واصطحبنه الى فوق وقدمن له الطعام لكنه سرعان ما راح فى سبات عميق ·

وكان الفلاحون العائدون من الغيطان قبل المغرب بقليل قد فوجئوا بعجل كبير يركض ، وعبد الحميد الذى ربط السبه فى وسطه يحاول أن يوقفه دون جدوى · وشق قدميه فى الارض وهز السلبة كى يمنع العجل من مواصلة الركض بعد ان نهج بشدة ، لكن الحيوان المتمرد رفض ، وجره من مكانه ، سيطر الصبى على حركته ، وركض معه حتى توازت خطواتهما ، وأعاد الفرملة ، قلب العجل ساقيه الخلفيتين ، وبرطع على الطريق ، وعيناه السوداوان المستديرتان مفتوحتان على المدى · رشيق أشبه بغزال برى له شعر ناعم مازال يكشف عن لون جلده الأحمر رغم شهوره الستة ، معطرا ببراءة طفل وليد تضمخه نباتات الحلبة واليانسون والمغات ، لم يفهم لماذا يمنعه عبد الحميد من الانطلاق واللعب ! انقلب الولد فوق صدره ، حاول التمسك بالحبل لكنه لم يستطع ، وسحله دافعا أمامه كل ما يلقاه على الطريق · انغرزت فى لحمه أعواد قش ، وقطع صفيح ، واغطية علب ، وأشياء كثيرة لم يدر بها ·· والعجل مستمر فى الركض ثم استدار فجأة ناحية النهر عندها أدرك عبد الحميد أنه هالك غرقا لا محالة ، بكى بصوت عال طالبا النجدة ·· هاص الناس على الجسر ، وركضوا يتحلقون حوله حتى أمسكوه ، والصبى يلقف آخر نفس وقد شله الخوف · حملوه الى أبيه الذى لاحظ أن الجروح كلها سطحية رغم الدم الكثير الذى يغطى وجهه وجسمه ، كتم انفعاله ، وأمر أن ينظف الجلد بالماء ثم وضع فوقها قليلا من البن وابتسم قائلا لعبد الحميد :

ـ هكذا ؟! يضحك عليك عجل ؟!

قال منصور الشرقاوى الذى جاء يشكو جاره الفحام الى العمدة :

ـ الشيخ طه أوقف ثورا ‥ البلد كلها لم تقدر عليه ‥ اجمد يا عبد الحميد لتصبح رجلا ٠

- ٤ -

حر قائظ ، لم تعرف المنتهى مثله من قبل · زرعت الشمس أغصانها فى خدود الأرض فأورقت لهبا لسع النباتات بسياط أبكتها ، واستحلفت السماء قطرة ماء تهسهس روحها ، لكن السحاب لا يلد فى أبيب ومسرى(*) · استوحشت فصوص الطين الغرينية عناق النهر ، وكلما زادت شهوتها سمعت فى المدى صوتا يردد : لا تسقوا الأرض العطشى الآن حتى لا يحترق الزرع · انهمر فى الظهر لظى حاصر النسيم فما جرؤت ريح على الارتعاش ، ولا استطاع طير أن يفرد لها جناحا · لظى شقق خشب الأبواب ، وفتل النوافذ ، وفك المسامير من المصاريع ، وفككها فانخلعت تاركة جرابها ، لم يسلم الياسمين من شكشكة القيظ ، وأن فى الجنائن ، وانفجر دمه يعطر الشوارع والبيوت ، وجمع الصبية قتلاه فى خيوط ملونة زينوا بها رقابهم ·· نفث التراب نيرانا جرحت بطون الأرجل ، فاختفت الكائنات تحتمى بالجدران التى اقشعر جلدها ، وانبتت أشواكا من عيدان القش المخلوطة بالطمى المدهوك به الطوب اللبن ، وتقلحف ملمس كل ما تمسه أياديهم ، واخشوشن ، وسرى الصمت مسعورا يفتك بالغناء والشقشقة · حلموا بنسمة الليل البديعة التى تهفهف على القلوب فى سهراتهم أمام الدور · حاصرت الحرارة الشجر ، وراقصته · هصرت الثمار الناضجة فوق الفروع ·· اشتعل العنب ، وبرق وتلألأت بلوراته الذهبية ، ولم يحتمل البقاء طويلا فى الجنائن ، وجمعوه قبل أن ينفرط وتضيع نضارة بشرته ·

(*) يولية واغسطس ·

ونزت ثمار المانجو عسلا سرعان ما تختثر . واسود لونه حول العنق ، ولم يذق أهل المنتهي أطيب من بلح هذا العام ، وقطعوا أسبطته قبل أن ينتهى شهر توت (*) وطفح الريق السكرى من فشخات التين .فاهتز طربا ، ورقص حتى وقع على الأرض الملتهبة ، ولم تمر أيام ثلاثة حتى عبقت القرية برائحة التخمر . وهبت من الجهة البحرية حيث حدائق الفاكهة نفثات مسكرة بثتها الثمار التى عششت تحت الأوراق الجافة كلما أفلتت نسمة من حصار شهر مسرى الرطب اليقظ . نفثات ساعدت أهل المنتهى على احتمال الحرارة والتعب ، وتسرب اليهم شعور بالراحة وخدر لذيذ ، وكسل ، وحب للحياة لم يفهموا سببه .

أفاقت القرية من نوم القيلولة عصرا على أصوات غريبة : نهيق حمير ، وثغاء ماعز وخراف .. فاجأتهم حركتها .. كانت تدور ، وتلف حول قدميها الخلفيتين رافعة جذعها الى أن تقع ، ثم تهز رأسها ، وهى تحاول الوقوف مرة أخرى فتنهبد دفعة واحدة . ثم اشتركت جميعا فى رقصة مجنونة بأجسام مرتخية ، وترنحت ، والفلاحون فى ذهول ، يقلبون الأمر ويبحثون عن الأسباب حتى شكوا فى اصابتها بمرض خطير ، توقعوا أن يأتى عليها فى أقل من يوم . لكن الرائحة التى جذبت الناس ليتذوقوا التين والثمار المتخمرة تحت القش ، واعجابهم بطعمها ، وهيستريا الضحك التى أصابت كل من تناولها نبهتهم الى أن الحيوانات قد سكرت !! سرى الخبر ، وطاف أنحاء القرية يطرق أبواب الدور ، وأبواب البيوت والقصور ، وخرج الأهالى الذين كانوا قد عادوا من الغيطان الى حيث القطيع السكران ، وتناولوا بعض الثمار بحجة معرفة طعمها ، ثم ما لبثوا أن انقضوا عليها ، وختم

(*) سبتمبر و الثلث الاول من اكتوبر .

الشباب العصرية بشرب عصير القصب البائت المضـــاف اليه السبرتو ، ورقصوا بالعصى • وغنت البنات اللاتى استحين فى البداية ، ثم ضربن فوق الطبول الصغيرة ، وقيعان العلب الصفيح ونقصعن ، وهن يرقصن فى وسط الحلقة ، ولففن قرطاتهن تحت صرتهن ، وعقدنها فى الجانب الأيمن ، ودرن حولها وهن تنشدن :

يجى ٠٠ بس قولوا له يجى

يجى ٠٠ يجى ما يجيش ٠٠ يجى ٠٠

ما يهمنيش ٠٠ يجى ٠٠

- وأعينهن تنظر بشبق ناحية الصبيان ٠٠ واشتعلت قوالح الذرة على حافة الجرن تشوى الكيزان اللبنية ، وسهر الكفر ليلة لم ينسها طوال حياته ، وتندر أهله بأحداثها حول راكية النار فى ليل الشتاء الطويل الذى سرعان ما عرف طريقه الى قلوبهم •

جمع الفلاحون ثمار الفاكهة عصرا ، ونقلوها الى الأسواق البعيدة ليلا • وسارع بعضهم عندما هل شهر أمشير (*) الى غرس شجيرات المانجو التى ميزت المنتهى سنوات طويلة بعدها ، أملا فى محصول وفير كهذا العام ، ولم تحتمل حشرات كثيرة كانت تعشش فى القرية هذا القيظ فاختفت ، ولم يلاحظ وجود الذباب الا فى الأماكن الرطبة المظللة ، وتلطع الناموس فوق الجـلد ، وأصاب السكان ببراقش حمراء ، ولم ينفع الدخان الذى أرسلته النساء بحرق الأغصان الجافة فى وسط الدور قبل صلاة المغرب فى ابعاده واقلاقه للأطفال والكبار ، وانتعشت لوزات القطـــن المزروع فى شهر أمشير فانتفخت ثم انفجرت ، واعتلاها تاج أبيض ناعم ، واستطاع أصحابها تسديـد ديونهم السنـوية ،

(*) فبراير •

واحترقت اللوزات التى تمت زراعتها فى شهر برمهات(*) اذ جفت فجأة ، ثم أسود لونها فلم يتفتح فى الحقل الا بعض ثمرات كانت قد اجتهدت فى الظهور قبل أوانها ، وباع فلاحوها مواشيهم ، واقترضوا لتتراكم الديون سنتين بعد ذلك ·· وشهد هذا الصيف أيضا توالدا غريبا للفئران ، وحركة انفلات ونشاط أزعج أصحاب مخازن الحبوب ، وراجت صناعة المصائد ، واعتاد الناس سماع نداء الباعة عليها ، وهم يتجولون فى الأزقة بعد أن كانت لا تباع الا فى السوق صباح الأربعاء · وجف اللبن فى ضروع الجاموس والأبقار والماعز ، وتسربت منه كميات قليلة تكفى بالكاد الحيوانات التعسة التى شاء حظها أن تولد فى هذا الوقت من السنة ·

لم تكن الحرارة والرطوبة العالية التى تتلطع فوق أجسام البشر والكائنات هى سبب الضجر الوحيد الذى ينفث لزوجته فى سماء القرية · السبب الأصلى جاء من صعوبة الحصول على تموين المواد الغذائية والأقمشة والمبيدات والأدوية ، حتى أطلق بعض الفلاحين على مواليدهم اسم دواء لندرته ·· صعوبة بدأت مع الحرب ولم تنته ، رغم مرور سنوات ثلاث على انتهائها ، الركود الذى ساد الأسواق كان أيضا وراء الضجر الذى جاءت الحرارة لتزيد من توالده السرطانى ، ولم يعرف أى من الأهالى كيف يخطط للأيام القادمة ، وكل الأشياء من حوله تتحرك بخيوط فى يد القدر ، دون بصيص أمل فى استكشاف الغيب · عاشوا حياتهم يوما بيوم ·· تماما مثل طيورهم وحيواناتهم التى ترعى أولادها الى أن تنقض حـــدأة أو بومة فجأة لتخطف كتكوتا أو فرخا ، وينتشر الفزع ، ويسود الارتباك بعد اختفائها به قليلا ، ثم تعود الأمور تسير كما كانت ·· عمل دائب من الصباح الباكر ورقاد لجثث منهكة فى آخر النهار ·

(*) مارس ·

عندما هدأت حركة قطار الثالثة قبل أن يدخل المحطة لم يكن طه قد أدرك بعد أن تغييرا كبيرا ينتظره على أرصفتها ، ولم يكن يستطيع أن يسأل نفسه فى تلك الساعة ان كان يفضل أن تسير حياته على النمط السابق لهذه اللحظة الفاصلة ، أم أن هذا التحول الذى جاء بالحديد والنار فى صالحه ؟ الشىء الوحيد الذى عرفه طه وأدركه ـ بعد أن مرت تلك الأيام ـ أنه استطاع التعرف على نفسه بوضوح لم يكن ليتم أبدا بدون تلك الأحداث ٠ وقد راجع هذا اليوم مرارا وهو جالس فى الشكمة يمضغ أيام شيخوخته ويجتر عذابها المر ، وازداد اقتناعه بأنـــــه لم يكن بمستطيع أن يتصرف الا علىٰ هذا النحو ٠

تحرك الركاب ، واصطفوا فى الردهة متلاحمين دون سبب عند الباب ٠ ثم تعالت همهماتهم ، ونبهت العمدة أن شيئا غريبا يحدث الآن ، لكنه لم يتحرك من مكانه ، واكتفى بانتظار توقف القطار ، فلما زادت الضجة ، وانفلتت الى أذنيه كلمـــات عن البوليس والعسكر ، نظر من النافذة المجاورة له ٠ رأى انتشار جنود عرف على الفور أنهم مصريون ، لكنه عاد وارتاح فى مكانه مفسرا هذا التواجد بمرور قطار بضائع حربى قاطعا الطريق من التل الكبير الى الاسكندرية ، وحمد الله أنه وصل فى موعده قبل أن ينقطع الطريق ، ويضيع نصف يوم هو فى حاجة اليه ٠٠ لم تكن تحركات قطارات البضائع العسكرية ثابتة المواعيد أو معروفة ، وهو ما جعل استعمال السكك الحديدية فى هذا الوقت ضربا من الجنون اذ ان الحركة المفاجئة كانت تشل الطريق فى وسط الدلتا ، ولكن الناس اعتادوا مع الوقت الدعاء الى الله الا يتعطلوا وأن يمر يومهم بسلام ، دون أن يملكوا وسيلة أخرى ٠

تراجعت العجلات الحديدية الى الخلف ، ثم انطلقت الى الأمام واصطكت العربات ، وتخبط الركاب الواقفون فى الممرات ،

ثم انتظمت حركة خفيفة ناعمة همد القطار بعدها · ترجل طه فوق الرصيف الخشن ، وبحث ببصره عن سائقه فرج الله فلم يجده ، التفت ناحية المزلقان عله محجوز مع الكارتة ، لكن لا أثر · أثارت حركة التفتيش التى تتم للمسافرين قبل صعودهم الى « المستعجلة » ريبته · اقترب منه عسكرى لا يعرفه · أشاح له بيده ضجرا :

ـ أنا عمدة المنتهى يا بنى ·· أوسع ·

خطا نحو ناظر المحطة الذى شاهده وجاء مهللا :

ـ تفضل يا حضرة العمدة ·· ابتعد يا شاويش ·

واصطحبه الى غرفته التى لم تختلف حرارتها كثيرا عن السعير الذى يلسع الوجوه خارجها !

لاحظ طه ارتباك الناظر · كان تقاطر العرق من جبهته فى هذا الجو الخانق طبيعيا ، لكن ارتعاشة يده بالمنديل المحلاوى ذى المربعات الكبيرة أكدت شكوكه فى أن حدثا جللا قد وقع ، وسمع صوته ·

ـ قهوة يا بنى ·· قهوة ·· اغلق الباب وراءك ·· انتظر فى الخارج يا شاويش ·

جلس على مقعده منهكا ، واقتربا من ضيفه هامسا :

ـ أين أنت يا حضرة العمدة ؟! هل وصلك خبر المصيبة التى طبلت فوق رؤوسنا ؟

ـ أى مصيبة ؟!

خرجت البلدة كلها على قوة بوليس وفرمتها ، وانقلبت الدنيا فى المديرية والمركز ، وطوقت قوات الأمن القرية ، وقطعت الطرق كلها ‥ لا يخرج أحد أو يدخل بدون اذن تفتيش ٠

هب العمدة واقفا : هات ركوبة بسرعة ٠ أين التليفون ؟

اختطف الجهاز الأسود من فوق الرف ، وتكتك فوق ذراعه بعصبية لا تناسب مظهره الوقور ، وأدار اليد ، والكلمات تنهمر من بين شفتى محمد أفندى :

ـ ناس قالوا ان البوليس كان يفتش على سلاح ، ودخل المخبرون متنكرين بيت أبو مندور ، واستفزوه ، واستنجد الرجل بجيرانه وأقاربه ، وكانت قوة البوليس مختفية عند ماكينة الطحين فلما سمعوا صوت الرصاص جاءوا ، وقامت البلد كلها عليهم ٠

ـ الو ‥

ـ وسمعت ان الضابط فى حالة خطرة ، وسلاحه ضائع

ـ ألو ‥ أنا العمدة يا بسيونى ٠

ـ الحقنا يا سيدى عندنا حادثة كبيرة فيها مصابون ‥ والحكمدار باشا هنا فى الدوار ، وأبلغنا النيابة وحضرة الوكيل سيصل حالا ‥

ـ انا فى المحطة ٠ لماذا لم ترسلوا الكارتة ؟ ابعثوها بسرعة ٠

ـ كنا فى زيطة والمأمور مانع الخروج ، أو الحركة ٠

تلعثم بسيونى ، ثم أخبر العمدة ان الباشا سيكلمه ، وجاء صوت يعرفه جيداً :

ـ أين أنت يا أبا عبد الله ·· سيارة البوليس ستصلك حالا · تعالى بسرعة · البلد سائبة من غير عمدة ·

قال طه بهدوء : لا لزوم لهذا الكلام يا سعادة الباشا · البلد طول عمرها هادئة ، ومستقرة · حالا أكون عندك ·

أغلق الخط ، وأزاح العمامة قليلا عن وجهه فظهر خــط أبيض محددا مساحة بشرته التى تمسحها الشمس ، وما يخفيه القماش · أخذ رشفة من فنجان القهوة ، وسأل الناظر الذى كان يتابعه صامتا :

ـ متى حدث هذا يا محمد أفندى ؟

ـ بدأ العراك قبل صلاة الظهر بساعة فى عز الحر · كانت رحمة من الله ان الناس فى الغيطان ·· لو كانت حدثت بعد صلاة العصر كان نصف البلد راح فيها ·· لا أحد يعلم الحقيقة بالضبط· سمعت أيضا أنها كانت حملة لجمع الهاربين من الجهادية ، وانا لا أرجح هذا لأن البوليس يدخل القرية لهذا الغرض فى الليل ، وناس قالوا انهم دخلوا بيت أبو مندور ليأخذوا ابنه فلم يجدوا غير النسوان ، وقد ضرب أحد المخبرين امرأة فصرخت ، ولمت الناس الذين انهالوا عليهم حتى كادوا أن يفطسوهم فهــرب واحد ، وأحضر قوة البوليس ، لكن المعركة كانت قد اشتعلت ، ووصل الرجال من كل ناحية ·· لكن المؤكد فى الموضوع ان الضابط تعبان وسلاحه اختفى ·

استمع طه الى تفاصيل كثيرة أدرك منها انه وقريته قــد وقعوا فى مأزق كبير مع السلطة ··

حملته السيارة فــوق طــريق مغبر ، احتشدت فى باطنــه طقطقات أرسلت دخانا ســاخنا بلا لــون ، راح

يتسرب ويرتفع ببطء عن الأرض ، مغلفا المدى بسكون لزج ٠ لم يتحرك أمام رجرجة العربة ، أو يدفع حتى بهواء ثقيل الى الداخل ٠ أقفرت الغيطان ، ولم يسمع غير صوت هدير المـــاء المنفلت من العيون وهو يضرب أعمدة السد قبل أن يفور ، ويعلو ، ويتشكل فى تيار ، ثم يستسلم ، ويجمع أعطافه لينساب هادئا فى سلام ٠ لم تظهر تحت شجرة الجميزة جاموسة مربوطة ، أو بقرة تمضغ أعواد الذرة الخضراء ، ولم ينهق حمار ، أو تنام غنمات بجوار راعيها مستظلة بتعريشة ، ولا انفلت صبى من أمه دافعا عجلة كازوز أمام الدور أو على الجسر ٠٠ صامت القرية حتى عن حركة بهيمة مشدودة الى ساقية ٠

لم يكن طه حتى هذه اللحظة يعرف لماذا ضرب الأهالى رجال البوليس ، ولكنه كان يعلم تماما الحالة الرجراجة التى كانت تعيشها قريته ٠ ان لم يعودوا يحتملون ضغط الحرب والاحتلال ، واختفاء أبنائهم بحجة التجنيد ٠

انتظروا انتهاءها مصدقين ان الانجليز يدافعون عنهم ، لكن المدة طالت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانيـــة ، ومازال التموين شحيحا ، وتفشت أمراض قاتلة منها الملاريا ، والاسهال، والبلاجرا ، والبلهارسيا والحمى الرجعة والعشى الليلى ٠ اهتزت العربة واحتكت أجزاؤها ، وصلصلت مع كل حفرة مرت فوقها ، لكن هذه الأصوات لم تمنع طه من الاستغراق فى التفكير « هى البلدة ناقصة مشاكل يا رب ؟ احتمل الفلاحـون الضـنك حتى شحذوا ٠ لم يعد الواحد منهم يحصل فى طعامه الا على رغيف من الذرة وعود سريس أو جعضيض وربما بصلة ٠٠ أهينت بيوت كثيرة بسبب السوق ٠ هل تكون هذه الحادثة بداية لسلسلة أحداث مثل ثورة ١٩١٩ ؟ لكن لا ٠٠ يبدو حسب ما وصلنى

الآن أنه حادث فردى يخص قريتنا ، فلم تأت لى أنباء عن حوادث سابقة فى القرى المجاورة ٠

اقتربت السيارة من الدوار ، وظهر فى الأفق تحوط الناس بالسور الخارجى ، ونطق السائق الصامت خلال الطريق فى أسى :

ـ البلد ستتكدر يا سعادة البك ٠ أقسم الباشا اما أن يأتى الأهالى بالسلاح أو يذبحهم ٠

٠ تحلق الناس حول السيارة التى هـــدأت حركتها وهى تستدير لتدخل الباب من الجهة البحرية فى الشارع الضـــيق وتعالت الأصوات :

ـ مظلومون يا حضرة العمدة ٠ ضربونا بلا سبب ٠ جرجروا الرجال من على طريق الزراعية ، واتهموهم بالباطل والختمـة الشريفة ٠

ترجل أبو عبد الله أمام الباب الذى لم تستطع السيـــارة النفاذ منه ، ركض الخفراء ناحيته وهم يصيحون :

ـ أوسع يا صدغ منك له ٠٠ أوسع !!

مشى السائق أمامه يهش الناس بالعصى ٠ وقعت امرأة فوق قدمه :

ـ سايقه عليك النبى تنجى محمود أبو صالح مجروح فى راسه انشغل عنها بمشهد لم يره فى حياته ٠ لم يصدق ٠ كان رجال قريته مكبلين بالحديد ، وجوههم ملتصقة بحائط السور ، تسترهم خرق ممزقة مبطشة بالدم ، حفاه ٠ وفى الجهة المقابلة ، عساكر جرحى همدت اجسادهم تحت تعريشة الجهنمية ، ويفصل

بين الفريقين جنود يمسكون شوما ، ويعلقون بنادق كبيرة سوداء فى أكتافهم · وصلته آهات الجرحى وسط استغاثات الفلاحين ، وتعالت الهمهمة وهو يخوض فى لحم بشرى منكفىء على الأرض· امتلأ الدوار عن آخره بأغراب ·· لم ير هذا العدد من العسكر داخل بيته الا ليلة التفتيش التى أعقبت انتحار أخيه ·· يومها عرف أن الثائر حمى القرية برحيله قبل أن يطأ الانجليز أرضها ويبهدلوها ، كما فعلوا فى غيرها · أيام كثيرة مرت تمنى فيها عدم رحيل عبد الحكيم ، واكماله لمسيرته · تذكر الخوف الذى شل المكان شهورا بعد الحادث ·· امتلأ بذكرى البطل ، وملأت أنفه رائحة عطر الاستشهاد ، وأضفت على عينيه بريقا لم يفهم سره أحد · لاحظ امتلاء الرواق الكبير الذى يدخل الى الحرملك بالجنود ، ووقوف عسكر على بابه · اتجه الى الفيللا الصغيرة التى بنيت حديثا بالمسلح والتى لا تفتح الا لمجلس الأعيان ، صعد درجاتها الصغيرة · كان الكتبة ، قد احتلوا الصالة الأولى ، وجهزوا مناضد التحقيق ، والضباط يسألون الفلاحين مكبلين واحدا بعد واحد · عبرها الى الصالون الكبير يعتريه هذا الشعور الهائل أن خيرا لن يأتى بعد اليوم · وقف الرجال لتحيته ··

لم يكن طه مجرد عمدة قرية ، كان أحد أبناء العائلات الكبيرة التى يضفى اسمها على أبنائها قيمة فى زمن يتحكم فيه الأقوياء ، وقد استطاع بحكمته أن يحل مشاكل قريته دون اللجوء الى البوليس الا فى القليل النادر · ساعده نجاح تجارته ، واتساعها على امتلاك سطوة المال ، ونفوذه أيضا حتى انه اعتاد على استكمال المشروعات العامة فى الناحية عندما تتوقف بسبب عجز الميزانية ·· آمن طه المصيلحى أن العمل هو السبيل الوحيد الى تحرر الفلاحين ، وهى فلسفة لم تأت عن اعتناق أفكار قرأ عنها ، لكنها جاءت من تجربته الخاصة مع عائلته ، لذلك شارك

الفلاحين مناصفة فى مشروعات صغيرة كثيرة هو بالمـال وهم بالعمل ، ولم يترك بيتا فى المنتهى دون أن يشترى له جاموسة أو بقرة ينتفع بلبنها ، ثم يبيعون وليدها مناصفة فى الربح معا ·· أحب الترحال والبحث وراء التجارب الجديدة ·

ونفذها على نطاق ضيق أولا ، ثم نقلها الى الفـلاحين · انتشرت فى المنتهى بسببه معاصر الياسمين ، ومناحل العسل ، ومصانع الجبن الصغيرة ، وأنوال السجـاد ، والمغازل ، وأنشئت فيها أول مدرسة صناعية فى المنطقة ، وهو ما جعلها من القرى القليلة التى لا يحتاج فلاحوها الى الترحال للعمـل فى القرى المجاورة كأجـراء ·

وكان يمتلك هذا الشيء الربانى الذى ينفذ الى قلب من يتعامل معه مباشرة ، ساعد على هذا صوت هادىء ، ورزانة ، وقدرة عالية على التحكم فى انفعلاته ، وقد كان مسموع الكلمة فى الناحيـة كلها ، حتى قبل أن يتولى منصب العمدة ، سواء فى الأسواق بين التجار أو وسط الأهالى ·· تعامل الفلاحون الذين طحنتهم الأيام تحت وطأة الحاجة والمرض مع عمدتهم بحب دون خوف كبير · كانوا يهابونه ، والهيبة دون الخوف الذى عرفوه مع أبيه ، ومع عمد كثيرين مروا بهم ، وبالقرى والنجوع المجاورة ، فقد امتلك صفتين لم يملكهما الآخرون : الصبر والقدرة على الشرح · كان يستمع الى الجميع ، ولا يتركهم لشيخ البلد أو شيخ الخفر ، وكانت الأوامر تصله من المديرية أو المركز ومغلفة أحيانا بقانون الحماية فيجمع قادة الرأى والرجال الذين يثق بهم الأهالى ، ويسألهم كيف يواجهون هذا الأمر ، ويتركهم يقترحون التنفيذ ، ويبحثون عن حلول يفلتون بها من وطأة الأحكام التى تأتى بالضرائب أو انتزاع الأبناء · فاذا وصلوا الى رأى التزموا جميعـا بتنفيذه ·

شيء آخر لم يدركه هو نفسه ، وقد جاء تلقائيا ودون حساب كان قد لاحظ عند اقتطاع جزء من حديقة الدوار لكي يرصف طريق المعاهدة موازيا للنهر أن السور الذى بنى ليحيط بالمبنى قد ترك قاعدة عمود رخامى كبير كان يحمل من قبل تمثالا مهيبا خارج البناء بعد أن نقل التمثال فوق قاعدة اخرى أمام الشكمة ، وظل هذا الحجر الكبير مكانه فى الشارع ، وكان أبو عبد الله قد اعتاد أن يشرب قهوة العصر عقب افاقته من القيلولة على مصطبة تحت تعريشة الجهنمية بجوار التمثال ، فى الحديقة الواسعة التى يسمح له اتساعها بالانفراد بنفسه والابتعاد عن زحمة دوار العمدة الكبير ، فلما انشقت الحديقة وقسمها الشارع الى جزئين ، بقى نصفها المطل على النهر يضم الجراج والسلاحليك ومبنى التليفون ، والكرويتات الخشبية تحت تعريشة الجهنمية • اغرى انفصالها هذا أخوته وأصدقاءهم بالجلوس فيها ، والاختلاء فى جماعات للمرح ، ولم يعد طه يجد المكان مناسبا ••

فى أحد المغارب ، وعند عودته من الحقل ، نزل من فوق حماره الحصاوى فى الشارع قبل أن يستدير ليدخل الدوار ، وترك الحمار الذى يعرف طريقه يدخل الى الزريبة من الباب الخلفى • وأثناء ترجله ، وتحت ثقل جسده الكبير ، احتاج أن يستند الى شيء ما ، فتنبه الى هذا الحجر • وفى اليوم التالى ، بعد أن فرغ من احتساء قهوته ، وأعطى بشير الفنجان ، قرر الخروج والجلوس فوق قاعدة العمود •• ارتاح لرؤية العائدين بمواشيهم من الحقول وتلقى سلامات كثيرة ، وتحيات حميمة ، وعرف أخبار القرية كلها فى مناخ مرح بعيد عن التقاليد المعتادة • وقد شاهده الناس جالسا عصر كل يوم ، من ذلك التاريخ ، حتى مساء آخر أيام حياته ، كاسرا ـ بهذا اللقاء فى الهواء الطلق ـ العزلة التى تطوق أهل السلطة ، ورهبة الدوار العتيق الذى يحرسه أسدان من المرمر تلمع عيونهما الزجاجية فى الظلام • لهذا السبب الذى جاء تلقائيا

دون تفكير ، والمنبعث من نفس راضية مستقرة ، ولأسـباب أخرى كثيرة ، اكتسب الشيخ طه صفتين لا تجتمعان فى انسان دون أن يتبوأ موقع الزعامة : الحب والهيبة · ولأنه كان يملك حرمـا يستند فيه على قوة وتاريخ طويل فى العلاقة مع البوليس ، لذا كان موقف الحكمدار رأفت قاسم موقفا محيرا ، اذ كان من المعتـاد فى مثل هذه الظروف أن يتم توجيه لوم شديد الى العمدة الذى تخرج تصرفات قريته عن الحدود المسموح بها ·· والعمدة لم يكن موجودا ساعة وقوع الحادث ·· والآن ، ها هو يقطع الطريق اليه ، والجميع وقوف لتحيته ·

ـ اهلا حضرة العمدة

ـ شرفتم ياسعادة الباشا

دقائق مرت سريعا فى تبادل التحية ، وقبل أن يطـرحوا شيئا عن الحادث التفتوا للضجة القادمة من الخارج ـ رأوا وكيل النائب العام ومساعديه قادمين الى الفيلا · استقبلهم الضـباط والعمدة مرحبين ، ثم أرشدهم طه الى غرفة خاصة ليبدأ التحقيق ·· وانشغل الجميع فى أعمال مختلفة ، ودارت الرحى ، والعظـام تقعقع بين فكيها · استأذن العمدة بعد أن همس شيخ الخفراء بكلمات فى اذنيه ، وانطلق الى الرواق ، ودخل الى غرفة القهوة · هناك أخبره صادق القهوجى الجديد ، الذى حل مـكان بشـير الهارب ، ان الرجال يريدون مقابلته سرا ، ولا يستطيعون الدخول ، وأن السلاح الذى يبحثون عنه موجود ، فماذا هم فاعلون ، والبلد كلها مطوقة بالعسكر · أجاب العمـدة مركزا النـظر فى عينى صادق :

ـ أولا ·· لابد من اخفاء السلاح · القوا به فى احدى الترع العميقة بسرعة قبل أن يبدأ التفتيش مرة أخرى · وحسابكم عندى بعد أن تنقشع الغمة ·

خرج ممسكا طرف جلبابه وعباءته متخطيا أشياء مهملة وجوالا للفحم متكئا بجوار الباب ، فلما حاول تحاشيه لاحظ أن العسكرى يجرجر وراءه فلاحا مكبلا الى بئر السلم الذى يصعد الى سطح الفيللا ، فاتجه اليه · وهناك اكتشف أن ضابط المباحث يستدرج الشاهد ، فاذا أجاب اجابة تقنعه أرسله الى وكيل النائب العام ليستكمل التحقيق ، واذا أنكر الرجل صلته بالحادث ، أوسعه لكما وضربا حتى يعترف على أمل الانتهاء بسرعة من التحقيقات قبل حلول الظلام · خرج العمدة الى الساحة ، ومشى يتفقد الجرحى قائلا بصوت سمعه الجميع :

ـ أريد أن تتعاونوا مع البوليس والنيابة · وسأرسل لكم بالطعام حالا ·

سرت همهمة : مظلومون والختمة ·· مظلومون يا عالم ·

أمر بسيونى باحضار غذاء للفلاحين والعساكر الجرحى ، الذين لم يتذوقوا شيئا منذ الصباح · ومع مرور الصوانى النحاسية بالخبز اليابس ، والجبن القريش ، والعسل الأسود ، سرب الرجالا الى المتهمين أوامر العمدة بأن يقولوا فى التحقيق أنهم لا يعرفون شيئا ، وقد تدخلوا ليفضوا المشاجرة ·· ولاحظ المحقق أن الاجابات جاءت كلها متطابقة ، فكل واحد منهم كان مارا بالصدفة أمام دار أبو مندور ، أو جاءته استغاثة من ابن عمه أو من أحد جيرانهم فتدخل ليفض المشاجرة ظانا أنهم أغراب ، وقد دخلوا يسرقون الدار ورجالها فى الغيط ، أو أنهم مجرمون اكتراهم أحد أعداء أبو مندور ليقتله ، فهبوا لنجدة ابن بلدهم · لم يتمالك وكيل النائب العام نفسه أمام هذه الاجابات ، وسأل الشاهد أمامه !

ـ ما معنى هذا الكلام يا رجل ؟ هل تضلل الحكومة ؟

أتعرف عقوبة الشهادة الزور ؟

نظر الشاهد الى الأرض قائلا فى انكسار :

- هذا ما حدث يا سعادة البك ، ان شاء الله تسعد والتفت نحو صوت الطرقات فوق الباب ، دخل عسكرى يتقدم العمدة الذى أسر الى المحقق بشيء هب بعده واقفا وطلب حضور البكباشي مراد أمامه ، ونهره بعد انصراف طه ٠

- جاءتنى شكوى أنك تعذب الفلاحين ليعترفوا على مكان السلاح ٠ أترك الأمر للنيابة مفهوم ؟

- الفلاحون اللئام اخفوا السلاح ٠ والضابط بين الحياة والموت ، وسلاحه هو شرفه ، وأنا استخدم سلطاتى فى التحقيق ، والسؤال قبل تحويل الأوراق للنيابة ٠

- سلطاتك توقفت الآن يا حضرة الضابط ، والكلام واضح ٠ انتهينا ٠

خرج المامور مكفهرا ، وتوجه مباشرة الى الحكمدار ، وأخبره بما دار فصاح بغضب :

- أريد قوة تفتيش كبيرة تمسح الدور دارا دارا ، ولا تترك حجرا فى البلد دون أن تقلبه ٠

استمر التفتيش اياما التحم فيها سواد ليل التحقيق ببياض نهاره ، وتحقق فى نفوس الجميع معنى كانوا يسمعونه لكنهم لم يذوقوا معناه « ان الدنيا بلا لون أو طعم ٠ » وانتهى بتحويل أوراق أبو مندور ، وأولاده ، وعدد كبير من الفلاحين الى المحكمة ، واستقال طه ، لكن استقالته رفضت ٠٠

وقع خبر الاستقالة على العائلة وقوع الصاعقة ٠ لم يشاور طه أحد ، ولا أسر لمخلوق بما أعتزمه ، غير أن وديدة قدرت حجم

الضغط بما كانت تراه فى سريرها كل ليلة ، وهو مستلق على ظهره ، ولا يغمض له جفن ، وتكتفى منه باشارة أو جملة مختصرة كى تفهم المعنى ٠ وكان يريحه ألا تثقل عليه بالأسئلة ، لكنه امتثل لرغبتها الوحيدة التى استحلفته أن ينفذها ، وقالتها له فى فيض من حنان أمومى لم يستطع أن يقاومه ، وقبل رغبتها كطفل ملهوف الى الراحة :

ـ خذ من النوم ما يكفى لكى تقاوم ٠

لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، كان يدخل الى حجرته وفى نيته الغرق فى بئر السبات بعد دقيقة واحدة ، وكانت الغرفة التى تشرف وديدة على رعايتها بنفسها معطرة ، مفرودة الكلة السماوية اللون ، مفتوح شباكها البحرى ، مغلق ضوؤها ، حتى اذا شعرت بحركته مدت يدها الى اللمبة الجاز الخـزف المعلقة بجوار سريرها ، وأرسلت نورا خافتا ينعش الورد الصغير النائم فى الشرفة ، والذى تغيره كل يوم وتضع وسطه عودا من الريحان البلدى ٠ وتستقبله باسمة الوجه كاشفة عن السنتين المتشابكتين بحلاوة فى مقدمة فمها ، وكثيرا ما سأل طه نفسه « لماذا كل هذه الراحة مع وديدة ؟ الحب غير الراحة » ٠ لم تكن الرفـاهية الخاصة التى تحققها له هى السبب ، وهو يقلب الأمر فى ذهنه لأنه ربيب بيت يحصل كل أفراده على هذه الرفاهية دون ان يلتفتوا لها ٠ كانت شيئا آخر يجهله ٠

فى احدى الليالى التى سهر فيها سمع ديك الفجر ، واكتشف أن ما يحقق له الاكتمال معها ، هو احساسها الدائم بالرضى ، ومقابلتها الهادئة لكل ما يعصف بها وباسرتها ، وايمانها المطلق بتقبل ما يفعله الخريف ، لأنه يمهد للشتاء والربيع ! كثيرا ما تأملها وهى نائمة ، وترددت فى نفسه هذه الكلمات « يا الله من اين اتت بكل هذه الراحة ، والطمانينة ؟! » ، ثم استسلم لنوم عميق ،

وصحا من حركة أصابعها التى تهمس لجسده بحرارة الحياة والحب وتدعوه كى يصلى الفجر ٠٠

بكت عديلة صامتة حين أخبرها باستقالته ، ورفض الاستقالة انتظارا لقرار ادارى ٠ اذ أطار تصرف طه ، وحمايته للفلاحين من بطش البوليس صواب الحكمدار رأفت قاسم ، واعتبر المسألة كلها تحديا شخصيا له ٠ قبل العمدة ٠ كف أمه ، ربتت بيدها الأخرى فوق ظهره ، ثم قالت بهدوء وهى تهز رأسها ٠

ـ الحمد لله ان الحاج عبد القادر لم ير هذا اليوم ٠ كان راح فيها !!

خرج صوت نعمة متهدجا ، ولم تسكته نظرة الحزم الشديدة التى وجهتها لها أمها وقالت :

ـ فداك ٠ فداك يا أخوى ٠ لا تقهر روحك ٠ ان شاء الله سليمة ٠

حكمت المحكمة ـ بعد شهور طويلة استعاد فيها الضابط عافيته ـ بالسجن سنة على بعض الرجال ، وشهور قليلة على آخرين ٠ وترتب على هذا الحادث نتيجتان عانت منهما البلدة سنوات طويلة ، الأولى هى وقف العمدة عن العمل لمدة سنة ، والثانية هى دخول الهجانة الى القرية واعلان حظر التجول بعد صلاة المغرب مباشرة ، وشاهد الكفر الجمال تحمل رجالا ازرقت بشرتهم السوداء تحت ضوء الفوانيس فى شوارع القرية المظلمة ، وبعثت رؤيتهم الرهبة فى نفوس الكبار قبل الأطفال ، وهم يتطلعون الى أحجامهم الفارعة فوق سنام الحيوان الطيب ، والى السوط السودانى الذى يطرقع بين أيديهم ٠٠ وقفوا وراء أبواب الدور الموارية التى اختفى نصفها تحت أرض الشارع يلاحظونهم ٠ خنقهم الحر فصعدوا الى الأسطح المعرشة بالقش ، وتشجعوا وتسامروا

فوقها بديلا عن الطريق الذى كانوا يفرشونه بالحصير بعد صلاه المغرب ، وتعودوا على الاستماع الى الشتائم من افواه ترطن بلغة متشابكة حروفها ، فلما اقتربوا منهم عرفوا أنهم مسلمون • وكانت البداية عندما تقدم الأطفال الى العفريت « سح سح » كما يطلقون عليه ، وغنوا له الأغنيات التى يقولونها لمشعل الفوانيس :

عفريت الليل بسبع رجلين •

ركضوا واختفوا وراء الأبواب لئلا يبطهم الجمل • ودقت قلوبهم بعنف ، وهم يشاهدون حركة الموج الهادىء التى ترفع العفريت وتهبط به ، وسن الرجل الذهبية تلمع فى الظلام ، والجمل يبرك ويعفر حوله التراب • صعدوا الى سطح بيت ، وانتقلوا بخفة فراشة من سطح الى سطح يتابعون حركته • توقف الرجل يلف سيجارة بعناية • اتفق الأولاد أن يلقوا حجرا صغيرا بجواره ، ثم اختبأوا وسط القش • وحين رفعوا رؤوسهم متلصصين ، رأوا « سح سح » يضع سيجارة أخرى فى فم الجمل • أعجب حسنين ابن منصور به ، وقرر أن يحادثه • قال محمود المصيلحي أنه يستطيع الكلام معه دون خوف • تحلقوا حولهما ، ولعبوا « ملك والا كتابة » ، وطار القرش فى الهواء ليكسب حسنين الرهان ، نزلوا من سطح الدار يمشون فوق بخار ، لا يصدقون ما يحدث ، تراجع واحد منهم ، خرج صوته متكسرا يطلب منهم بخوف ألا يذهبوا •• لم يهتم به أحد •• تشابكت أياديهم ، وتلاصقت أكتافهم • تقدم حسنين الى العسكرى وقال :

– كيف يدخن الجمل السيجارة ؟!

لم يفهم « سح سح » السؤال ، لكن اشارات الولد نبهته للمعنى • ضحك •• وتعالت قهقهاته فى الفراغ والسكون ، واهتزت بطنه الطويلة المتكورة امامه •• تراجع الصبيان والبنات الذين

كانوا قد اقتربوا قليلا هرس الخوف قلوبهم · حين امتدت يده الى رأس حسنين · وقبل أن تربت عليها كانت روحه وروح كل الأطفال الذين يتابعونه قد ساخت ، وظن نفسه ماكولا لا ريب ·· تحركت الأصابع السوداء الرفيعة فى شعر الولد ، ثم أمسكت بسيجارة قدمتها له ، واشارت له أن يضعها بنفسه فى فم الجمل ·· عاد الأولاد الى الشارع ، والتفوا حول المارد · وتبادلوا الامساك بالسيجارة ، والاستمتاع بمنظره وهو ينفث دخانها ، وتعالت الضحكات وتبخر الخوف ··

وعرفوا أن العسكرى اسمه ادريس ، وأنه من بلاد بعيدة عند الشلال · وقبل أن تنتشر أسماء رجال الهجانة بين الفلاحين ، وبعد أن تبادلوا الشاى ، وعرفوا اسماء الأولاد فى كل دار ، وصاحوا بهم كلما مروا فى الشارع ، وشاهدت القرية صورا صغيرة ممسوخة لأطفال سود البشرة لهم ضحكة مشرقة خرجت من محافظ جلدية طويلة طويت بعناية فى جاكيتات العسكر ، اكتشفت القرية أنها ستعيد ربط أواصر المعرفة من البداية ، اذ تغيرت فرقة الهجانة وقائدها ، ورحلوا الى قرية اخرى وجاءهم آخرون لهم نفس الملامح ، ونفس القلوب ، وغلظة احتاجت الى الصبر وهم يواجهون الشدة التى المت بهم ، ويسمعون الشتائم وسباب الأمهات، واضطروا للاختفاء فى دورهم الواطئة قبل أن يحل الظلام ، ولا يبقى صريخ ابن يومين فى أروقة القرية ··

نصبت المديرية وكيل العمدة مكان طه بك المصلحى حتى تنتهى فترة وقفه عن العمل · وكان الوكيل شيخا مسنا من بيت الفحامين ، اسمه أبو نصيف لكن دواره يقى خاويا ولم يلجأ اليه اهل القرية فى استشارة ، رغم أن طه كان يرسلهم اليه لكى يبلغوه عن أسماء المواليد والوفيات ·· لكنهم كانوا يضطرون أحيانا للوقوع فى عرضه لكى يمنع احدهم رحيل ابنه الى الجهادية ·وقد

احتار ابو نصيف فى هذا الموضوع ، اذ اعتادت القرية التواطؤ مع ابى عبد الله على ترك الأولاد الذين يبلغون السن الواجبة فى حالة عدم وجود من يساعد الأب الى ان يشتد عود الأبناء الآخرين ويستطيعون معاونته · لكنه لم يكن يملك نفوذ ابو طه ، وايضا كان يدين بالولاء للحكمدار الذى نفذ قرار وقف العمدة ، حتى انه ارسل لكل الهاربين من الجندية قوة عسكر فى ليلة حلفت بها القرية لسنوات ، وجرجروهم الى المركز فى « البوكس » رغم توسلات الجميع · وهو ما اثار سخط البلدة التى اعتادت شيئا من الحرية فى عصر ابو عبد الله ، حرية لم تستمر طويلا وانتهت الى شبه سجن ، وأحكام عرفية ، وتضييق فى رزق كان فى الأصل ضيقا ·

***

هلت نسمات الشتاء الباردة · وصلت فى الفجر أول طرقة لفصل الصقيع والاختباء تحت الصوف ، لفحت القاعدين من نومهم فى هذا الوقت ، وقشعرت جلدهم ، وبذرت فوقه بثورا سرعان ما انطفأت · قامت وديدة فى همة تنظم سبت الفطير المشلتت والجبن ومعجنات «السمبوسك والقراقيش والمنين»مع صفيحةالقشدة والعسل الأبيض ، وذبحت عددا من الطيور لكى تأخذها نعمة التى اعتزمت الانتقال الى القاهرة كى تعيش فيها مع لبنها ليكمل تعليمه الثانوى ، ويدخل الجامعة بعد ان اعلنت انها أبدا لن ترسل ابنها الى أوربا مثل اخواله ، وانها ستدخله كلية قريبة تسكن امامها أيضا · ودعتها وديدة بدموع غزيرة ، واستحلفتها الا تتغيب عنها كثيرا ، وبكت البنات وتعلقن فى رقبة عمتهن ، وقلن لها انهن سيلحقن بها اذا ما وافق والدهن ، ويعشن معها فى البيت بدلا من المدرسة الداخلية ·· خرجت نعمة تهتز كانها ما فارقت دوار أبيها مرة واحدة ، رغم انها ربما كانت المراة الوحيدة بين اهلها التى

عاشت مثل عصفور مربوط بخيط فى يد صاحبه ، يطيره فى السماء قليلا ، ثم يجذبه ليعود الى المركز ٠

مرت أيام الاعداد لرحيل الصبيان الى شقة فى العاصمة ، والبنات الى الداخلية سريعة ، لكنها مؤلمة ذكرت أهل الدوار بسرعة دوران الزمن ، اذ لم يكادوا يستقبلونهم حتى فرت أيام العطلة ، وعادوا للانتظام فى حياة أخرى ، ولم يبق فى الدوار غير الأطفال الصغار فى سن الكتاب والمدرسة الابتدائية ، ورضيع مازال يلعب فى حجر وديدة ٠ صفصفت الحياة من حولهم بعد أن هدأ الضجيج فى الحرملك وفى دوار العمدة الخارجى ، وشعـر الجميع بعـد الأحداث العاصفة التى مروا بها أن المـكان كبير جـدا ٠ تأملوه وتعجبوا ، وسأل بعضهم ٠٠ لماذا كل هذه الأبنية ، والأطفال سرعان ما يكبرون ويرحلون ؟ قالت أم طه :

ــ يرحلون ، ويأتى من يعمر ، والحياة تسير ٠

صمتت قليلا ثم وجهت حديثها الى طه :

ــ أريدك أن تسافر الى رشدى فى الاسكندرية ، وتطيب خاطره ٠٠ أعرف أنك مشغول ، والظروف غير مناسبة ، لكننى قلقة على أحواله ٠

قال طه : والله لا أرد لك طلبا أبدا ٠٠ حاضر يانينا ، يمر الغد وبعد الغد ، أرحل فى النهار الثالث باذن الله !! ٠

- ٥ -

جلس طه فى الشكمة ، فى نفس المكان الذى اعتاد أن يقابل فيه أهل القرية ويحل مشاكلهم ٠ تأمل كل ما مر به هو وعائلته وقريته ، وما دفعوه ثمنا باهظا لحياة بات يشك كثيرا فى نتيجتها ٠ قلب فى ذهنه كل ما يعرفه ، وما سعى اليه منذ ترك عيشة أهله المترفة ، واختار أن يكون واحد من الأهالى ٠٠ كان الحاج عبد القادر قد أرسل ابنيه عبد الحكيم وحيدر الى باريس ، الأول لدراسة الطب ، والثانى لدراسة الحقوق ، واختار لطه دراسة الأزهر ، نفس الطريق الذى قطعه من قبل ليصبح عمدة المنتهى ، وكتب له عددا من الأفدنة تكفى النصاب القانونى اذا ما أراد ترشيح نفسه يوما خلفا له ٠٠

تذكر طه اليوم الذى قرر أن يغير مجرى حياته ويصبح تاجرا للحبوب ، وعجلات الكارتة تقعقع تحت ثقل جسمه ، وسرعة الحصانين اللذين طار بهما فوق الطريق الترابى ، مثل شهاب يسقط فى سماء معتمة ٠ أراد الهرب بأفكاره من كل ما يضغط عليه ٠ تشبث باللجامين بقوة ، ثم نطرهما فوق ظهرى الحصانين ليزيد من سرعتهما ، حتى غطى الغبار المنفجر من قشرة الأرض الصلبة الرؤية الجانبية ، وتصاعد صوت الحوافر ٠٠ ترك ترتك ترك ٠

أراد الانفلات بأفكاره وحياته ، لم يشاهد الحركة الرتيبة حوله فى الحقول أو يستمتع برائحة زهر الخيار التى ملأت رئتيه قادمة من الجهة البحرية ٠ ركز بصره فى نقطة بعيدة عند الأفق

الهارب أمامه · مرت أشجار الطريق ، وانطوت الحقول تحت العجلات ، دون أن يشعر بقلقلة النزول والصعود من الحفر ·

« لماذا لا يريد استقلالي ؟ لقد أعطى الحق لاخوتي الأصغر لكي يشق كل منهم طريقه كيفما شاء ، وقدم لي الجزرة كي ألهث وراءها ·· الآن ينمو كل منهم ، ويكون ثروته الخاصة ، وأعمل أنا ليل نهار في خدمة العائلة ، دون أن يكون لي غير أمل زائف في ثمرة عطبت قبل أن أقطفها · حتى الأرض التي كتبها لي لا تساوي ما ينفقه أي منهم في سنة واحدة على دراسته ورحلاته الى أوربا · صحيح أنهم يحصلون على النقود من يدي ، لكنني منفذ فحسب · لا أملك حق التصرف ! لقد أصبحنا أنا وزوجتي مثل ولي عهد محسود من كافة الأمراء على ما سيطوله في أحد الأيام حتى شاخ دون بلوغ هدفه ، لكننا في الواقع لا نفرق كثيرا عن أجرائنا ·· أنا أدير كل الأعمال ، ومجهودي يصب عند الجميع ، وهي تعمل ليل نهار لراحة العائلة دون أن تملك حتى اقتراحا ، أو صوتا · لقد تحولنا الى عبيد بالفعل · كم مرة تحدثت اليه ، ولا أسمع في النهاية الا كلمة واحدة « اطلب ما تشاء من مال هذا هو عرفنا ، وعليه نشأنا وربينا · » أي عرف هذا ؟ لقد كان من حقي اختيار طريقي ، ولكنه رفض ، وأطعت أنا · وكان هذا بداية تنازلات كثيرة ، رغم أنه هو نفسه كسر القاعدة عندما نصب عمدة دون أبيه وأعمامه بعد جده تمام ·

أفزع صوت فرقعة العجلات طيور العنز التي حلقت في سرب كبير قريب من الأرض فتفرقت ، وتفركشت بعيدا عن مسارها ، تابعها بعينيه وهي تستعيد نظام صفوفها ، وتواصل طريقها كأن شيئا لم يحدث · استغرقته أفكاره « لا فائدة لقد تعبت من الحديث معه ، وتعبت وديدة دون أن تشكو لي ، لكنني ألاحظ ما يحدث بينها وبين أمي وأخوتي · سأستقل · أعرف أنه يحتاج لي ، وأنني اذا ابتعدت سيبيع البقية الباقية من الأرض ، وأنا لا أستطيع

فراقها ، سأجد وسيلة تجعلنى أعمل ، وأبدأ لأسرتى حياة أخرى ٠ أعطانى الله أمارة أن لى رزقا فى التجارة ، والدليل ما يحدث فى زرائبى من توالد عجيب ، أصبح مسار تعليقات أهل البلد ٠ لكن اين لى برأس المال ٠ انه لن يهبنى اياه رغم خدمتى له طوال حياتى ٠ لقد رفض مرارا ماذا أفعل ؟ ٠

تلفت حوله يقلب الظروف ٠ كان لصيق الصلة بفلاحيه يعرف كل دقائق حياتهم ، يحكونها أمامه فى بساطة وود ٠ قرر أن يفعل كما يفعلون ٠ اذ بعد أن تنتهى الأفراح ، ويلمع الكردان فى صدر العروس شهرا أو يزيد قليلا ، يأخذه الزوج ليبيعه ويشترى بقرة ، أو جاموسة حسب الأحوال ٠ لمعت الفكرة فى رأسه « وبيدة تملك مصاغا كثيرا ٠ سأقترض بعضه ، وأرده لها عندما يفتح الله علينا فى الرزق ٠ لقد استجبت لطلبها ، وبقيت فى المنتهى بعد أن عقدت العزم على الرحيل الى البحيرة حيث المجال كبير لاستصلاح الأراضى ٠ كنت سأبيع الأرض التى كتبت لى لكى اشترى هناك ، وأنقل أسرتى ، لكنها استحلفتنى أن أرحمها ، وارحم أمى ٠ لن ترفض اقتراحى هذا ٠ لن ترفض ٠٠ درسته طويلا ، فى تجارة الحبوب منفذ يتيح لى البقاء هنا ، ورعاية مصالح أبى ويسمح باستقلالى ايضا ٠٠ غدا أرحل الى الصعيد لاستكشاف السوق ، وربما أنجح فى الاتفاق على التوريد » ٠ سرت راحة تدثر أعضاء جسمه التى تهزها انفعالاته المكتومة ، واستوى الطريق أمامه ناعما ، لكنه سرعان ما تنبه لخيالات تركض وتلوح عن بعد على غير العادة فى هذا الوقت من النهار الذى ينشغل فيه معظم الفلاحين فى الحقول ٠٠ تصاعدت الحركة ، واتضحت ملامحها ٠ كان أحد الثيران قد انفلت من المحراث مجرجرا سكينته الحادة التى ظلت مشتبكة فى قدمه اليسرى ، والفلاحون يركضون خلفه ٠٠ زاد طه من سرعة العربة ، ثم أوقف الحصانين عنوة ٠ ارتجت الأخشاب ، وجرحت العجلات الأرض وغاصت فى شق طولى حتى

توقفت أمام الغيط • قفز الى الطريق مدركا سبب هياج الثور الذى كلما نقل قدما شقت الشفرة لحم ساقه الأخرى • توقف الحيوان مذعورا يبحث عن أسباب آلامه • جاء الفلاحون من كل ناحية ليحكموا الحلقة حوله •• اقتربوا بحذر •• وهم يحمدون الله أنهم أخيرا قد لحقوا به •• حك الثور ظلفه الأمامى فى التربة الصلبة • نشر قرنيه نحو السماء ، ووضع رأسه بين قدميه الأماميتين ، وانطلق يدهس كل ما يقابله ، وينطح من يقف فى طريقه • كاد أن يحطم قرنيه القويين فى الشجرة التى انتصبت أمامه •• وصل الرجال بقربه وهم يلهثون • استدار ليبتعد • التف السكين المقوس مخترقا مكانا آخر من لحمه • تناثر الدم المندفع ، وارتجت أشداقه تحت النفثات القوية المشتعلة من أنفه •• أفلت طوق الحبل الذى صوبه الرجال نحوه ، وكاد محمود أبو وافية أن ينهرس تحته وهو يمنعه من المرور وسط الأطفال الذين تجمعوا يشاهدون الطالوقة الهارب من المحراث • فوجىء الأطفال أن الثور قد غير مساره واتجه ناحيتهم • تبخر الأمان فجأة ، وكشف الخطر وجهه القبيح • ذعر الأولاد ، والبنات وصرخوا خوفا • وركض الكبار منهم ، وتشتتوا • تسمر طفلان صغيران أمام الوحش • أمسك كل منهما بجلباب الآخر وهو يرتجف • شلهما الرعب • لم يعرفا أن الثور مرعوب أيضا ، يحارب وحشا يلتهم قدميه دون أن يستطيع تصويب ضربات لقتله ، والتخلص منه ، ولا يفهم سر مطاردة الرجال له •• انزاح الثور من طريق الطفلين بعد أن أوقع أبو وافية •• ركض طه رافعا يديه الى أعلى مقابلا له • ازداد الوحش هياجا مع تطاير أجزاء حية من لحمه فى الهواء ، ثم وقف على بعد أمتار ، وضربات قلبه تنفخ نصفه الأمامى فبدا نصفه الخلفى رفيعا غير متناسب مع حجمه الهائل ، رقص رقصة غشيمة فيها رشاقة مطوحا رأسه يسارا ويمينا ، ثم اندفع نحو طه والفلاحون يتصايحون :

ــ حلق •• حلق يا جدع •• حاسب يا أبا عبد الله !!

هو الآن يهاجم مخلوقا يراه · مخلوقا غير وهمى · اندفع يطلب الخلاص ، ارتج تحت وطأة الغضب فرد طه ذراعيه محجزا أكبر مساحة من الفضاء المنفتح أمامه · تنحى عن الأرض التى قفز الثور نحوها ، وفى ضربه حاطفه امسك القرنين ، وانتصب فى مكانه كوتد قديم يضرب جذوره حتى مركز الأرض · لا تهزه قوة ريح أو فلفصات حيوان هائج ، لوى الرأس · رشق الثور قدميه الأماميتين عنوة فى التربة التى انهارت تحت قوة حوافره ، وأطاحت السكين بقطعة لحم أخرى من ساقه ، فزعق عاااآ ، ولف رأسه التى يمسك بها طه فى الاتجاه المعاكس بسرعة طرحت الصياد أرضا ·· وقعا معا ·· انكب الرجال فوقه يقيدونه ، وخلع بعضهم الآلة التى تعذبه ، وكبس ابو وافية الطين فوق الدم النافر وراح يهدئه بربتات خفيفة فوق جسمه حتى استسلم · ولم ينس أن يطلق عاآ ناعمة ، تسأل من حوله عن نتيجة المعركة وهل انتصر فيها ؟

قام طه بمساعدة الفلاحين ، وأمسك بكتفه الذى انخلعت عظمته عن كاحله فلما حاول الوقوف مستقيما اشتعل فيضان من الألم منطلقا من عموده الفقرى ظل يعاوده طوال حياته ، رغم الحزام الصوفى الذى حاكته له وديدة ، ورغم أكياس الردة الساخنة ، والحبوب التى كتبها الطبيب · عطبت فقرة فى ظهره واكتسب احترام الفلاحين الذين لم ينسوا شجاعته ، ورددوها مرات كثيرة كانت آخرها يوم رحيله ، عندما كان ممددا فى صندوق خشبى ، وذبحوا ثورا شبيها ليؤنس وحدة روحه فى قبره الى الأبد ·

لم يتصور الحاج عبد القادر ـ عندما اختار طه ليدرس فى الأزهر ، وكتب له النصاب ليصبح عمدة من بعده ـ أن يتحول طه الى فلاح يزرع ويقلع ويتاجر ، ويرتدى جلبابا واحدا لا يخلعه

الا عند صلاة المغرب • كان يحدث نفسه حين سمعته عديلة وهى ممسكة بالقفطان فى يدها انتظارا لأن يتناوله منها :

ـ هل يمكن أن يكون طه من صلبى ؟

قالت : سقت عليك النبى ألا تغضب عليه •• هو فلاح وهذا نصيبنا •

قال ، وقد أمسك بقلة الماء الممتلئة بمنقوع الشعير الطازج :

ـ نصيبنا ؟ وكيف يكون نصيبنا يابنت الأكابر ؟ ألا تشاهدين التراب على جثته وهو داخل عليك آخر النهار مثل الفلاحين ؟ ألا تتعفف امرأته من الاقتراب منه ؟ والله لو لم تكن كبيرة ، لكنت منعته من دخول الدوار والناس فيه ••

ابتلع ريقه •• وقرب القلة من شفتيه • سمع كركرة الماء فيها حتى نزل يبلل شدقيه ويرويه ، وقبل أن يعيدها الى الصينية أكمل :

ـ ماذا يقول الأعيان ، وهم يشاهدون ابنى أنا عبد القادر بك تمام المصيلحى أغنى أغنياء الناحية بهذا الشكل ؟

تحول وجهه الأحمر الى لون النبيذ القانى ، ونفرت عروق رقبته ، وتسارعت نبضات الغدة التى تحتلها حتى انتفخت أوداجه، فأصبح أقرب الى ديك رومى يطقطق على وشك الانقضاض على عدوه •

ـ هل نحتاج الى خولى يا عديلة ؟ أم نحتاج الى عمده يملأ مكانه ، وتكون له هيبة بين الناس ؟ ألا يرى اخوته ؟ ألم يترب فى كنفى ؟ لماذا لم يتعلم عاداتى ، وعادات أهله ؟

أخذ من يدها العمامة ، والشال وشرب كوب الكينا ، واطمأن فى المرآة على ترتيب ملابسه ، وبرم أطراف شنبه الرفيع ، وتأكد

من صلابته ، ثم ربت على صدره ليتأكد من وجود أحجبته الكثيرة في مكانها فوق الصديرى ٠٠ كان مختالا بنفسه ، مرتاحا لحياته ٠٠ حرك رأسه أمام المرآة ليفتش عن شعره بيضاء تكون قد أفلتت من الصبغة أو نبت غيرها فى رأسه أو وجهه لتفسد عليه احساسه بالزهو ٠ سحب العصا من فوق المشجب ، وعبر الصالة الى الخارج ٠ دقيق الجسم ، نحيل ، له وجه مستدير وعينان سوداوان واسعتان لا يستقر بؤبؤهما ، وأنف رفيع يشبه ثمرة البلح الزغلول بلا انحناءات ، يجلس تحته ـ مرتاحا ، فم ذو شفتين رفيعتين تقطع السفلي منه نغزة واضحة تشبه طابع الحسن الرابض فوق ذقنه ، وله شعر احمر مجعد أورثه لبعض أولاده واحفاده ، اذ تغلب لون شعر زوجته الأسود الفاحم على ميراث العـدد الأكبر من الذرية ٠٠ صدمه برد الفجر تنحنح راض عن أفعـال طه ، لكنه سرعان ما استقبل الصباح بابتسامة ، فلم يكن يسمح لأى منغص أن يغير دمه أو يفرط فى يوم من حياته بالنكد ٠٠ التقى ابنه عبر السباط ، وأعطاه كفه ليقبله ، ثم نزلا معا دون أن يفتحا الموضوع الذى طال النقاش فيه ٠ صليا معا للمرة الأولى بعد أن شفى طه من حادث الوقوع أمام الثور ، ثم عادا ليحتسيا القهوة من يد بشير ٠ بعدها أسلم ذقنه لسعيد الحلاق ، وانتظر طه الدور صامتا ٠

تعمدا ألا تلتقى عيونهما ٠ استرخى العمدة فى مقعده ، وحلق ببصره فى السقف وعروقه الخشبية المنتظمة « أطاعنى طه رغم أنه لم يكن يريد دراسة الأزهر ٠ حمل عنى مسئولية رعاية الأرض ، وساعد عمه أحمد فى الاشراف على العزب ، لماذا لا يطيعنى هذه المرة ؟ من أين جاء هذا التغيير ؟ هل هى امرأته ؟ لو كانت وديدة أقوى قليلا لكانت اثرت عليه كيفما شئت انا ٠ لكن يبدو اننا ضغطنا كثيرا كى تطيعنا ، فلم يعد فى مقدورها مواجهة أحد ٠٠ يجب أن أشدد على عديلة أن تخفف عنها ادارة البيت ٠٠ والا ترهقها ، ويكفى أن هذه المرأة تهبنا كل هذا العدد من الأطفال !! » ٠

حظيت وديدة منذ دخولها الدوار برعاية الحاج عبد القادر الذى رأى فيها امرأة ولودا تحقق له العزوة التى يبتغيها . فطلب منها الا تكف أبدا عن الانجاب ، وأمدها بكل أسباب الراحة ، فكان يترك لها الوليد سنتين ترضعه ، ثم يأخذه منها الى دار أمينة ليقضي يومه بالكامل ويعود مع الليل الى حضنها ، وكانت زيارات الأطفال لها تتم مرتين يوميا عند الغداء ، ومرة ساعة النوم ، وظلت هذه الطقوس تمارس فى تربية الأطفـــال الى أن يشب الابن الى سن الكتاب ، فيستقر نهائيا مع العائلة ، ويخرج بعدها الى المدرسة لكن أحدا من العائلة لم يعرف كيف تسلل الى نساء القرية أن خصوبة وديدة لم تكن فى قدرتها على انجـاب طفل مرة كل سنتين ، بل انها تصل الى كل ما تمسه يداها ، وكل ما تمتلكه ، وكل ما ينمو ، ويتوالد فى الدار أو خارجها ويمت لها بصلة ٠ قالت بعض قريباتها ان الاحتياج للألبان زاد بسبب عدد العيال والضيوف ، والأسرة التى تتشعب بسرعة ، مما جعلها تضغط على زوجها لجلب مزيدا من الأبقار والجاموس للوفاء بمتطلباتها حتى اكتظت الزريبة بالبهائم ٠٠ ولكن دحض هذا الرأى شائعة عمت المنتهى مفادها أن خصوبتها هذه معدية ، وتسـابقت الفلاحـات العاقرات فى الحصول منها على «الخلاص »(*) بعد كل ولادة لها ٠٠ بدأت الحكاية عندما احتارت أم طه مع ابنتها نعمة التى مر على زواجها سنوات دون أن تكتحل عيناها برؤية مولود لها ، وطالبهم الأطباء بالصبر والانتظار حتى ملت وكلت من استخدام الوسائل المعتادة ، وغير المعتادة التى تفك كبس ابنتها الذى من المحتمل أن يكون قد حدث دون أن يلاحظه أحد فى ليلة زفافها ٠ وقبلت الأمر فى ذاكرتها لتكتشف وجود والدة لم يهل عليها هلال ، قابلت العروس لكنها قطعت بعدم وجود واحدة بين أهلها وصديقاتها ،

(*) المشيمة ٠

وأرسلت الى أم العـريس لتسألها فأقسمت أن هذا مستحيل ٠٠ وقد استرابت أم طه أن تكون احدى قريبات زوج نعمة قد ارتدت متعمدة عقدا لؤلؤيا ، ودخلت الى العروس يوم صباحيتها ، أو صبى خارجا لتوه من عند الحلاق ، أو ربما خطت فوق ثمرات الباذنجان الرومى الأسود دون قصد ، وقررت أن تقطع الشك باليقين فجعلت ابنتها تخطى فوق موس الحلاق سبع مرات ساعة صلاة الجمعة فى أسابيع ثلاثة متتالية ، ثم أرسلتها الى غيط الباذنجان وشقته سبعا أيضا ، واستحمت بماء نقع فيه عقد اللؤلؤ بعد أن شربت بعضه ٠ وكلما فشلت طريقة استخدمت أخرى ٠٠ شكت عديلة أن تكون ابنتها قد عبرت فوق عتبة مرشوش فوقها « عمل » ، لكنها قطعت بأن هذا غير ممكن لأنها كلفت نفيسة أن تقلب صوانى نحاسية كبيرة فوق كل عتبة تخطى فوقها العروس أثناء الزفة سواء فى دوارهم أو دوار عريسها ٠٠ أمرت نعمة أن تستعين بالداية التى اغرقت قطعة قماش صوفية بخليط من اللبن ماخوذ بالتساوى من حليب امرأة وابنتها ترضعان معا ، ووضعت القماشة المبلله فى نهاية المهبـل ، لكن الشهور مرت دون أن تحمل نعمة ، فأعادت الداية وضع قطعـة صوف فى المهبل حاكتها على شكل كيس صغير ملأته بدقيق الحلبة، ووضعت كاسات الهواء فوق أسفل ظهرها أمام الرجم حتى تطرد الرطوبة ، ولكن مجهود الداية راح هباء عندما فاضت قطرات الدم من نعمـة ٠ ولم تجد أم طه مناصا من أن ترسـل لها قنوع التى سافرت من فورها الى « الحور » وكشفت عليها ، وجستها ، وبعد أن اقسمت أن جسمها مثل الفل الأبيض الطازج ، وأن علة واحدة لا تسكنها ، وكل شىء فى مكانه الصحيح أسفل بطنها ، راحت تجمع أوراق الشجر والأعشاب المزروعة والبرية فى الناحية كلها التى يمكن أن تراها أو تخطيها نعمة ، وقطعت المنطقة كلها ٠ ولم تتـرك أوراق الليمون ، والكمثرى والكافور ، والتوت الأبيض ،

والأسود ، والجميز حتى أوراق السنط والقرض والسعد(*) ثم غلتها جميعا فى ماء غزير وضعته فى طست الحمام العالى الحواف ، وأجلست نعمة فوق فوهته الضيقة المستديرة ، وغطتها بحرام صوف ثقيل ،

وأدخلتها الى زوجها ٠٠ لكن الأيام مرت دون حمل ، رغم أن ابراهيم اعترف أنه لم يحظ بمتعة مثل هذه من قبل ، وأن نعمة كانت أشبه بمهرة جامحة ساخنة ، وأسرت نعمة الى أمها أنها لم تشعر قبل هذه الليلة أنها زوجة بحق ٠

جربت قنوع أن تصحبها سرا لتدور حول الكنيسة ومقابر النصارى ساعة صلاة الجمعة أيضا ، فلما لم تفلح ، خرجتا ليلا دون فانوس ينير ظلمات طريقهما من باب الزريبة ، فلما وصلتا الى مقصدهما على أطراف البلدة ، وقفت الداية ، وطلبت من نعمة أن تكمل طريقها وحيدة حتى يشيل جسمها ، فلما خطت بقدميها بجوار السور ، ولمست أحجاره الموحشة خافت أن يخرج لها فجأة ذئب أو عفريت ، وابتلعت ريقها ، وقررت العودة ، ثم تذكرت وجوه أولاد زوجها ووحدتها بينهم ، فاستعاذت بالله من الشيطان الرجيم ، واكملت الخطو حتى بان لها الصليب يشق السماء ، فشهقت مرة ، ومرة ، ودبت فى قدميها قوة الخوف ، وتسلطت عليها ، ودفعتها لتدور ، وهى تبصق فى عبها ، ويقشعر بدنها ، وما عرفت أنها أكملت الدائرة حتى وصلت الى قنوع مقطوعة النفس ، وارتمت فى حضنها باكية ، ولم تهدأ الا عندما سمعت صوتها :

– خير ان شاء الله ٠ خير ان شاء الله ٠ ربنا يفك ضيقتك ، ويرزقك ، وتنولى ما فى بالك ٠

(*) السعد نبات برى له جذور مستديرة ٠

وعادت بها فى الأسبوع التالى لتكمل الطقس ، ولما مر شهر وراء آخر دون أن يختبيء جنين فى بطنها اصطحبتها الى السكة الحديد حتى كاد القطار أن يفرمها دون جدوى ، وكادت أن تيأس أم طه لكن الداية العارفة المجربة لم توقف محاولاتها • ففى احدى زيارات نعمة للدوار فاجأتها بمحاولة جديدة اذ أحضرت لها لوفة غسل بها جثمان الشيخ عيسى الذى توفى ذلك اليوم ، وطلبت منها أن تستحم بها ، لكن الخوف الذى أطار صوابها فى الحمام لم يفلح فى تحريك رحمها ليلتقط البذرة • ولم يخل جراب قنوع من الأفكار والأسرار التى لا يعرفها فى القرية سواها لكن فكرة بعينها ترددت كثيرا فى استعمالها مع نعمة رغم الحاح أم طه كانت قد اشتهرت باستعمال قطنة مغموسة فى خلاصة أعشاب ، ومراهم لا يعرف سرها غيرها تمس بها مهبل المرأة العاقر ، ولا تمر أسابيع قليلة حتى تأتى النتيجة الساحرة ، وقد ذاع صيت هذه القطنة حتى سميت قطنة « قنوع » • حقيقة الأمر أن الداية كانت تلاحظ بعد طول تجارب مع الزوجة ، وبعد تردد طويل على الأطباء أنها موفورة الأنوثة ، وأن استعدادها للانجاب كامل ، وأن الذى يمنعها هو عيب لدى الزوج الذى يرفض الذهاب الى المستوصف أو المستشفى فتحضر هذه القطنة بغمسها فى سائل منوى طازج لأحد الرجال ، فكثيرا ما يتوافر لديها قماش ملطخ بافرازات رجل بعد رقاده مع زوجته اذ تتردد عليها الفلاحات ، ويطالبنها باستخدام هذا الأثر فى صناعة حجاب للحماية أو عمل يمنع الزوج من الانتصاب اذا ما فكر فى الزواج من أخرى ، وتملس بها مهبل المرأة وتحرص على ابقائها وقتا كافيا بداخلها ، ثم تنتزعها بنفسها ، وتطلب منها ألا يمسها الماء هذه الليلة •• احتارت قنوع تحت الحاح أم طه التى لم تكن تدرى عن هذا السر شيئا فزوج نعيمة قد أنجب سبعة من الأبناء من قبل ، والطبيب أخبرهم أن العروس سليمة ، فهل تكون ذكورة الرجل قد ضعفت ؟ قررت أن

تعطيها جمار ذكر النخلة ليأكله ، وتأكدت من قيامه بواجباته ، واجلستها فوق مشيمة احدى النساء بعد الولادة ، فلما فشلت قررت ان تجرب خلاص امرأة خصبة تبعث الحياة فى كل ما حولها ٠ فتشت فلم تجد أخصب من وديدة التى عمرت الدار بالخير ،والتى لا تشاهد فى الحوش دون طيور ترفرف حولها ، وتصوصو ، ويعضهم يصعد وراءها الى الطابق الثانى المحرم على الجميع ، وشوشت أم طه بفكرتها فى وقت كانت وديدة تحمل فى بطنها جنينها الخامس ، فلما حانت لها ساعة خير من عند ربها ، أرسلت أم طه سيارة لاحضار نعمة وأخبرت وديدة بطلبها ، واستحلفتها الا تردها خائبة ، وأقسمت لها أن تظل نعمة بعيدة عن الدوار بعد حصولها على الخلاص حتى يهل الهلال ، فلا تنكبس أو تتعرض لجفاف لبنها ٠ بعد تردد قصير وافقت وديدة ، وانتظرت نعمة خلف باب غرفتها حتى زعق الطفل وسمعت خطوات قنوع وهى تركض حاملة المشيمة الدافئة قبل أن تبرد وتهرب منها الحياة ٠ تقدمتها واختفتا فى المقعد وهى تشمر ملابسها عن جسمها الأسفل فلما تعرت جلست باندفاع مغمضة العينين فوق الخلاص قرفانة ترتجف من الاشمئزاز ، لكن تصميمها منعها من القيام حتى تسربت الحرارة ، والتصق الدم ببشرتها كعروق نافرة متقطعة لطحلب كبير ٠ ارتخت عضلاتها ، وهى تنظر بعينين متوسلتين وجلتين لقنوع لتعطى اشارة الاكتفاء والولية تقرأ سورا من القرآن الكريم فى سرها ٠ وتبشرها ان نامت الليلة مع زوجها بنيل المراد ٠ رحلت نعمة بعد أن استحمت وفكت جدائلها ، وباركت لأم المولود ، وشكرتها من خلف الباب الموصد ، ولم يكتمل الشهر حتى عرفت أنها أخيرا فى انتظار طفلها الأول ، فأرسلت من فورها الى أمها ، ونالت قنوع الحلاوة ، وخرج الخبر من الدوار الى نساء القرية ٠ ومنذ هذا اليوم انتظرت العاقرات ولادات وديدة بصبر نافد ، ووقفن يوم الطلق على بابها ليحصلن على الخلاص ، وتسابقت كل منهن على حدة تستحلفها

الا تعطيه الا لها ، وهى تؤكد أن لا خوف منها ، لا حسد ، ولا شر ، وكانت وديدة ترد ضاحكة :

ـ خذوه ، والنبى خذوه · ماذا سأفعل بالأطفال ، استكفينا والحمد لله ·

لكن حملها لم ينقطـــع ، ولم تنكبس مرة واحــدة أو يجف ثدياها ، ولم تنشف فى زرائبها جاموسة أو بقرة أو نعجة ، وكانت ضروع ماعزها تصل الى الأرض، وتعجزهن عن الحركة· فلما تقترح احداهن أن تدارى الحيوانات الصغيرة عن العيون تضحك وديدة وتقول :

ـ اتركيها لله ··

- ٦ -

تذكر طه كل هذه الأحداث وهو جالس فى مكانه المفضل فى الجهة البحرية التى توازى النهر بعد أن أنهى أعمال تجارته وزراعته ، وراح يقلب أوراق الذاكرة ، والسماء تمطر بشدة حتى تحولت الأرض الى أخاديد يتسكع فيها الماء وسط الطمى ، وتعـذر على السيارات دخول القرية ، ومشى الناس يغوطون فى وحلة ويقفزون فوق قطع حجارة وضعوها خصيصا ليتنقلوا عليها ، ويرفعون ثيابهم حتى لا يصيبها البلل ، استعاد طه الأحداث علّه يخرج منها بما ينبىء عن القادم الغريب • شعر أنه محاصر •• تذكر رشدى ، وحديثه الذى يدمى عن زملائه فى الفالوجا دون معين ، اختنق تحت احساس عام بأن أقدار الكـــل ليست فى أيديهم ، وتذكر أباه •• لم يعرف بالضبط ما الذى جعله يقارن بين الطريق الذى قطعه الحاج عبد القادر لكى ينهى عمله كعمدة، والطريق الذى قطعه هو ، رغم اختلاف الرجلين ، وانهيار منهج المقارنة فى الأصل لعدم التجانس ، لكن الأب هو الأب •• تاقت نفسه له رغم خلافهما طوال العمر • رعاه فى الكبر ، وحرص على مرضاته مهما تكن الأسباب ، وحين رحل سأل نفسه مرات عديدة ان كان قد أوفاه حقه ، أم أخذه حماس الشبـاب ؟ ثقلت الذكريات على رئتيه ، تركها تفتح صدره وتنطلق مرفرفة حية أمام عينيه •

مشى المنادى فى العصارى يدعو لمولد الشيخ سلامة ٠٠سهر العمال يدقون الأوتاد ، وينشرون القماش السميك المطرز بآيات القرآن الكريم ، وأدعية الرسول « صلعم » حتى نصبوا الخيام فى ساحة الجرن الواسعة شرق البلدة ٠٠ ركبت العصافير أول موجات النهار ، وشقشقت ، وهى تودع آخر خيوط الليل المطويه، وأعلنت عن صبح المولد ٠٠ افترش الباعة الحصير ببضاعتهم الرخيصة المزركشة ، وتحوطهم الأطفال الذين ناموا نوما قلقا فى انتظار الغد ، وخرجوا عند أول فرصة الى الشارع ٠ اشتروا فوريرات ، وطراطير ، وقايضوا بالخبز على المزامير ، وطيارات الورق الصغيرة المثبتة فى عصى خشبية مدهونة بالأحمر والأخضر والأزرق الفاقع ٠ نقلت المراجيح الحديدية فوق عربات الكارو ، واتخذت مكان الصدارة فى السوق الذى ولد ، وهاصت الصبايا مع الصبية فوقها ، وتلطعوا بجوارها طوال نهارهم بعد أن فرغت ملاليمهم ٠٠ وجلست النساء أمام صوانى البالوظة التى ذاب ماؤها مع النشا والسكر ، وأضفن لها التفتة لتهبها اللون الأحمر ، ووقف الذباب بالمئات فوق صوانى البسبوسة والمهلبية التى طبختها أم رخية خصيصا لهذا اليوم ٠٠ وانتعشت القرية كلها بفرح غامر كانوا فى حاجة اليه وسط شظف العيش ، وسقوط موسم القطن هذا العام ، وقضوا يومهم يأكلون أقراص الطعمية التى تطش فى الزيت المغلى أمامهم فى الطاسة الكبيرة السوداء مع الخبز « الملدن » المخبوز فى فرن المركز ، وأوراق الجرجير الحراقة ، ولعب الاولاد السيجا ، وبحثوا عن المليم الأحمر فى قاع البسكويت الحلاوة ، وفتشوا عنه طوال يومهم ، واستهلكوا ملاليمهم فى شرائه ، وتكسيره دون أن يجدوا فى باطنه الا لحسة العسل الأسود بالسمسم ، ولما هلت نسائم العصر قطع الرجال القرية حاملين البيارق الخضراء ، وذكروا الله ،

وهم يتطوحون يمينا وشمالا ، تاركين لاجسادهم الرقص على ايقاع القلب اليائس من رحمة بشرية ٠٠ مذكرين انفسهم بأن الله حى ٠٠ الله حى ٠٠ وصاحبتهم ايقاعات صاجات صفراء بين ايد خبيرة بالنفوس المطحونة التى تبحث عن واحة ، ولا ملاذ لها غير الدعاء لله ، واتخاذ وسيط يحبه يشفع لهم كى يرفع عنهم الظلم ، وركض العيال وراءهم حفاة تسترهم خرق بلون الرماد يقلدونهم حتى توسطوا الساحة تحت الجميزة أمام المقام ، وارتفعت حناجرهم تغنى للراقد فى وداعة تحت القبة المزينة بالستان الأخضر وللأولياء والعارفين والواصلين لرضا الرب ٠

كان الشيخ سلامة متصوفا يجوب البلاد ماشيا يعلم الفلاحين أصول الدين ، وقد عاشرته القرية زمنا طويلا متقطعا ، فلم تعرف له وقتا لزيارتها ، ولا موعدا للرحيل عنها ، كأن يأتيها وقتما ترمى به الأقدار ، فاذا وصل جلس بينهم فى الجامع بعد صلاة المغرب حتى صلاة العشاء يفقههم ، ثم يأوى الى عشة صغيرة بجوار جرن القمح كانت فى الأصل مخزنا منسيا فى أرض العمدة ٠ بنى من سيقان شجرة الصفصافة ، وعرش بالقش ٠٠ وقد ذاع صيته فى القرى المجاورة ، وتوافد الفلاحون عليه من النجوع والمراكز القريبة والبعيدة ، ونسبوا اليه شفاء المرضى ، ومعرفة مكان الغائب ، وتاريخ وصوله الى القرية ، وتعلموا منه الاستخارة قبل الاقدام على عمل جديد ، وذكروا أنه قبل رحيله الى ربه بشهرين حين انكشف عنه الحجاب ، وانفتحت آفاق السموات السبع أمام عينيه المصليتين الصافيتين أحيا ميتا لحظة خروج روحه من جسده ، وأنه هرول وراء الأم المكلومة وهى تحمل طفلها الى داخل العشة لتمدده على المصطبة التى ينام عليها فوق الخيش ، فنسى عصاته التى كان يتعكز بها مغروزة فى الطين وعزم مبسملا ومحوقلا على رأس الطفل الذى كانت روحه تحوم

حوله ، وتدخل رويدا مفتونة بالغموض الى دهاليز الموت الطويلة المظلمة ، وجمع قوته التى اكتسبها من تصوفه الطويل ، وتكرار سجوده ، وصلاته ، قوة الشفافية وأدواتها المضيئة ، وكشف وجه الموت وباغته ، فوقع الولد من يده ، وفكت الروح اسرها من ملاك الموت باذن الله ، وعاد تدفق الدم الى الشرايين الضعيفة، ونبضت العروق ، وقام الطفل من فوره يبكى فى حضن أمه ، وامتدت أصابعه الصغيرة تخرج ثديها من فتحة السيالة فى جنب جلبابها ، ووضعه فى فمه مسروعا نهما ، لكن الشيخ الذى وقعت الأم على قدميه تقبلهما كان قد استنفد قوته ، ووهنت أعصابه ، فعجز عن الحركة من مكانه شهرين كاملين ، قضاهما صائما عن الكلام ، والطعام الا من جرة ماء ، كان يملأها له مريدوه ، وقطرات عسل نحل برى كان ساكنا فى جزع الشجرة الميتة التى تدعم السقف ·· بنى النحل خليته من طين أسود ، وجمع الرحيق من حدائق الفاكهة ، وأزهار القطن ، وخزنه فى قرار مكين حتى يتقوت به الرجل ، فلما أحس أن الحياة تتجدد فى دمه الذى راح يترقرق فى جسده الواهن ، عرف أنه ملاق ربه ، وقام الى الباب ينظر نحو السماء الى حبيبه ، هفت نفسه الى أن تطير ، وسأل ربه أن يعطيه أمارة ، فلما خشعت عيناه من الضوء الذى غشاها، وأرخى جفنه الى أسفل ، وقع بصره على عصاته التى نسيها · كانت قد بزغت من بثورها براعم خضراء ، أطفرت رؤيتها الدموع من مقلتيه وسط ذهول الفلاحين الذين تجمعوا وراء بابه دون كلل لعله يجيب ، وأسلم الروح بجوارها مبتسما · فلما جاء الصباح أورقت العصا ، وتجذرت ، وأسفرت عن شجرة جميز عظيمـة مازالت تظلل قبره ، وتمنع أشعة الشمس الحارقـة ، أن تؤذى زواره ، وقد اختارت القرية أن تحتفل بيوم مولده الذى لا يعرفه أحد فى التاريخ الوحيد المحسور فى وجدان أهلها · يوم رحيله ·

لم يكن هذا المولد مثل كل الموالد التى مرت على المنتهى ، ولم يعرف الأولاد أنهم سيحققون من ورائه متعة عظيمة ، وضحكا ينقلب غما كما حدث عصر ذلك اليوم · اذ وسط هوس الأهالى بمتابعة الذكر والخاتمة التى تلته · قفز عبد المنعم غزال من بيت عبد النبى الى زريبة الغنم ذات السور المنخفض ومنها الى زريبة المواشى فى الدوار ، وانتهز فرصة انشغال الخفراء ، وانطلق ساحبا الجاموسة التى كانت حتى صباح ذلك اليوم ملكا له ·

وكان عبد المنعم قد أجر أرضا من الحاج عبد القادر فى عزبة الخلفاوى لكنه لم يستطع دفع ايجارها بسبب جفاف المحصول ، وهجوم دودة القطن عليه ، ومرت أيام دون أن يدبر هو وجيرانه المؤاجرين لباقى أرض العزبة بديلا لهذا الايجار ، وتلقوا انذارات متتالية من الخولى لكنهم لم يستطعوا حل المشكلة ، فلما أعيت الخولى الحيل معهم · نزل برجاله الى الدور المجمعة على طرف الأرض ، وجمع المواشى والطيور والأغنام ، ونزع الكردان من صدور الفلاحات بالقوة وخرجت العزبة كلها وراءه « بالصوات » والنعيق ، ولم ترحمهم تضرعاتهم، وشفاعتهم لسيدنا محمد أو كرامة سيدى ابراهيم الدسوقى ، ولا القناوى ، ولا البدوى أو تمنعه من استيفاء الذين بهذا الشكل الذى ترك العزبة فى حداد ، وباتت ليلة حزينة لم يطلع لها نهار · لكن عبد المنعم غزال رفض أن تجبى الايجارات بهذا الشكل ، وأن تصادر جاموسته التى يتقوت بلبنها هو وعياله ، خاصة وأن الجميع يعرفون أنهم لا ذنب لهم ، فقد اشتغلوا طوال العام ، وحاربتهم الطبيعة ، وحاربهم التاجر فماذا يفعلون ؟ قضى الليلة ساهرا يدبر أمره ، ثم تسلل أثناء المولد الى بيت العمدة ، وسحب الجاموسة من الطوالة ، وخرج بها مخططا أن

يدور معها حول بيوت البلدة ، لكن حظه الأغبر جعل الكلاف يدخل مصادفة الى الزريبة ليسرج بغلا ، فلمحه ، وهو يعبر عتبة الباب الخلفى ، فأمسك به ، وجاء شيخ الخفر ، وأمسكوه ، وجرجروه مقيداً بحبل الى الحاج عبد القادر الذى حكم بتجريسه فاركبوه الحمار بالمقلوب ، وانشغل الاولاد الذين أخرجهم المولد من بيوتهم بلا استثناء بالغناء وراءه ، والحنجلة خلف الحمار ·

ــ يا أبو الريش ان شاء الله تعيش ·

لكن عبد المنعم الذى شعر بالظلم أكثر من الفلاحين الذين عرفوا القصة ولم يتعاطفوا معه ، راح يسبهم بأمهاتهم ، وفتحاتهن كلها بلا خشى ولا حياء ، فلما ضاق بالفضيحة ، والقسوة انتقل يسب العمدة وجده ، وأبو خاشه ·· والخفير يمسك بالحمارة ، ويلسعه بالعصا كلما زادت كلماته عن حدها ، فلما لعن أمه ، وجده أنزله وضربه حتى أغمى عليه ، ويقال أن الضحك الذى بدا فى أول النهار مفهوما ، انقلب الى أسى على الرجل الذى وهنت قواه تحت التعذيب ، وحمل الى قريته فوق مَحفة بين الحياة والموت ··

عاد الفلاحون الى بيوتهم · انفض المولد · شال الباعة بضاعتهم البائرة ، واختفوا بها ، ولم تجد الأوراق والفضلات الباقية هبة ريح تزحزحها عن مكانها · صفصفت الشوارع ، ولفها هدوء تناقض مع أحداث النهار ، وحين بث الليل سواده هلت نسمة طرية فيها لسعة الشتاء القادم سريعا ، وكانت القلوب فى حاجة ماسة اليها ·· عبر طه الباب الكبير قادما من الخارج ، لاحظ اشتعال فوانيس الدوار مجتمعة · تردد قليلا فى الدخول · يعرف ان هيئته المتعبة وملابسه التى تكرمشت بفعل السفر ، واختفائه عن القرية طوال النهار سترسل حمم الغضب من أبيه ، لكن الأصوات الكثيرة الضاحكة التى تعالت فجأة ، ثم انطفأت .

وانسحبت أغرته بالدخول . وبعثت الهواجس فى قلبه من أن يكون الضيوف مشترين جدد لعزبة من عزب العائلة · طلب من اللـــه الستر ، وهو يصعد الدرجات · وصلته قهقهات عالية ، وأصوات ارتطام ملاعق ، وأطباق · دخل الى صالة الطعام الكبيرة وقــع فى شرك · لم يكن الموجودون الا أصدقاء أبيه من أصحاب الأملاك، وبعض عمد القرى المجاورة · تمسك بهدوئه رغم التوتر الذى اشتعل داخله ·

ـ السلام عليكم ·

ـ عليكم السلاااام ورحمة الله وبركاته ·

قال واحد : أكمل ·· أكمل يا عبد القادر · أكمل الله يرضى عليك · اسمع يا أبا عبد الله · أين كنت وقت الجرسه ؟ هــل شاهدتها ؟

امتقع وجه طه ، وبانت فى شفتيه زرقة تفضح مشاعره الداخلية · لم ينتظر خيرا من وراء الحوار ورد فى اقتضاب :

ـ كنت خارج البلدة ·· ماذا حدث ؟

جاءه صوت لم يتبين صاحبه :

ـ والله فاتتك متعة عظيمة · أقعد ·· البيت بيتك يا رجل · تفضل الطعام ·

جذب كرسيا عند طرف المائدة ، واشار لصبى أن يصب على يديه الماء من الابريق ، وغسلها فوق الطستية ، ثم استدار الى الطعام وهو يكبت امتعاضا هائلا ··

ـ أخبره · أخبره يا حاج عبد القادر · واضح أنه لا يعلم شيئا ·

التفت الى صوت آخر من طرف المائدة البعيد يسأله :

ـ هى الأخبار تأتى حدك وتحود ؟

خرجت الكلمات ممضوغة بلحم الضأن الذى تخلصه الأسنان من عظام مازالت مشتبكة به ··

ـ قفشوا سارقا فى الزريبة ، وجلدوه ·· لكن الكرامة ·· أخذته ، وجعجع بكلمتين ·· والكرباج لم يخفه ، وجعر والخفير يضربه حتى أغمى عليه ابن الكلب !!

رد صوت آخر : المخوذق شتم السلطان !

تعالت الضحكات : لكنه ليس مخوزقا ، والضرب فيه حلال ··

عندما تنازل الحاج عبد القادر عن العمودية كان يعلم أن الوزارة على وشك السقوط ، وان حزبا جديدا ، ووزارة أخرى ستحل محلها ، وتهل موجة تكتسح من يناصره لفترة قادمة ·· زهد فى كل ما كان يمتعه ، ويسعده من قبل · قلت رحلاته خارج القرية ، ولم يعد الدوار يستقبل شلة الأصدقاء فى سهرات طويلة ، وخفتت فيه الأنوار بعد صلاة العشاء ، وتغيرت لديه مفاهيم كثيرة حتى أنه لميعد يرى غضاضة فى عمل طه بالتجارة ، والاشراف على الأرض بنفسه ، وحل مشاكله معه باتفاق غير معلن لم يجلسا ليوقعا أوراقه يقضى بأن يبيع لابنه احدى العزب

كلما احتاج الى مزيد من المال خاصة أن احتياجاته تزداد كل يوم بسبب ارتفاع الأسعار فى أوروبا ، واحتياج أبنائه لنفقات تعليم أكثر . ورددت القرية لسنوات كثيرة قادمة أن العمدة عذب فلاحا من العزبة حتى الموت ، وأن أقاربه فى مصر بطلطوا القضية، وحموه من البوليس ، وتحقيقاته • وقال آخرون ان العمدة خوذق الرجل الذى جاء يأخذ بهيمته ، وردد آخرون أن شيخ الخفر هو الذى فعل ذلك ، وسمع البعض صوت قوة البوليس التى وصلت ليلا بعد أن أبلغ أحد رجال العزبة عن وفاة عبد المنعم غزال بعد عودته من المنتهى بثلاثة أيام • وقال ان أهله خافوا من الابلاغ عن الحادث حتى لا يدخل المشرحة ، وتضيع حرمة الموت بتقطيع لحمه ، ويقال ان أحد ضباط المركز الصغار أصر على اخراج الجثة ، والتحقيق فيما اذا كانت الوفاة جنائية من آثار التعذيب ، وقالوا أيضا ان هذا الضابط نقل قبل أن تكتمل القضية الى الصعيد الى قرية يقولون عنها منفى العباد ، واسمها الحقيقى « منقباد » • وتردد فى البيوت الواطئة ذات الفتحات الضيقة التى تخلو من الأثاث ، ولا تعرف من الموبيليا ، والاخشاب غير السلم الذى يصعدون عليه الى السطح أو السحارة أن المحضر أغلق بعد أن شهد الطبيب أن الوفاة طبيعية نتيجة ضعف شديد ، وصدمة عصبية بسبب الجوع ، وضربة الشمس ، وناقشوا حول طبالى العشاء ، وهم يدشدشون البصل كيف أن شهر بابة(*) الذى يغيب ناره فى منتصفه ظهرت له شمس وأنها مميتة !!

سبب هذا الحادث المفاجىء انفراجا وأملا جديدا عند نساء القرية اللاتى يموت أطفالهن بعد الولادة • فقد كن يؤمن أن الطفل

(*) اكتوبر •

الذى يخرج من كم رجل ظالم · هذا الطفل الذى يواجه المستحيل منذ لحظة ميلاده يستطيع أن يغلب الموت أيضا ، وانشغلت النساء ليالى طويلة فى التفكير كيف يحصلن على هذا الجلباب ؟ ـ وهو طلب لم يكن معتادا من قبل ـ وهل يستطعن أن يعرفن أم عبد الله السبب حتى تساعدهن ؟

لكنهن أخيرا توصلن الى حل ممكن · اذ قررن الذهاب الى أمينة ، واخبارها ، وطلبن مساعدتها فوعدتهن وهى فى حيرة · وفى الصباح أسرت بالأمر الى وديدة التى أعطتها ضاحكة احدى جلابيب حماها ·· والغريب أن قنوع عندما لصقت فتحة الكم فوق فرج مسعدة ، وهى تطلق آخر طلقة لخروج الجنين الذى اندفع مباشرة الى القماش الاسطوانى الشكــل ، ونفذ منه الى الهواء حرا للمرة الأولى ، لم يلبث أن فارق الحياة بعد شهرين ، فلما كررت قنوع استخدام جلباب آخر للحاج عبد القادر وفشل فى أن يهب الطفل العمر الطويل · خافت الفلاحات ، وراجعن أنفسهن قائلات : ربما يكون الرجل مظلوما ، ويكون الأعــداء الذين يستأهلون قطع رقابهم ، والسنتهم هم الذين الصقوا به هذه التهمة · فلما انتشر فى القرية نبأ خصوبة وديدة غير العادية ، وتولى زوجها منصب العمدة راحت اليها « دواء » تقنعهــا بأن تعطيها جلبــاب أبو عبد الله ، فربمــا تكــون حــكمة القدمــاء تقصد خروج الطفل من كم حاكم ! فهمت وديدة المغزى وقالت لها :

ـ والنبى · لا اكسفك ، ولا أرجعك خائبة أبدا ·· !! صعدت الى غرفتها ، وأحضرت لها بنفسها جلبابا مازال يحمل رائحــة عرق زوجها ، وفرحت المرأة بالهدية ، لكنها لم تكتف بذلك · اذ نطنطت الوليد بعدها من هلال الجامع ، وفتحاته الضيقة ، ودقت فوق جبينه دقة خضراء عند أول زيارة لها للسوق بعد أن قامت

بالسلامة ، وقابلت الواشم ، ثم اضافت بعد سنتين دقة جديدة فوق ذقنه ، وقبل أن يتم الشحاذ أو شحته كما يدللونه عامه الثالث كانت كل النساء اللاتى يموت أولادهن بالاسهال الصيفى ، والملاريا ، والدفتريا يحصلن على جلابيب ابو عبد الله لربما تحمى أطفالهن من موت مبكر !!!

الفصل الثانى

- ٧ -

انشغل كل من فى الدوار فى الاعداد لزفاف نعيمة · توافد الأهل من القرى والنجوع المجاورة منذ بداية الأسبوع حتى اكتمل شمل العائلة والأصدقاء ، ورغم ظروف الحرب العالمية الأولى التى شح بسببها التموين ، وأدت الى صعوبة الحصول على السلع الضرورية لتأثيث منزل العروس الجديدة ، الا أن الحاج عبد القادر أصر على أن تتم مراسم الزفاف فى بهرجة كبيرة ، وبذخ وتبذير اعتاده فى تصرفاته وشئونه مدى الحياة ، وأدى فى نهاية أيامه الى بيع معظم الأراضى ، وانفاق الثروة التى تركها له أبوه ·· بنيت كوانين مؤقتة فى الحديقة التى تفصل الدوار الخارجى عن النهر ومبنى السلاملك ، وانشغل الطباخون من الصباح الباكر فى العمل بعد استلام الذبائح من الجزار ، وتحول وسط الدار الى خلية للنحل تطن فيها الخادمات.، والفلاحات اللاتى لا يعملن فى أرض العمدة ·· وجئن خصيصا للمجاملة ، والمشاركة فى الحنـــة ·

انفجرت الزغاريد متوهجة فى سماء البنـــاء حين دخلت قنوع الداية لكى تمشط العروس ، حاملة صندوقا حديديا فيــه عدتها ، وجلست فوق المصطبة تشعل البخور ، ثم أطلقتها فى كل

خن فى الحرملك · صعدت بعدها الى الطابق الأول ، وعطورها الشجية تفحفح أمامها · والبنات فى أعقابها يرفرفن فوق الدرج ويصرخن :

يا حنة جديدة ·· يا قطر الندى ··

يا شباك حبيبى ياماما ··

جلاب الهوى ··

هلت العروس ملفوفة فى روب بشكير أبيض ، عاقدة شعرها بفوطة طويلة · هشت الماشطة الصبايا خارج الغرفة العلوية فتراجعن ضاحكات ، وفرشن الحصير فوق السباط ، وأمسكن بالطبلة ، وسرعان ما انتظمن فى الغناء الجماعى :

لاعبينى يا العروسة لاعبينى ··

وأنا خايف يا العروسة لتغلبينى

ثم تركن الفضاء لصوت « كمال » الحلو :

ولاعبتك يا العريس ودخلت بيتك ··

وادى الورد ·· وأنا اللى ناشيتك

وقت النوم ·· نفرش تمر حنة ·

ونتغطى بورق الياسمين ·

رددت البنات ، وهن يضحكن :

لاعبينى يا العروسة لاعبينى ··

وأنا خايف يا العروسة لتغلبينى ··

أمسكت قنوع العائدة من الاسكندرية ـ بسبب القصف ، والتى عاشت تخدم كبار أغنيائها فى المستشفى صباحا ، وعيادة طبيب فرنسى مساء ـ مسكت بأعضاء جسم العروس تنتف منها الشعر ، « وقفلطتها » ، ودهنت بشرتها بالجلسرين والليمون ، وهى مستسلمة تنظر الى الأرض ، ولا ترفع صوتها متألمة مهما كان احساسها ٠

لم تفكر نعمة كثيرا فى الطقوس التى تتم حولها ، ولا البنات اللاتى يغنين خلف بابها ، أو فى فستان الحنة الأحمر الذى سترتديه عصرا ٠ سبح عقلها فى شىء واحد كانت تنتظره : منذ أيام حين جاءت أمها وقصت لها أظافرها العشرين وحفظتها فى فنجان صغير ، ثم أخذت خصلة من شعرها الأسود الطويل ، ومزعت شريحة من ذيل جلبابها ، وضعتهما جميعا مع الهدهد المذبوح المجفف فى الشمس ، وأضافت لها نسيج شبكة صياد فيه كتلة رصاص ، لفتها فى سير غربال من جلد الحمار ، وقطعة قماش من جلباب عريسها « عطية » احتالت فطوم على خادمة من بيتهم فجلبته لها حتى يكون طوعا لعروسه مدى الحياة ، بعد أن يضعوا أثره فى حجابها ٠٠ وخبأتهم أم طه فى طرف طرحة فطوم باعتبارها مرسالا أمينا ، وأرسلتها بهم الى الشيخ صابر لكى يعزم عليها ، ويصنع التمويطة التى ستحميها من كل سوء ٠

انتهت أول مرحلة فى الاعداد ، وخرجت العروس الى الحمام ، والبنات يغنين بالتبادل مع كمال :

ـ يا حلاوة على البوفيه ٠٠ يا حلاوة على البوفيه ٠

ـ وريني رقبتك ٠٠ وريني ٠

ـ كوز المطشان ٠٠ أوعى كده ٠

ـ امال أنا جايبك ليه ·· ؟

ـ يا حلاوة على البوفيه ·

التفت العائلة حول الغداء الذى استمر منذ آذان الظهر حتى بعد أذان العصر · فريق يسلم الى فريق ، ورفضت نعمة مشاركتهم فيه · قالت أم طه ضاحكة :

ـ اتركوها ·· لا أعرف من أين جاءها الخجل اليوم ؟

وضحكت عمتها نعمة الكبيرة التى سميت باسمها ، وقالت :

ـ شىء لابد منه !!

وصلت بنات القرية بعد صلاة العصر ·· وساعدت ماريكا الخياطة العروس فى ارتداء فستانها الشفاف المنثور بالورد والترتر ، وربطت لها أمها التحويطة تحت ابطها قبل أن تدخل الى الصالة الكبرى ، وتجلس فى الكوشة المزينة · رقصت بنات الأعمام والأخوال والصديقات ، ووشوشت النساء بعضهن فى أمور سرية ، واستعرضن تجارب زفافهن فى صوت خفيض ، مراعين وهم يضحكون ألا يصل الى البنات ، حتى همدن فى انتظار اشارة قنوع التى دخلت حاملة صينية الحنة بشموعها الرقيقة الخافتة · واشتعل الرقص والغناء وهى تحنى قدمى العروس ، وتربطهما بقماطات وشرائط بيضاء سرعان ما نزفت لونا أحمر ، وانتقلت الى كفيها وسط زغاريد وصلت الى أطراف المنتهى ، وعبرت الحقول البعيدة حتى مخبأ الذئب · ثم حنت البنات والحبيبات ، وانشغل الأهل فى تحضير طعام العشاء الذى عاشت القرية تحلف ببذخه مدى الحياة ، وأرخت به وبالأحداث التى تلته وقتها وأيامها ··

نام الجميع مهدودى الحيل ، ونامت العروس نوما قلقا متقطعا . وانقضى نهار الضيوف فى غناء وسمر ، وعينا نعمة زائغتان لا تفكران فى الرجل الذى ستعيش معه حياتها ، وتستغرقها « التحويطة » هذا الشىء الذى تسلق جسدها . لم تنتبه كثيرا فى اليوم التالى للماء الذى وضعت قدميها فيه ، ولا العملة التى ألقت بها أختها حميدة فى الطست ، أو كسرة الخبز الموضوعة فى حجرها ، ولا استوعبت لحظة أن سألها الشيخ صابر المأذون :

ـ من هو وكيلك يا عروس ؟

ردت فى حياء : أبى .

اعتلى المصحف الشريف رأسها ساعة عقد القران . وانطلقت الزغاريد مع الشربات فى لحظة واحدة ، ثم دخلت فطوم وامينة وقنوع حاملات صوانى كبيرة رصت فوقها علب كتب الكتاب الخزف المزخرفة بماء الذهب ، والمملوءة بالشيكولاته الفاخرة ، وقد كتب عليها اسما العروس والعريس ، ووزعنها على المدعوات ، وغنت البنات :

يا حبشتكة .. يا حبشتكة ..

وراح للقاضى .. واشتكى ..

صدرها ده أيوه ده الحلو ده

أيوه ده عاوز سوتيان محبكة

اصطحبتها البنات الى غرفة نومها لكى تبدل فستانها السماوى بالفستان الأبيض والطرحة . طلبت من زميلاتها أن يتركنها لدقائق . نظرت حولها باحثة عن الحنين لكل ما سيصبح ماضيا بعد لحظات ، سريرها ، وكلته التى طرزتها بالكروشيه ،

وتسريحتها ذات المرايا الثلاث ، وأدراجها حيث اعتادت اخفاء أشياء حميدة والعراك معها عليها متعمدة اثارتها لتخرج عن صمتها الكئيب ، كما تقول • الشباك الطويل الذى يطل على النهر ، وكانت تجلس فوق حافته العريضة مختفية عن عيون الجميع ، تراقب النيل دون أن يراها الناس خارج البناء الذى يشبه القلعة ، دولابها الذى أفرغت ملابسه ومحتوياته بالأمس ، ووزعتها على الصديقات والأقارب ، والفلاحات أيضا ، فلم يكن معتادا لمثلها أن تستعمل فى بيت زوجها شيئا استعملته قبل زواجها • رأت احدى عرائس طفولتها ، وايشاربا حريريا أرسله عبد الحكيم من باريس ، كانت تريد اصطحابهما معها ، لكن أمها رفضت ، وطيبت خاطرها قائلة :

– فى احدى زياراتك لنا ، سوف أتركهما لك • لكن لا داعى لهما الآن •

رأت الطست الذى أعدته قنوع فى وسط الغرفة لحمامها الأخير فى بيت أبيها • وقفت عارية الا من التحويطة تساورها نفسها أن تعرف ما بداخلها • استجمعت شجاعتها وخلعتها ، ووضعتها فوق التسريحة وهى ترتعش • فكت اللفافة بحذر ، فانبعثت منها رائحة عطارة غريبة لم تألفها ، ترددت ، وقررت أن تعيد لفها ، وتساءلت ان كانت قد أفسدت قوتها ، وضيعت مفعولها ؟ خافت • أعادت ربطها بسرعة ، ثم دلقت الماء فوق جسمها الطرى الناعم ، وحاولت الانشغال بتلييف بشرتها برغاوى الصابون الكثيرة • وتجرأت وغنت بصوت هامس يبدد الوحشة التى تسللت اليها ، لكن يدها ارتجفت بالمنشفة حين وقعت عيناها على التحويطة •• تقدمت منها ثابتة دون أن تستقبل دفعة واحدة من الهواء الى صدرها ، ومدت أصابعها الرفيعة ، وسحبت طرف القماط ، وكرته بسرعة فخرجت أحشاؤه أمامها •• لم تفهم لماذا

لم يتبدد القلق بالمعرفة ، ولماذا زادت الوحشة !! أعادتها بسرعة ، وثبتتها فى نفس المكان من جسمها ، ثم ارتدت ملابسها البيضاء ، وسمحت للبنات ولماريكا وقنوع أن يدخلن كى يكملن لها زينتها ٠ سمعت الرصاص وهو يفزع الجميع فرحا ، وعلت الدفوف أمام الغوازى ، والمداحين ، وصحبتها فراشات سوداء تتمايل أجسادهن تحت الدقات ، يعرفن كيف يسعدن بليــالى الهنــاء ، ويغنين متفاخرات :

من يقدر على فرحنا ؟ !

ولا يستحين من رؤية الرجال ، أو التقرب منهم والتعامــل اليومى معهم فى البيوت والحقول ٠ وانتهزت كل الموجــودات المختبئات خلف جدران الحرملك فى القصور الكبيرة المتشرنقات بستائر الحرمان من اختــلاط الجنسين ٠٠ انتهـزن الفرصة لتوصيل رسائل أثيرية الى الأحباب الذين لا يلتقون بهم الا كل حين ، ثم وقفن حولها يساعدنها على الصعود الى التختروان ، وشجعنها اذ لاحظن ارتجافها :

ـ لا تخشى شيئا ٠٠ انها مثل شكة الدبوس !!

ضحكن وهن يقرصنها حتى اختفت خلف الستائر الستانية٠ اهتز الجمل صعودا ، وهبوطا متناسقا ، واختار الركب الناحية اليمنى لمسار الشوارع التى يمر بها الى بيت العريس ٠ وتوقف أمام دار الفحامين ، واخرجوا له الشربات ، وأمام دار راضى ، والغنايمة وأبو صابرة ، وأبو كحيلة ، وعائلة مندور ٠ واستغرقت الرحلة العصارى الى دخول المغارب ٠ لا يتحرك الموكب خطوات حتى يقف ، ويحصل على تحية أحد البيوت ٠٠ سمعت نعمــة الجلبة تزداد ، وبرك الجمل ٠٠ فتحت الستائر الستانية ، ورأى الناس العروس تهل مثل بدر فى ليلة اكتماله ، وتهامس الفلاحون منبهرين :

قشدة يا ولد قشدة ·· مترد بتمامه ورسول الله ·

ارتفع الصوت حتى أصبح واضحا :

ـ يحق للعمدة أن يخفيها عن العيون ، والله ·

امتدت أياد كثيرة كي تتلقف العروس ، من بينها العريس ·· طويل أسمر فى لون الخوخ المشتعل ، سقطت خصله من شعره الأسود الفاحم فوق وجهه عندما تقدم من العروس · وانطلق الغناء جماعيا ملعلعا فى سماء المنتهى :

ـ خطى برجلك اليمين ·

وقبل أن تطأ قدمها البساط الأحمر المفروش أمام دوار عطية سيد أحمد ، وهى تتذكر تعليمات أمها أن تمرق من تحت ساق حماتها عند دخولها من بوابة الحرملك ، وهى ناظرة الى الأرض وقبل أن تلتفت باحثة عن حميدة التى ما احتاجت أحدا مثلها فى هذه اللحظة ، اخترقت رصاصة الغناء ، ومرقت وسط الجموع الفرحة لتستقر فى صدر العريس · فزع الجمل ، وهب ناطرا ما عليه الى الأرض ، ووجدت نعمة نفسها معلقة فى الهواء ، تتلاطم مع أجساد قتلها الرعب والصراخ ، فى مواجهة خف الجمل الذى انطلق بكل قوته ضاربا الهواء ، ساحقا ما جاء تحته بجوار رأسها مباشرة ، فنجت بالصدفة من موت محقق ، وتمزعت طرحتها ، وتعفرت ملابسها بخليط من التراب والدم · فلما تمالكت نفسها ، رأت الرجال والنساء منكبين فوق الجثة التى كانت منذ قليل شابا يافعا ، يحلم ببنت بضة ، وحياة مسالمة هنية ـ مشهد لم تنسه طوال حياتها ، حتى بعد أن تزوجت من غيره ، وأنجبت ابنا وهبته كل مالها ـ لم تتمالك أعصابها فوقعت مغشيا عليها · ونقلها أخوتها عائدين الى الدوار دون أن تطأ قدمها أرض بيت زوجها ·· وانفجر الخبر فى سماء الخوف :

ـ قتل العريس ··

نكست الفرحة أعلامها ، وسهرت المنتهى ليلة من أسوأ لياليها ، وأرخت بها ما قبلها وما بعدها · وأصبح من المعتاد أن يفهم الناس كلمة قبل الحادث أو بعد الحادث على أنها كناية عن قتل عطية ·· وقد حاول حموها بعد مرور وقت كاف أن يطلب يدها مرة أخرى لابنه الأصغر منصور ، لكنها رفضت ، رغم أنها لم تكن قد رأت زوجها ولو مرة واحدة قبل تلك اللحظة المتفجرة بالدم · وبعد سنتين ، وقبل نهاية الحرب بشهور قليلة ، وقبل أن يصلا عبد الحكيم وحيدر من أوروبا بعد أن حجزتهما سنوات الحرب ، زوجت لعمدة قرية الحور المجاورة · أرمل أربعينى ، وله سبعة أولاد · فلما دخلت الى دواره ، والتف الأقارب حولها، اكتشفت أمها ما لم تكن تعلمه كابنتها تماما ، فراحت تصرخ ، وتولول ، وتندب بخت ابنتها ، ونعتها كأنها أوصلتها الى حتفها بيديها · ولم يشفع للعريس ثراؤه ، أو مركزه وهيبته الكبيرة فى الناحية ، فلما جاء أبوها قال :

ــ نحن نشترى الرجال يا ابنتى · ابن الأصول لا يعيبه كثرة العيال !!

لم تخفف هذه الكلمات من صدمتها · وتذكرت مشهد قتل العريس الشاب ، وبختها الذى مال · ولم تنس أن تلوم نفسها على فك التحويطة ، ولم تقلل نفس هذه الكلمات من صدمة أمها عديلة التى أقسمت الا تخطى عتبة دارها بعد هذا اليوم ، حزنا على ابنتها · وقد برت أم طه بقسمها ، ولم تغادره الا لزيارة قبر عبد الحكيم ·

أشيع حول نعمة أنها عاقر ، وقوبل هذا بارتياح من عائلة زوجها ، بعد مرور وقت كاف لتصديق ذلك ، خاصة وأن زوجته ماتت عن طفل رضيع · ولم تمض فصول كثيرة حتى زوجت أخيها طه من ابنة زوجها الكبرى وديدة : وتحولت علاقتها

بالدوار الى علاقة ربان مركب بميناء الوطن : يلف البحار ، ثم يعود اليه عاجلا أو آجلا • وكثيرا ما ظنت نعمة أن عودتها هذه المرة الى بيت أبيها هى عودة نهائية ، لكن الأحداث والأيام أثبتت عكس ذلك ، خاصة عندما أنجبت ابنها الوحيد حلمى ،وعاشت سعيدة مع عائلتها الجديدة فى الحور ، وغطى ثراء الزوج ، وكثرة الخدم فى دواره على أحساسها بالخوف من المسئولية تجاه عائلة كبيرة العدد ، تبدو وسطهم كاحدى بناتهم ، حتى أنها تجاسرت وشعرت بالفخر ، ونسيت لوقت ما جرى لها فى مطلع حياتها ، بعد أن عاملها أهل الناحية بود ، ففتحت البيت للمسافر، والمحتاج ، ونقلت عادات وبذخ أهلها اليهم ، وأهدرت طاقتها المتدفقة غير المستغلة فى اقامة موائد وحفلات ما شهدت الحور مثلها لسنوات طويلة •

لكن سرعان ما رحل الزوج ولم يتم ابنها سنواته العشر ، ونشبت المعارك مع أبنائه على الميراث ، ونصيب حلمى ، وتبذيرها الذى لا يطاق ، فحملته عائدة الى الدوار • وعاشت بين جدرانه تبدأ يومها بالدعاء على الذين ظلموها ، فترد عليها وديدة مدافعة عن اخوتها ، وتتهمها بأنها مفترية ، الى أن تتدخل أم طه لتفض النزاع الصباحى • بعدها تبدأ فى معاونة زوجة أخيها فى الاشراف على العمل ، وينشغل نهارها فتنسى أحقادها • لكنها ما نسيت يوما أنها فكت التحويطة ، وأفسدت مفعولها ، وجلبت النحس الى أصابع قدميها !!

تذكر طه ، وقت زواجها من ابراهيم ، وكيف بعثت الحياة فى أركان البيت ، اذ أعقبه مباشرة الاعلان عن انتهاء الحرب العالمية الأولى ، واستبشر الجميع خيرا ، واستعدوا لعودة الابنين الغائبين اللذين حجبتهما المسافات والحروب والعلم • واشتعلت المراهنات فى البيت ، كل منهم يصف الهيئة التى سيجد عليها حيدر الذى لحق بأخيه عبد الحكيم فى باريس ، قبل بداية

الحرب بشهور · وكان لا يزال صبيا فى الثانية عشرة لكى يدرس فى مدارسها ·· وضربوا أخماســـا فى أســـداس فى قصة « الخواجاية » التى تزوجها عبد الحكيم ، وهل يمكن لطباعها أن تتوافق معهم ؟! وناموا يحلمون ·

انتبه أهل المنتهى لصوت رياح قادمة من بعيد ، شعروا بدبيبهــا يخز أجسامهم ، رغم أنها لم تطير جلبابا ، ولا هفهفت الغسيل فوق الحبال المعقودة بين خشبتى كافور فوق الأســطح · سرى بداخلهم ـ كبارا وصغارا ـ هذا اليقين الذى يتأكد حين يضع واحد أذنه فوق سكة القطار ، فيعرف أنه قادم ·· وصلت موجات هواء تتذبذب تحت ضربات رفرفة خشنة ، دفعت أمامها الناس دون الأشياء ، حتى ما أبقت نفرا قادرا على البقاء لمواجهتها فى الظل ·· اعتصم الناس بالبيوت ينتظرون المجهول بفــزع ، نوحت السماء بعويل غريب أشعل خوفا ليس مثل كل خوف · اندفعت الدموع من القلب الى العيون ، دون أن يعرفوا سببهــا ·

اقتربت غيمة سابحة فى السماء البعيدة ، أبعد سماء عن البصر ، الى مشارف البلدة ، اضطرب بندول القلب ، واختلت تكتكاته الناعمة فى الصدور ، وعلت الأنفاس فى نفيــر مشئوم انكمش الناس : « شىء ما فى هذه الغيمة يجلب الحزن » ·· ازداد اقترابها حتى كشفت عن لون أخضر · سألوها مبهورين من خلف نوافذ الدور الواطئة ذات الفتحات الضيقة :

ـ غيمة خضراء ؟!

تفتتت الى بقع صغيرة ، كلما اقتربت أورقت ·· بزغت

لها أجنحة وتحدد لها مناقير مدببة ! علا صراخ نفر ما احتاجوا لتحديد هويته :

ـ جراد ؟ يا نهار أغبر ٠٠ جراد ؟

شمخ الصمت · أدركوا عنف خفقات الأجنحة · دثرهم سؤال أن كان ما يحسونه هو الخوف أو معنى آخر يجهلونه · سبحت دموع فوق الوجوه تتمتم بآيات من القرآن والانجيل ، وكل كلمات الله التى عرفوها عبر الأزمان الطويلة ٠٠ ما رقص لسان فى حلق ، جاءت الاجابة من حركة الأقدام التى دبت فوق الأرض فجأة ، ولم يعد أحد بمسيطر عليها · انسحبوا من القباب التى وقفوا فوقها ينظرون من الطاقات العالية ، وترجلوا من أعلى السلالم الخشبية التى تسلقوها ليطلوا من الناروزة(*) · تركوا الشبابيك ، وعبروا العتبات ، خرجوا مشدوهين ، مندوهين الى الفضاء ، تحركوا بنظام الجيوش الكبيرة التى ما التحقوا بها ٠٠ تجمعوا فى العراء : فى الأزقة والحوارى ، فى الساحات والأجران ، والغيطان ، فوق مراكب النهر ، فى كل أرض فضاء ·

احتلت السماء عصافير خضراء بريش ناعم له طراوة البزوغ وقوة النضج ، فيه حلاوة وبهجة · اختفت الشمس ، لكن الظلام لم يأت · نورت فوانيس القلوب ، واكتشفوا كم هم صغار · كادوا أن يلمسوا العصافير التى حلقت وسكنت العلا ٠٠ دثرتهم رياح الرفرفة بدفء سال ، وشرنق أفئدتهم · دققوا النظر ، انجلت غشاوة كانت تظلل أبصارهم ـ كانوا هم ابناءهم الذين سيقوا يوما فى طوابير من الكفور والنجوع مربوطين بحبال ، وحراس غلاظ شحنوهم فى عربات الحيوانات التى لها أصوات تقعقع على مهل الى أتون الحرب ، وأسكنوهم خياما مهلهلة فى

(*) شباك مستدير أعلى الغرفة التى تضم الفرن ليخرج منه الدخان ·

صقيع الصحارى الليلى ، ولهيبها النهارى دون طعـــام كاف ، يواجهون أعداء لا يحملون لهم ضغينة أو عداوة ، فى وقت التحام لا يملكون تحديده • فاذا نجوا ، فتكت بهم أوبئة لا يعرفون كيف ينطقون أسماءها : تيفوس ، كوليرا ، ملاريا ، صفراء • فلمـا سقطوا مقتولين فى المدن الغريبة ، والصحارى الغريبة ، وتحت السياط الغريبة ، وتفككت أحجبتهم وبليت ، وتعفنـوا فى المطـر ، وتقددت أعضاؤهم بالحرارة ، وانتهت الحرب ، وانفض السوق الذى لا ناقة لهم فيه ولا جمل ، قرروا عودة جماعية الى الأهل يودعونهم بتحية أخيرة ، ونظرة اشتياق لبلـــدتهم ، قبل أن يبتلعهم جحيم الوحشة ، ويشربوا سم الفراق ، ويذكرون الأهل كم هم كثيرون ، كثيرون • ربما تتحول ذكرى هذه الزيارة الى غصة أبدية فى القلب تخزهم ، تشكشك أبدانهم ، تحركهم كلمـا نسوا أن خذوا بالثأر • فلما رأوا عيون القرية المتورمة ، واللؤلؤ الحزين يزين أركانها ، تجمعت فى مآقى الشهداء دمعة سالت فى قطرة واحدة حتى وصلت أمام الحشود بؤرة شفافة صافية ، تجسد منها صوت مهيب ، سأل متعجبا أسيانا مرة واحدة وهمد :

ـ مليون مجند ويزيد ؟! ألم يكن ممكنا أن يتجمعوا لرد المعتدين ؟!

نطق أبو مندور ، أحد العائدين من الحرب ، وقد تحشرجت فى عقله مئات الصور :

ـ رأيتهم ، أنا رأيتهم • هم اخوتى • زملاء السلاح •• ماتوا فى الصحراء ، ولم أستطع وغيرى تكفينهم ، ونحن نهرب أمام النيران والحمم • تحولت اجسادهم الى أشلاء ، ثم ذباب أسود ، طار فى سماء الرمال الغريبة حتى حجبت الشمس ، فما الذى حولهم الى عصافير ؟

قال حنا : لو كانت عيناك سليمتين ، لكنت رأيتهم عصافير•

سقطت اللآلىء التى تعمى العيون ، شهق الناس من النور الذى لم يغش البصر وأعطى له المدى فسيحا ليلمس الأجساد المحلقة ، ويستمد بها منها حرارة أن نكون معا ٠٠ أن نكون ٠٠ غرقوا فى اللهفة ، ونسوا اللوعة ٠

انقض الرحيل يفتك باللحظة ٠ رفعوا أيديهم ، فماطلوا الأحبة ، وتردد فى الكون صدى ما غاب الى وقت طويل ، حفرت حروفه فوق لحاء شجر السنط فتغضنت بشرته ، وسال منه الدمع غزيرا مدرارا ، ثم تحجر فوق سيقانه وجذوره العريانة ، ونطق بلوعة :

ـ لا أذهب ، ولا أروى الأرض حتى يقام العزاء ، وفى عرفنا لا نقبل عزاء ، والدم ما جف على يد القاتل !!

هرب الصدى ينوح فى الحقول البعيدة برفرفة جارحة :

ـ لا تنسوا الثأر ٠٠ لا تنسوا الثأر ٠

قال الشاعر على الربابة ، وغنى فى ليالى المنتهى الطويلة :

ـ حتى تقول الهامة ٠٠ اسقونى ٠٠٠

- ٨ -

عشش السهاد فى أزقة المنتهى ، وأروقتها .. تحولت الكتمة التى تفرضها الهجانة الى غليان يطقطق تحت الجلد ، لا يجد متنفسا يهدىء من فورانه . ظهرت البثور طافحة فـوق بشرة القرية ، فلم يعرفوا لها حلا ، اذ ان اغلاق الدور بعد صـلاة العشاء وحظر التجول أديا الى افتضاح أشياء ، ما كان يمكن أن تتم فى النور ، فى زمن الحـرية .

بـدأت الحـكاية ذات ليـلة لـم يظهـر فيها قمـر ، وبعـد أن أغلقت الـدور ، وسـكنت الشـوارع . اذ هاجت نفس أبو المعـاطى مسـتور الى أنثى . فلمـا لم يجـد وسـيلة يصل بها الى امرأة تقبل معاشرته ، وتابع بعينيه مرور الجمـال العالية التى يهتز فوقها فى كسل رجال غلاظ القلب ، تفرقع فى أيديهم أسواط سودانية ، ويصيحون فى الشوارع صيحات تخلع القلوب ، وتأكد من عدم امكانية الخروج بأية حال : أغلق بيته كاتما غيظا لم يشعر به الا الحيوانات التى قضت نهارا عصيبا بسببه . فقد نعرت البقرة فى غيط فراج عندما مر بها تنعيرات متتالية زاعقة تعجب لها صاحبها ، اذ كانت البقـرة معشرة بالفعل . وكذلك فعلت حمارة عويس وهو يمتطيها ، قابلته على الطريق العمومى ، وتشدقت بعصبية لم يألفها راكبها من قبل ، وهاجت متابعة ابو المعاطى ، وزرجنت عندما حاول عويس أن يدفعها ناحية شـارعهم ، وترك الطريق الـذى كان الرجـل مازال سائرا عليه يخبط بعصى فى الأرض ، ويحدث نفسه ، كأنـه يبحث عن شىء ضاع منه . بحث عويس فى الشارع عن حمار .

يكون قد أثارها فى غير أوانها ، فلم يجد ضربها بعصاه على جلدها كى تطاوعه ، فأنهت المسألة كلها بالنـــوم على الأرض متصنعة احتياجها لحك جلدها · وقلبت البردعة ، وحصلت على حمام ترابى معتبر ، ثم جلست هادئة ، تهز ذيلهـــا ، اذ كان أبو المعاطى قد ابتعد عن مرمى بصرها ، دون أن يدرى ما فعل بهـــا !

وقيل يومها أن الطيور التى مر بها أبو المعاطى هـــاجت ونقرت بعضها بحثا عن اللقاح ، أى لقاح · وكان من غـير المالوف أن يطير ذكر الأوز الذى يملكه العمدة ، ويسبح فى النهر ، محاولا اللحاق بكل أوزة تمر أمامه فى الماء أو خارجه · وقالوا أنه ركض وراء دجاجة أيضا ، وهبش رجل زكية البيضاء البضة الناعمة أثناء جلوسها فوق الجسر تغسل نحاسهـــا !! ونقنقت الدجاجات فى الأقنان عند أم كحيلة ، وطاردت الديك المسكين الذى لم يقو عليهن جميعا ، وكان حاله بلاء فى آخر النهار الاغبر، كأنما فى جسد الرجل شىء مشع يعلن عن رغبته الجارفة ·

فلما انقضى اليوم دون أن يشبع شهوته ، وصل الى الدار مهزوما ، وحيدا ، لا يدرى ماذا يفعل · وكانت كلبته ساهـرة راقدة أمام الباب ، مشت وراءه تتمسح بجلبابه ، وتهز ذيلها · وقيل أنها بدأت تلعب معه لعبة الاثارة ! اذ قفزت فوق رجليه ، ودفست بوزها بين فخذيه · وأنه حتى هذه اللحظة لم يكن يفكر فيها أو يبادئها بشىء · وقال آخرون انه عندما رآها راقدة تحت قدميه ، وذيلها يلعب أمامه ، ويكشف عن مؤخرتها ، لم يستطع أن يسيطر على نفسه ، فراح يداعبها حتى تمكن منها ، ولم يهتم بضجيج الكلاب ونباحها خارج داره ، ذلك النباح الذى أيقـظ القرية كلها أكثر من مرة ، والتهم الثعلب ظلما بمحاولة سرقة دجـــاج ·

انهى مهمته فى سلام وعافية · حاول الخروج ، فلم تمكنه من الانفلات · تذكر ـ دفعة واحدة ـ ما رآه طوال حياته من عادات الكلاب · شاهد فى المدى صورة الأطفال وهم يركضون بالحجارة وراء كلب وكلبة ، وتتحمـــل الألم دون أن تهاجـــم مطارديهما ، وتهرب ممسكة به ، ولا تتركه الا بعد وقت طويل · ادرك مأزقه ، حاول أن يدفعها عنه ، والكلبة مستكينة تماما ، صافية العينين ، هادئة ، هائمة ، لا تشعر بالورطة التى استنزفت قوى الرجل المسكين · اخيرا ، تألمت وخرج من بين فكيها صفير رفيع حاد ، وهى تنظر اليه متسائلة تريد أن تفهم ·· لماذا ؟ لكن التوسلات والتضرعات لم تؤثر فى الرجل الذى أطار صوابـه أنه لا يستطيع « الفلفصة » ، ورفع التوتر ضغطة ، واستكثر على نفسه الاستسلام ، فقرر الخلاص منها بأى ثمـــن ·

حاول الوقوف قدر استطاعته ، ثم نطر جلبابه عليهـــا ، وحملها ووقف بالباب متلصصـــا على الطـــريق كى لا يلتقى بالهجانة · فلما اطمأن ، مشى بها منحنيا الى النهـــر فى عز الليل · ورغم خوفه الشديد من ظهور الجنية فى هذه الساعة المنحوسة ، الا أنه لم يتردد أو يتراجع · غطس فى الماء متصورا أن الاختناق سيدفعها الى الهرب ، وحين أطبقت المياه البـاردة على صدره ، وأصبح مضطرا للصعود لكى يتنفس ، شعر أنـه مازال أسيرها · فلما لمس الهواء المنعش وجهه وصدره اللاهث ، فاجأته عينان عسليتان ناعستان تبرقان فى الظـلام · راح يقب ويغطس ، ويقب ويغطس ، وهى تفعل مثله ، اذ ظنت أنه يلاعبها ·

فلما أوشك أن يفطس ، سمع ضجة حوله ، وشاهد ثلاثة من الجمال ورجالا لم ير أطول منهم فى حياته · وتوقفت فوق الجسر كارتة نزل منها فلاحان من أهل القرية ، كانا عائدين من

البندر بعد أن استسمحا قسم البوليس فى العودة المتأخـرة ٠ واشترك الجميع فى فك الاشتباك ، وتجمعت الكلاب تنبح وتنعى اللذة المسروقة منها ٠

وانتهت الواقعة بفضيحة عرفتها البلدة كلهــا ، وأسمته من ليلتها أبو كلبة ٠ هذه التسمية التى يقسم بعضهم أنه رأى سببها بنفسه ، ويقول آخرون أنها اشاعة ٠ ويؤكدون أن أبو كلبة هذا ليس هو صاحب الحادث وانما جده !!! ويقول آخرون أن الفلاحين اللئـام أشاعوا عنه هـذا الافتراء انتقاما لبيعه التموين المهرب من الكامب الانجليزى بأسعار مضاعفه أثنـاء الحـرب العالمية الثانية ، وأنه خرج فى هذا اليوم ليستحم فى النهـر ، ففاجاه رجال الهجانة ، واستغلها الفلاحون تكئة لكى ينالوا منه !!

أضفت القصة بسمة ما على مناخ القرية الكئيب ٠ ووصلت الى أسماع الشيخ طه أثناء جلسته فى الشكمة لاستقبال زواره ، الا أنه لم يجرؤ واحد ، أو واحدة من أهل بيته على الحديث أمامه

فيها ، اذ أن التوتر المرتفع خارج الدوار ، وصل الى أعلى مدى داخله ٠ لم تظهر أى علامة انفراج بعد مرور ستة اشهر عـلى حادث أبو مندور٠ ومع أن طبيعة أعمال الزراعة، وعدم وجود كهرباء تنيرها جعلتهم يعتادون على النوم بعد صلاة العشاء بقليل من أجل الصحو المبكر فى الفجر ٠٠ فاذا جاء الماء ليـلا ، اسـتأذن صاحبه من الهجانة ، أو بقى فى الغيط طوال الليل يروى ثم ينام فى العشة ، ولا يعود الى القرية تجنبا للاصطدام بالدورية ٠ ومع هذا ، حفرت الاهانة أخاديدها فى قلوبهم ، وهم يشاهدون الجمال تتبختر فى أروقة القرية ، والعسكر يسوقون الفـلاحين أمامهم ليدخلوهم الى الدور ٠

هل بشنس(*) ، وصامت الأرض عشرين يوما كي تجف سنابل القمح الخضراء ، وينشف الطمى لكى تضم الغلة • وقع الفلاحون فى « حيص بيص » ، اذ اكتشفوا فجأة أن الطقس الذى مارسوه منذ سبعة آلاف سنة ويزيد لم يعد ممكنا اليوم • لم يكن الضم ليلا سوى ضرورة عملية ، حتى لا تتفرط السنبلة ويضيع نصف المحصول • كما أن العيدان الجافة فى النهار تشبه سكاكين حادة تجرح الأيدى • لهذا لا يتم الحصاد الا عندما تطريها رطوبة المساء فى الليالى القمرية • اعتادوا العمل فى الحصاد طوال الليل حتى نزول الندى فوق الغيطان • وقبل أن ترسل الشمس طقطقات تثاؤبها وصحوها ، يتركون كل شىء على حاله ، فاذا هل مساء آخر ، أكملوا الضم والنقل الى الأجران •

فى أواخر شهر برمودة(**) ، تساءل البعض ان كان الهجانة سيسمحون لهم بالخروج ليلا للحصاد ؟ ورد آخرون : يفرجها الله • هل سنحمل هم الشهر القادم ؟! يكفينا هم اليوم !! لكنهم وجدوا أنفسهم فجأة فى مواجهة المشكلة •

قال منصور سيد أحمد عطية للشيخ طه وهو يجلس فوق كرسيه وراء البغدادلى فى الشكمة : ماذا نفعل يا حضرة العمدة ؟

وأردف •• الا الغلة !!

أجاب طه : حدثت المأمور لكى يسمح لنا بالخروج للعمل تحت اشراف الهجانة ، لكنه رفض وقال : هى تأديبة للبلد •• تنام من المغرب •• أرسلت تلغرافا الى رشدى بك فى الاسكندرية ،

(★) أبريل •
(★★) أوائل يوليو •

لكى يتصرف مع معارفه · واذا لم يرد خلال أيام ، سأسافر الى مصر بنفسى ·

قال أبو صابرة : سأضم غيطى ، الليلة ، وليحدث ما يحدث· الغلة هى القوت يا عالم ·· أم صابرة خبزت فطيرتين · نوت أن تقدمهما للهجانة · قلت لها ·· يا ولية ·· ابعدى عنهم ، واقصرى الشر ، لكنها رفضت ، وقالت ·· كلهم غلابة مثلنا ، ولن نهون عليهم أن نخرب الزرع بأيدينا ، ونموت من الجوع · كل الحكاية نصف فدان ·

رد متولى ضاحكا :

ـ شورة المرأة ان صحت بخراب سنة !!

قال أبو صبرة :

ـ يجعل سره فى أضعف خلقه ·· يا سيدى ·

دخل أبو شعيشع من البوابة ناحية المجلس ، وأخبر العمدة أن مركب الفول وصلت ، ورست أمام السلاخليك · وقام الشيخ طه مع ضيوفه يرحبون بها ·

قال منصور سيد أحمد عطية : نتركك الآن ونعود بعد صلاة العصر ·

قال طه . وهو مستغرق فى فكرة أم صابرة :

ـ لا ·· انتظروا ، قد نستطيع حل المشكلة بعيدا عن الرسميات · اذهب يا متولى لدوار الفصام ، وأخبر رئيس الهجانة أنى أريده ·

انشغل طه فى ترتيبات انزال المركب ·· ألقوا بمعبر خشبى الى الأرض ، وسرح طابور من النمل ينقل أجولة الفول بنظام الى

المخازن حتى ظهر الضيف المنتظر ، ودخل معه الى مجلسه وسط الفلاحين · عرض طه عليه أن تنزل القرية كلها للجمع فى مكان واحد ، ينتهون منه ، ثم ينتقلون الى حوض آخر فى حراستهم ، اذا أرادوا على أن يسترضيهم الفلاحون كل حسب طاقته ، ويتكفل أبو عبد الله بالمسئولية تجاه أى حادث ·

قال الرجل : المسئولية لن يتحملها الا نحن · هى حبل فى رقبتنا ، وأنتم تعلمون الأوامر · سأوافق بشروط :

أولا الالتزام بألا أجد نفرا واحدا فى مكان آخر · الكل يتجمع امامى فى الغيط ، ويستعد من يريد العمل للبقاء هناك من المغرب ، والتوقف عن الحركة تماما من القرية ·· ولن أسمح لواحد فى منتصف الليل أن يرجع الى البلدة ، أو يخرج منها · وثانيا : اذا أردت اعادة الحظر فى اى وقت ، وعدم الخروج فى اية ليلة ، لا تكون هناك مناقشة · فقد يمر المأمور او تأتينى اخبارية بشىء لا تعلمونه ، ولست مضطرا لأن اقوله لكم · وثالثا : امامكم مهلة خمسة عشر يوما لا غير ينتهى العمل فيها ليلا تماما ·

هلل الفلاحون ، وتصاعدت همهماتهم :

عشاؤكم علينا !!

هلل الفلاحون ، وتصاعدت همهماتهم · عشاؤكم علينا !!

خرجوا بهمة من الدوار يستعدون لفرحة الحصاد · دخل العمدة الدار عبر الممر الضيق الى البوابة الداخلية مهموما · لم يشعر باهانة قط مثل هذه · رأى وديدة وسط الحوش ، وسرب من البط الصغير يمشى وراءها · كانت قد فتحت له باب الحظيرة تتقدمهم الأم نحو قنها ، والحمام يهفهف حول يديها

يلتقط منها الحب فى اصرار غير خائف · خطفت ستيتة طفلها الذى يحبو على الأرض، من امام قدميه ، واخفته تحت مكبة كبيرة من الغاب · كان طه يوجه النظر الى أبعد نقطة ، كما اعتاد اثناء التفكير فى شىء · ضحكت وديدة قائلة :

ـ أول جوال فول من النقلة لأهل الدار ، والطيور أولى !!

لاحظت اكتئابه ، قالت :

ـ خير ان شاء الله ·

ـ خير ·· سنحصد الليلة ·

بلعت ريقها : الحمد لله ·

ـ استعدى لسهرة ، وجهزى افطار الضمامة ·· اختاروا البداية من حوض رميح ، ولنا أرض فيه · وربنا الرزاق ·

ـ يجعلها سنة مبروكة علينا وعلى المسلمين يارب · سأصعد لأفرح نينا ، وأسألها ان كانت تريد ترتيبات خاصة فى البيت ·

ركضت فوق الدرج رشيقة خفيفة ، منفرطة العافية ·

تتفتح وديدة مثل كائنات الطبيعة فى مواسم بعينها ، وتذبل فى مواسم أخرى ، تماما مثل شجرة السنط الوارفة بجوار عتبة الباب الكبير ، تعرف قوانين اللعبة ، وقواعدها ، وتتعامل مع من حولها بمنطقهم لا منطقها ، لا تتخطى الحواجز أبدا ، أو تغير من الأصول · تعرف لكل مخلوق احتياجاته ورغباته ، وتحترم تفاصيل الحياة اليومية ، وتحبها وتعيش من اجلها · وربما يكون هذا هو السر وراء حب الطيور لها ، فكانت لا تشاهد نهارا أبد بدونهم ، يحومون حولها مثل فراشات امام مصدر

ضوء ، خاصة الحمام الذى يحط أمامها يحايلها كلما ظهرت انتظارا لشيء تقذفه له ، ودائما ما تحتفظ فى جيبيها بحبوب تلقطها له ، ولسانها ينطق أصواتا يعشقونها : لق لق لق لق ٠ وتبدو فى قمه سعادتها عندما تسمعهم يبغبغون حولها ، سعادة تشبه تلك التى تشعر بها وهى تحكى أحلامها ٠٠ تترك للعاملات تزويد الحظائر بالطعام والماء بانتظام ، وتفتش بنفسها على نظافتها ، وتحتفظ لكل طير بما يهوى من حبوب ودشيش تقدمه له فى أوقات راحتها ، ولا تترك رعاية الصغار لغيرها أبدا ٠ ظهورها بجوار العشش كفيل بإثارة ضجة وهوس لا ينتهى الا بنزولها من فوق السطح ٠ شهور خصوبة طيورها تأتى شتوية ربيعية لا يخلو فيها قن من أم راقدة على البيض ٠ عندئذ يحلو لها أن تجمع خليطا من بيض البط ، والأوز والدجاج تحت الأم التى تهيأت للرقاد ٠ لكن أغرب ما تحضنه وديدة هو ترقيد بيض دجاجة تحت زوج الحمام ، فاذا فقس فرخيه ، نقلت البيضة الغريبة الى زوج حمام آخر حتى تكتمل مدة حضانته ٠

ولهذا كثيرا ما يظهر لها كتكوت أو اثنان لا أم لهما مع الزغاليل ، تحملهما فى جيبها طوال النهار ، ويظلان حبيسى دفئها حتى يستطيعا الحياة بمفردهما ٠ وكانت لا ترى الا ويتبعها كتكوت يصوصو ، وأحيانا ما كان الكتكوت يتعدى الحدود المسموح بها للحركة ، فيصعد وراءها الى الطابق الأول المحظور الا على العائلة ٠ لكن كتكوتا بعينه ظل حديث الأسرة زمنا طويلا حتى لقبوه بعنتر ٠

كان عنتر أحد ضحايا تهجينات وديدة ، اذ ولد تحت حمامة اهتمت بأبنائها ، ورفضت الاعتراف بلونه الأصفر الشاهق ، فرفسته ، وأزاحته من عشها المختبيء فى صفيحة معلقة على الجدار قرب سقف الحوش ٠ لاحظت وديدة ما يحدث بين

الحمامة ، والكتكوت المفترى عليه ، فأحضرت سلما خشبيا ، وصعدت الى العش ، وأنقذت عنتر فى آخر لقفة نفس ، ووضعته فى جيبها بهدوء وهدهدته حتى ارتاح ، ثم غمست له الردة فى اللبن الرايب ، وأشرفت على اطعامه طعاما فاخرا لا يحصل عليه الا أبناء البط والأوز · فلما اشتد عوده ، كانت تضعه على طاولة الطعام ، وتمسك له الدشيش والقمح فى كفها ، وتتركه لينقر أصابعها ، وكانت أم حلمى تضحك ساخرة :

ـ هو الكتكوت يتزغط يا وديدة ؟!

أحبت هذا الكتكوت أكثر من غيره · فلما تركته فى فناء الدار ، رفض أن يبارح ظلها ، ومشى من ورائها يلهث فى خط مستقيم ، حتى لا تغيب عن عينيه أبدا ، ولم يدخل الحظيرة ضمن سرب الدجاج ، ورفض الفطام الذى حاولته معه أم عبد الله وكان يبدو للجميع أنها أيضا لم تكن جادة فى فطامه ، فلما صعد السلم خلفها ، واقتحم الأرض الحرام دون خوف ، لم تجد مناصا من ادخاله الى الصالة ، ووضعه فى صندوق كرتونى خلف الباب · لكنه لم يهدأ طوال الليل ، وأخذ يصوصو ، ومنعها من النوم ، فقامت تفتح له الباب وأدخلت الصندوق الى غرفتها ووضعته تحت سريرها ، لكنه لم يتوقف عن الصراخ · وراح النوم يخايلها ، حتى ساد سكون موحش قررت عنده أن تزيح الغطاء عن رأسها · وقامت نصف قيام تستطلع ان كان قد أغفى ، فلم تر شيئا فى الظلام · راودتها نفسها أن تترك فراشها ، وتوقد اللمبة ، ثم عدلت عن ذلك ، وطمأنت نفسها بأنه لأبد قد نام أخيرا ، أراحت جسدها فوق السرير ، وعدلت من الوسادة · شعرت بشىء ساخن بجوار رأسها ، ورغم اضطرابها للمفاجأة ، عرفت أنه الكتكوت الصغير الذى تسلق الصندوق والسرير العالى الى حضنها ، وسمعت صوتا رقيقا ناعما يعزف نغمة وحيدة :

صو ، ثم نام · فلم تطاوعها نفسها أن تعيده الى الأرض · ومع الوقت ، أصبح عنتر ينام تحت سريرها ، ويصحو مع أول حركه لها قبل الفجر ، ويستقبل معها فناء الدار · ثم اعتادت العائلة أن تطلق على كل كتكوت يكسر الحدود « عنتر » ، مصحوبا بلقب الثانى أو الثالث ، تيمنا بأشجع الكتاكيت الذى كون عائلة عريقة عاشت أنسابها فى الحظيرة زمنا طويلا !!

انقضى نهار الدوار ، ولا شاغل سوى الحديث عن أعجب حصاد عرفته القرية فى تاريخها الطويل · حصاد يتم فى خمسة عشر يوما لا غير · اثنان كانا متأكدين من امكانية الانتهاء من العمل فى هذه المهلة : عبد الله العائد الى المنتهى فى أجازة مذاكرة استعدادا للامتحان ، ووديدة ، اذ راهنا على قدرة الفلاحين على العمل بحماس · وضربا مثلا بما يحدث أثناء الحرائق ، وتكاتف الناس لمواجهة النيران ، مهما كانت بينهم عداوة أو مشاحنات · أما باقى أفراد الأسرة الموجودون ذلك اليوم ، فقد اختلفوا فى تقدير مدة انجاز المهمة ·

وقال حيدر :

ـ لا أعرف لماذا كل هذا القلق من مجرد تغير الظروف ؟

وأردف بالفرنسية التى لا يعرفها معظمهم « سى لافى » · وكانوا قد تعودوا على سماع بعض الجمل حتى حفظوها · وأردف :

ـ عيشوا حياتكم ، واستمتعوا بها !!

نظر اليه الجميع غير مصدقين آذانهم ، رغـــم معرفتهم بسيرته ، وابتعاده عن أى مسئولية ، طالما كان يحصـــل على ما يريد من مال · قطع اسماعيل الصمت :

ـ أنا أضمها يا أبى أحسن من عم أبو شعشع « يقصد « شعيشع » !!

ضحك الموجودون وقالت وديدة :

ـ كنت أتمنى أن يكون أولادى هنا ليساعدوا ، لكن منذ رحيلهم للدراسة ما حضروا ضم الغلة أبدا ٠

رد عبد الله : ألا يكفيك اسماعيل ؟!

أما الشيخ طه ، فكانت تخوفاته من نوع آخر لم يفصح عنه ٠ لكنه نظر الى أمه نظرة لها معنى خاص فهمته عديلة التى اقتربت كثيرا من ابنها الأكبر فى الفترة الأخيرة ٠ ورغم أن الشيخوخة أعجزتها عن النزول الى وسط الدار ، والاحتكاك باليوميات ، الا أنها كانت تشرف على دبة النملة فى الداخل والخارج ٠ وقد ساعدتها خبرتها الطويله على استشراف الآتى ، رغم أنها لم تخرج من عتبة دارها منذ زواج نعمة الا لتزور قبر ابنها عبد الحكيم ٠ أضفى الزمن على روحها حزنا وصفاء من نوع خاص ٠ صفاء ادراك حقيقة الحياة ، ادراك يصل اليه الناس خارج القصور الكبيرة والدواوير فى العراء ، والعشش ، والدور الواطئة المبنية من طين الأرض ذات الطاقات المستديرة ٠ ادراك يصلون اليه بعد البلوغ بقليل : معنى البقاء والعدم ، يلاحظونه مع دفن البذرة ، وخروج البراعم الى النور أوراقا خضراء طازجة تنمو الى نبات يزدهر ، ثم يحصد من الأرض لينمو غيره ٠ حياة وفناء دون ضجة ٠ ميلاد وموت ، ولا مكسب فى أيديهم سوى الحنين !!

تجمع الفلاحون أمام الدوار بعد صلاة المغرب ، وخرجوا جماعة واحدة الى الحقول ، ربما للمرة الأولى فى حياتهم ٠ انتظموا فى صفوف علمها لهم الأجداد ، متباعدين بمقدار حتى

لا يجرح واحد الآخر ، فتحوا كفوفهم لكبشة عيدان ذهبية كبيرة · يميلونها أمامهم ، وينحنون عليها ، يحشونها من فوق الأرض · انتشرت فى الهواء فتافيت وقشور لها طعم الميلاد وفرحته تجمعت الهمة تطقطق فى الأفئدة ، وتشعل نشاطا فى الصدور ، خشخشت السنابل ، وهى تقع أمام أسنان المحشة ، وانشغل عدد من الأنفار فى تجميعها حزما ، وعدد آخر فى نقلها فوق الجمال التى تهادت ناعمة ، رائقة العينين ، وأخفت قدرتها الهائلة على تخزين الأحزان والأحقاد ، حتى وصلت الى الجرن الكبير ، وأفرغت حمولتها ، ثم عادت تتبختر على الطريق ، لا تخشى الظلام !!

انتقل الفلاحون من مكان الى مكان فى خفة الفراشة ، ورشاقة الغزال · فلما انتصف الليل ، ونزل بعض رجال الهجانة يشربون معهم الشاى الذى يغلى فوق كوانين صغيرة على رأس الغيط ، انزاحت عن القلوب مسحة الاهانة ، وانطلق صوت ناى يصفر من القلب موالا عرفته العيدان التى تلتمع وتبرق فى الظلام، والعيون التى كثيرا ما تنغلق جفونها على الصديد ، والصدور التى تتفتح كل يوم لحب الحياة :

يا حلوة ضمى الغلة

عود على عود نتسلى

وردت الجموع وراءه :

ما أعرفش أضم الغلة

عاد الصوت :

وريني شعرك وريني   لتكونى قارعة تغشيني

ساعة الحصاد وتقولى لى   ما أعرفش أضم الغلـــة
يا حلوة ضمى الغلــــة   عود على عود نتسلى

استمروا يسلون العمل ، يحايلونه ، ويعركون التعب كي يلين حتى نزلت الشبورة ، فتوقفوا · واستقبلوا نسمة الفجـر البديعة وهى تدغدغ القلوب وتختمها بحب لا يعرفه الا البحارة ، والفلاحون ، والعشاق وساهروا الليالى الطويلة ، وهم يتلقون قبلة الندى البكر · أغفى بعضهم فى مكانه الى أن ظهرت خيوط الشمس الأولى ، واستطاعوا العودة الى القريـة · بعد صـلاة الفجر ، وصلت صوانى الفطير المشلتت التى سهرت البيـوت تخبزها طوال الليل ، بصحبة متارد اللبن والعســل · تقليد ما تقاعست عنه المنتهى أبدا ، أن يكون افطار الضمامة ممـا يجمعونه : القمح ملفوفا فى القشدة والزبد ·

تحلقوا حول الطعام الشهى ، فلاحين وهجانة !!

فى الأيام التالية ، انقسم العمل نهارا فى الأجران ، وليلا فى الحقول ، فى سباق وحشى مع الزمن قبل انقضاء المهلة · وارتبكت حركة القرية فى الصباح ، وظهر التعب على أبنائها ، وتوقفت معظم الأعمال الا ما يخص الدراس ، ودارت النـــوارج هادئة فى صحبة نفر قليل ، واضطر طه بك المصيلحى لجلب عدد من الأنفار من خارج القرية للمرة الأولى فى حياته ، لأن مساحة أرضه المزروعة قمحا كانت تحتاج فى تقديره الى شهر للضم ، وشهرين للدريس والتذرية ·

وكان فى السنوات السابقة يترك العمل يمر فى بطء بمساعدة فلاحى القرية لكى يسترزقوا من ورائه · لم يكن هذا ما يقلقه ، لأن سير العمل افصح عن تعاون لا مثيل له ، لكنه كان خائفا من تغير

الاتفاق قبل اتمامه لأى سبب ، بعد أن وصل التحدى بينه وبين الحكمدار رأفت قاسم الى آخر مدى • وقد أدى هذا التوتر ،والعناد فى مواجهة الوقت داخل أروقة الدوار وخارجه الى تذكر جميع الحوادث التى مر بها المكان دفعة واحدة ، حتى أنهم كانوا ــ ومن خلال عيونهم وحدها ــ يكملون حكاية التفاصيل واحدة تلـــو الأخرى ، ويستعيدون أحداث قتل عريس نعمة ليلة زفافها ، أو خروج الحاج عبد القادر من العمودية بفضيحة مازالت ماثلة فى الأذهان • لكن حادثا بعينه رمى بظله على أرواحهم ، كأن الشمس ما تحركت فى مدارها • حادث أبكى القلوب التى تصورت أن جرحها قد التأم ، واكتشفوا ، لحظة أن اجتاح البوليس الدوار بمئات العساكر ، وطوق البلد بأكملها أياما يبحث عن السلاح ، أن الجرح ينز تحت السطح ، وأن آلامه مازالت تصب فى الدم لهبا شرنقة الصبر ، ثم انفجر لحظة أن كشطت الجلد ريشة : حادث استشهاد عبد الحكيم !!

- ٩ -

حين دوى صوت الرصاص فى مكتب الحاج عبد القادر المصيلحى عمدة المنتهى ، كان النهار يوشك أن ينتصف فى أحد أيام شهر برمودة . أمسكت شمس الظهيرة بصولجان ترسل منه أشعتها الناعمة الربيعية ، تدغدغ الطيور والزهور ومزروعات الحقول بالحياة ، وتدعو نائمى الشتاء للخروج من الكسل . اهتزت اعمدة الدوار فوقعت على الأرض محشرة فيها زوج من البط المسلوق تدهن أم طه جلده بالقشدة ، كانت على وشك أن تدفعه الى الفرن لتحمر وجهه . واحترقت الأرغفة التى كانت تخبزها ستيتة ، حين وصلها الصوت . وانقلبت قدرة الفول التى كانت تفرغها وديدة فى ماعون فوق صينية طعام الأنفار ، وتكسرت رقائق الخبز الجافة التى كانت تحصيها فطوم ، حين اخترقتها أصابعها وهى تقفز فوق الأرض ، ظنا أن الانفجار تحت قدميها . وانغرزت الابرة فى بنصر مارى ، وهى تطرز الأوبيسون فى شكمة الدور الثانى . واندلق فنجان القهوة من يد الحاج عبد القادر ، وهو يرتشفه فى مجلسه فى الشكمة ، وكان على وشك انهاء جلسته الصباحية . وانكفأت قمر التى تطعمها أمينة فى دارها أمام بوابة الدوار الكبيرة . وظنت العاملات اللاتى يعبئن الحبوب عند مدشة الفول أن الحرب قد عادت مرة أخرى .

هب الرجال ناحية غرفة المكتب . تسمروا أمام عتبة الباب لا يستطيعون عبورها ، ثم اندفعوا ناحية عبد الحكيم الغارق فى

دم انتحاره · دقيق الحجم ، أحمر الوجه ، يغطى رأسه شعر أحمر كثيف ومجعد ، بذلت عناية كبيرة فى تصفيفه للخلف ، له عينان سوداوان ، مستديرتان ، وأنف مفلطح ، وشفتان غليظتان ، وكفان ناعمتان ، مع أصابع طويلة ، رفيعة ، تعلن ببساطة أنها أنامل جراح · تطايرت قصاصات صغيرة من الورق متفحمة فوق صينية مازالت تنفث دخان احتراقها تصاعدت همهمة الفلاحين والأعيان :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ·· ضاع الشاب ·

وقع العمدة مغشيا عليه · حملوه الى غرفة نوم مجاورة للمكتب ، وتولى شيخ الخفر ابلاغ المركز ، وركض نفر الى الغيط لاستدعاء طه ، وطار النبأ حتى وصل الى رشدى الذى استقر في الاسكندرية ، وحيدر في فرنسا ، وحميدة فى مساهنة ، ونعمة فى الحور ·

أعلن المؤذن عن بدء صلاة العصر التى حددت موعدا للجنازة ، لكنها أرجئت بسبب فحص الطبيب الشرعى ، وتحقيقات النيابة واجراءات البوليس · وامتلأ الدوار عن أخره بالجنود ، وطوقت القرية فصائل من العسكر ما شهدت مثلها الا بعد سنوات كثيرة ـ أثناء التحقيق فى حادث أبو منذور ·

تعرض الدوار بسبب عبد الحكيم الى حملة تفتيش وصلت حتى أحجبة الحاج عبد القادر نفسه ، والموضوعة بعناية تحت وسادته وفى أرفف دولاب ملابسه · تعجب الضابط الذى فوجىء بكمية هائلة من أنياب الجمل ، وأقدام الطيور المجففة وحبوب العطارة السودانى ، وزجاجات العطر الفواحة التى خصص لها العمدة ايوانا خاصا · ودخل الرجال الأغراب الحرملك للمرة الأولى والأخيرة ، وقلبوا القدور ، وفتشوا الأفران ، والكوانين ،

وداسوا أعشاش الطيور وقنانيها ، وزرائب المواشى ، واصطبلات الخيل ، ومخازن الحبوب ٠

واستهدفوا الطابق الثانى الذى يسكنه عبد الحكيم ومارى التى أعادت اليها وحشيتهم صورة ما حـــدث فى باريس أثناء الحرب ، فأصيبت بحالة هستيريا حادة استدعت نقلهـــا الى المستشفى ٠ ولم تمض شهور قليلة حتى حملت ابنتها ورحلت عائدة الى بلادها ، ولم تطأ قدماها أرض المنتهى – مرة ثانية – الى الأبد ، دون أن تلتفت الى توسلات عديلة بأن تترك لهـــا حفيدتها ، وتمسكت بها على وعد بالعودة كلما سنحت الفرصة التى ما جاءت الا بعد أن صارت عديلة الصغيرة شابة ، وقتلها الحنين الى الدوار الذى ما نسيته رغم الخروج الدامى ٠

استمرت أعمال التفتيش تدمر كل شىء ٠ ولولا تدخـــل الحكمدار باشا شخصيا لوقفه – حين اتصلت به أم طه وأخبرته أنها ابنة قائد الحملة فى السودان – لتعرض الدوار الى مجزرة حقيقية ، كانت قد بدأت بالفعل بشق المرتبة بحثا عن أوراق عبد الحكيم لكشف أسماء زملائه فى جماعة « اليد السوداء » التى توجه ضرباتها الى قوات الاحتلال وتغتال جنوده ، وتدمر معسكراته ، وتقطع الطرق على القطارات التى تحمـل العتـاد العسكرى والغذاء ، وتستولى على البضاعة التى تنقلها القطارات عبر الدلتا الى الاسكندرية لتشحن فى البواخر الى الأسـواق الخـارجية ٠

كان عبد الحكيم الذى احتجز فى باريس أثناء الحـرب يتابع تغلغل الانجليز فى شئون بلاده ، والغاء الدستور ، ومحاولة فصل السودان ، ثم اعلان الحماية ٠ الذى تلته الأحكام العرفية ، وفرض الرقابة على الصحف ٠ فلما انتهت دراسته للطب ، عـاد

وانضم الى صفوف الحزب الوطنى الذى تجمع تحت لوائه عدد هائل من المثقفين ، وعين طبيبا فى مستشفى قصر العينى ·

فى تلك الليلة من شهر برمهات ، كان واقفا فى شرفة مكتبه يعيد بالهواء النقى تجديد نشاطه · وكانت النوباتجية قد أوشكت على الانتهاء · هلت نسائم ما بعد الفجر طيبة رطبة ، بعثت فى نفسه قشعريرة محببة أعادت له ذكريات باريسية حين جاءته من مدير المستشفى أوامر باعلان حالة الطوارئ ، بناء على طلب مدير مصلحة الصحة العمومية ، واستدعاء جميـــع الأطباء ، والتوجه بسيارات الاسعاف الى قرى العزيزيـــة ، والبدرشين والعياط · عرف أن صداما مسلحا قد وقع بين جنود الاحتلال والأهالى ·

كانت مصر في حالة غليان بعد اعتقال سعد زغلول وزملائه· مرت السيارة وسط شوارع المدينة ــ التى كانت تهش النوم عن عيونها ــ حتى الطريق الترابى المزروع على ضفتيه سنابل القمح وأعواد البرسيم الخضراء · حلت الشمس جدائل شعرها الذهبى، ونشرتها فى السماء · خيم هدوء مريب لا يوحى بالأحداث التى وقعت منذ ساعات قليلة · اقتربت القافلة من العزيزية ، لاحظوا تصاعد الدخان الذى أعلن لهم عن تدمير الأبنية كلها · لم يتخيل أى منهم حجم الكارثة التى يقبلون عليها · بدت لهـم القرية تلا من رماد تذريه الرياح · قابلتهم فراشات سوداء تنوح ، وتهيل التراب فوق رؤوسها ، ورجال يجأرون بآلام تفتت الأكباد ·

لم ير عبد الحكيم خلال حياته القصيرة أبشع من تلــك المجزرة · بيوت تفحمت عن آخرها ، جثث قتــلى ، وغرقى ، وجرحى ازرقت أجسادهم تحت سياط العسكر ، ومصابون بأعيرة نارية ، أطفال ممزقون الى أشلاء ، ونساء مقتولات يحتضن أطفالهن ·

انشغلت القافلة فى تضميد الجراح ، ونقل المصابين ، وعرفوا من شيخ البلد أن مائتى جندى بريطانى قد انقضوا فى الرابعة صباحا على القرية ، وطوقوها شاهرى السلاح ، ثم دخلوا بيت العمدة الشيخ ابراهيم دسوقى رشدان ، وطلبوا منه تسليم ما عنده من أسلحة ، وجمع كل ما يوجد بالقرية قبل مضى ربع ساعة ، فقدم لهم مسدسه الذى لا يملك غيره ، فلم يصدقوه · واقتحموا الدار ، وكانت النساء قد اختبأن تحت الأسرة ، فجرجروهن من شعورهن ، وانتزعوا مصاغهن ، واعتدوا عليهن ، ودفعوا بالرجال امام السلاح ليدلوهم على منازل المشايخ والتجار ، وكرروا ما حدث فى دورهم ·

قذفت النساء بأنفسهن من الشبابيك والأسطح ، وبعضهن القين بأجسادهن الى النهر ، ومتن غرقا · وحكوا أنه لما لحق الجنود بزوجة الشيخ حسنين الجزار ، وحاولوا اغتصابها ، دافعت عن نفسها دفاعا مستميتا ، وخدشت الجندى الذى أمسك بها فى وجهه بأظافرها ، وحولت بشرته الى أخاديد طويلة تنزف دما · وسمعت القرية صراخه وحالة الجنون والهستيريا التى أصابته ، وهو يفرغ مسدسه فى بطنها ، وسائر جسمها حتى انتهى الرصاص من الخزان · قتل الأزواج وهم يدافعون عن نسائهم ، وأعلن الضابط أن النار ستضرم فى القرية ، ورخص للفلاحين حمل متاعهم خارج الدور · فلما هرب الناس بأموالهم بعيدا عن منازلهم ، وجدوا الجنود فى انتظارهم ، فتشوهم واستولوا على ما يحملونه ، ثم اضرموا النار فى القرية كلها ، بعد أن سكبوا الكيروسين فوق الأسطح المغطاة بالحطب · وانتشرت النار فى البيوت المتلاصقة ، وتكفل القش والحمام بانتقالها الى الدور الأخرى · سحبوا الأبقار ، وجمعوا الطيور ، ثم تركوا القرية ·

رقدت جثث الشهداء فى ساحة أمام ما بقى من دوار العمدة · ونقلت فى جنازة جماعية الى المقابر عند صلاة الظهر ·

توالت الأنباء على عبد الحكيم عند وصوله الى المستشفى تصف تكرار ما حدث فى البدرشين · وعرف أنه دمر فى العياط مائة وأربعون بيتا ، والبلدة لا يزيد عدد منازلهـا عن مائتين وعشرين ، وأنه قبض على الشيخ عبـد الغنى وأخيه وابنه ، ودفنوهم فى الأرض حتى انصاف أجسادهم بدعوى التحقيـق معهم ، ثم قتلوهم رميا بالرصاص ·

عاش هذا المشهد يؤرق الطبيب باقى حياته القصيرة كلما استكان الى راحة ، أو تمنى الاستمتاع بشىء · ظل منظر القتلى الشهداء ـ نساء وشيوخا وأطفالا وشبابا ـ يطارده ، فيقـوم مذعورا مطالبا بالثأر · ومع هذا ، احتفظ عبد الحكيم أمام الناس برباطة جأش ، واطمئنان كان يتسلل الى المكان الذى يجتمع فيه بالأهل والأصدقاء ، ويدثره بهدوء وحميمية تشعر الجميع أنـه يحيا فى سلام مع نفسه ، وتخفى عنهم النيران التى تضطرم داخله ، والتى كان يبذل جهدا خرافيا للسيطرة عليها ·

اشترك عبد الحكيم مع الأطباء فى كتابة بيان ، يرفضون فيه اطلاق الرصاص على الجمهور الأعزل ، الذى ينادى بالاستقلال ، دون أن يقتنع ان هذا الاحتجاج وحده كاف للمواجهة · وجـاء بيان أول أبريل الذى أذاعته السلطة العسكرية للاحتلال بعد مرور خمسـة أيام على الحـادث ليـدفع به الى العمـل السرى ·· جاء فى البيان :

أذيعت أخبار كاذبة فيما يتعلق بحوادث يقال أنها وقعت فى العزيزية · وقد طلب ارسال بلاغ عن الحقيقة ، فابلغ الضابط المتولى القيادة هنـاك أنه وردت أنبـاء تتضمن أن القرويين فى

العزيزية ، والبدرشين اشتهروا بايواء البدو المسلحين · وقد أجرى البحث فى القريتين بناء على ذلك يوم ٢٦ مارس ، فوجدت فى العزيزية كمية من الأسلحة حاول المشاغبون أثناء البحث الهرب بالقفز من سطح لآخر ، فأفضى ذلك الى سقوط الأسطح تحت ثقلهم · وقد سبب سقوط الأسطح فوق النيران أو مصابيح الزيت فى المنازل نشوب بعض حرائق فى القرية ·

بعد أيام قليلة من الحادث تحولت الشموع الخافتة حول مقبرة الشهداء الى شموس صغيرة واخزة تخطف البصر ، وتسحر كل من يراها ، فيتجه نحوها · ارتفعت من بينها أطياف بيضاء ، بدت فى هدأة الليل كأن لها آلاف الأجنحة ، كلما هبت ريح خاف الناس أن تنطفىء · لكن ما حدث أن معالمها اتضحت اكثر وتحددت ، حتى تكون جيش تعرف الناس على ملامحه ، وانضموا اليه · بعد صلاة الجمعة اندلعت المظاهرات فى شوارع المدن والقرى والنجوع كلها فى وقت واحد تطالب بالاستقلال ، فلم يتعرض لها البوليس · وسارت الجموع فى القرية تخترق الشوارع ، تلتحم بموجات بشرية انبثقت من الأرض فجاة ، وكانها بعثت الى الحياة كل من ولدته · تحقق حلم الأبدية ، وتعرف الناس على آبائهم واجدادهم ، جيل يسلم جيل ، حتى رأوا أول من زرع الأرض وخضرها · ارتفعت السنة اللهب من الأفواه ، وبدا كأن نهارا جديدا يوشك على الظهور ·

اندفعت احدى السيارات البريطانية المسلحة التى تصادف مرورها فى شوارع الاسكندرية تقتحم الجموع بكل قوتها ، وصدمت من كان فى طريقها · داست الناس تحت العجلات ، وفتحت النيران على الحشود البشرية ، فحصدت مئات القتلى والجرحى · انبطحت الجماهير على الأرض أمام تناثر الرصاص·

لم يفكر واحد فى الوقوف أمامها ، ولم تنظم جماعة نفسهـــا لتطويقها ، والقبض عليها ، رغم أنهم كانوا آلافـــا ، وجنود السيارة ستة ٠

يومها ، سأل طه عبد الحكيم الذى كان يقرأ فى كتاب وصف مصر ويتحدث عنه :

ـ ١٨٠ ألف جندى ! كيف احتل الفرنسيون البلاد بهذا العدد الضئيل ؟

أجاب عبد الحكيم : عدد كبير لشعب بلا نظـام لا قيمة له ٠٠ عندما عرفوا كيف يلتفون حـول هدف ٠٠ استطاعوا اخراجهم ٠

صدر ـ فى اليوم التالى ـ البلاغ الرسمى يشرح سفك الدماء ويبرره ٠ قال ان سـيارة الصليب الأحمـر والعســاكر التابعين للدورية كانوا فى حالة فقدان صوابهم ٠

على اثر حوادث الاعتداء على المتظاهرين ، أصدر مجلس الوزراء قرارا بمنع المظاهرات ، وارســلت نصف أورطة من الجيش لتساعد فى تنفيذ الأمر ٠

هدأت الأحداث ٠

ابتعد عبد الحكيم عن مخالطة العائلة والأصدقاء ، واعتكف فى غرفة مكتبه بالطابق الثانى فى الدوار ، ولم يعد يشاهـــد الا مع فلاحيه المرضى ٠ كان يمر بين عيدان الذرة فى الغيط حين تذكر زيارته الأولى للمنتهى ، بعد عودته من باريس ٠ يومهـا امتطى حصانه الأشهب ، وانطلق الى طريق ترابى وسط الحقول ٠ قطع مسافة كبيرة مع رفيقه الذى اختاره حين ولد ، ورعـاه بنفسه ، وكان لا يرى فى العراء دونه أبدا ٠ أسعده صهيله الذى

قابله به ، وتمرده على المكان الضيق رافعا قدميه الأماميتين ، حتى ما استطاع أن يطول رقبته ليرتب عليها ويهدئه · انتظره فرحا بالاستقبال الحار ، فلما هدأ ، ولمس جلده الناعم ، بكت عيناه السوداوان الكبيرتان · ولولا بقية من ميراث قديم عن الرجولة ، لبادله نحيبه واجهش هو ايضا · احتضنه ، ولم يفترقا كلما جاء الى المنتهى ·

امتلأ صدره بطمأنينة استوحشها منذ خرج للمرة الأولى ، فوق باخرة تمخر البحر ، تاركا الأمان ربما للأبد · « هل يمكن أن استعيد بعودتى الى المنتهى هدوء الصبا ؟ أم ان الشرخ فى جدار البراءة لا يمكن أن يلتئم ؟ وكيف تعود أوهام الصبا بعد أن وأدتها نيران الحرب ، وكآبة الغربة ؟! » · استنشق عبيرا طالما أحبه ، فيه طراوة الندى ، ورائحة التفتح الصباحى · توقف أمام الجرن تذكر كيف كانوا يغوصون أطفالا فى التبن عند تذرية القمح ·

ـ السلام عليكم ·

التفت الفلاحون : أهلا يا سعادة البك · الحمد لله على السلامة ·

اقتربت يده من رأس طفل ، جفل واحتمى بأبيه · سأل :

ـ منذ متى وعيناه على هذه الحال ؟

أجاب معاطى بصوت خافت : كله من عند الله ·

ـ أنا أسألك عن عينيه · منذ متى هذا التورم وهذا الصديد ؟

ـ مازال صغيرا ·

نفد صبره ، واحمر وجهه : يا بنى آدم ، أنا أسألك عن عين ابنك ، وليس عن عمره !

قال معاطى مخنوقا : أمه تضع له التوتيا !

ـ تعال هنا يا بنى ٠

صرخ الطفل ، وشدد قبضته على سروال أبيه ٠ رفع الطبيب رأسه ٠ شهد الجميع الحوار فى جزء مسح وجوههم ، لعن لآلىء فى أركان العيون تحت أشعة الشمس الذهبية ، أطبقت الجفون على مرارة ٠ أجساد هزيلة يستطيع عد أضلاعها بالنظر تحت الصديرى المخطط ، والجلباب الوسخ ٠

ـ توتيا ؟! تضعون جميعا التوتيا ؟

استغرق الضحى وهو يفحص أجساد الأطفال ، ويحاول أن يسمع أوجاع الفلاحين ٠ ترددوا ، راوغوه ، أخبروه أنهم أصحاء لا يشكون الا من وجع الراس ٠ دخل طه الحقل ٠ انتعش الكل لرؤيته ، علت الوجوه بشاشة واختفت حالة الترقب ٠ اشترك معه فى سؤالهم ، وقليلا قليلا خف الشك ، وزحفت على استحياء طمأنينة باهتة ٠ عادا سويا الى الدوار مشيا على الأقدام ، ولكزا الخيل لترجع الى الاسطبل ٠ أذعن حصان طه ، وركض عائدا ، وأبى حصان عبد الحكيم ، ولم يتزحزح بعيدا عن صاحبه ، ومشى بخطوات وئيدة خلفه ٠ قال طه :

ـ لا تبتئس ٠٠ سيتعودون عليك ٠٠ هم فى حاجة الى ثقة ٠

رد وعيناه تسرحان فى الأفق : أعرف المسافة التى تفصلنا ، لكن الطبيب فى النهاية يداوى الألم ٠٠ أتذكر الدكتور جرجس ، رحمة الله عليه ، وكيف كان وجوده بيننا أملا ومحبة تصل الى التقديس احيانا ، حتى تمنينا جميعا فى طفولتنا أن نعمل بالطب مثله ٠٠ والدكتور موافى وغيرهما ٠٠

ـ أنت لم تعش الحرب معنا ·· كان الانجليز يسوقون الفلاحين الذين يرفضون التطوع فى الجيش فى طابور ، مربوطين بحبال الى الأطباء للكشف عليهم ، ثم جلدهم حتى يختموا فوق طلبات الالتحاق · ويضعونهم فى طابور مع المرضى الاخرين ، وطبعا ، تختلط الصفوف ، ويجلد فى النهاية كل الموجودين بالصدفة ·· حتى خاف الفلاحون من الذهاب الى المستوصفات ·

ابتلع ريقه كأنه تذكر شيئا : عندك أبو مندور ·· اسأله ، وانت تعرف كل الحقيقة · اخذوه اثناء الكشف ، وصوتت زوجته ، واقسمت ألف يمين أنه جاء للعلاج · ووجد نفسه تحت السياط يوقع الاقرار ، وحمل الى معسكر ، ومنه الى قطار يصب فى الصحراء · عاد بعد الحرب هزيلا ممصوصا كعود قصب ، فاقدا ذراعه اليسرى وعينه اليمنى ، يحكي للناس بمرارة ـ ما رأيتها فى حياتي ـ قصة الحرب (المهزلة) كلها :

ـ كل حرب مهزلة ·

توقف عبد الحكيم · تامل أخاه ، اكتفى بالنظر الى عينيه التى طالما كانتا تربكانه عندما يركزهما عليه اثناء الحديث ، وترك لمشاعره أن تصل دون كلام · احاطه بذراعه ، ثم اكمل السير معه ، وخطوات الحصان تطرقع فوق الأرض الترابية بانتظام · لاحت أحجار الدوار من بعيد · اكمل :

ـ مازلت اتحسس واقع الحال ·· اريد أن أساعدهم قدر استطاعتى قبل ان استلم عملى فى العاصمة · مارى تفضل المدن، لأنها تريد ان تعمل بالتدريس ·

تذكر عبد الحكيم هذه القصة ، وهو يمر بين عيدان الذرة مفسحا لنفسه طريقا · همدت الثورة الآن · كان فى حاجة الى

اعادة تقييم لكل ما رأى طوال حياته ، وأيضا لاعــادة بناء المعتقدات . لم تفرق الطبيعة كثيرا بينه وبين الأوراق الطويلة المفلطحة التى يبعدها عن سكته . كانت تبدو من بعيد ناعمــة وطرية ، لكنها ـ حين تفقد الانتباه ـ تجرح بحدة موس قاطع ، تتسلل لتشق دون أن تصدر حتى صوت خشخشة . ولهــا بطن يعلوه زغب كيمامة تبعد قشرة بيضتها عن رأسه الصغير ، لكنه زغب جارح .. فرق وجوه الذرة الملثمة عن جسمـــه : « كم تشبهون زارعيكم .. ألف ورقة لابد من ازاحتها حتى نصل الى القلب الطرى .. حماية طبيعية ؟ أم حماية اكتسبها الفلاح خلال قرون من الظلم ؟! » .

وصل الى الشارع ، وعبره الى سبيل الماء بجوار النهر ، حيث مجلسه والأطفال فى انتظاره . وزع عليهم قطع السكـر النبات ، وتحسس عيونهم ، وأبدانهم ، ثم عاد ماشيا نحو دار عبد الموجود أبو صابرة ، والأطفال من ورائه ، يشعـر بدبيبهم وحنجلتهم خلفه . كانوا يتبعونه أينما ذهب ، دون أن يرضخوا لرغبته فى ابتعادهم بعد أن ينتهى من فحصهم وعــلاجهم . انتظروه خلف أبواب الدور ، ونقلوا للقرية أنفاســه ، .لكنهم غسلوا عيونهم بالماء المغلى الذى ذاب فيه فص ملح !!

لاحظت أم طه اعتكاف ابنها فى مكتبة بالدور الثانى بمجرد عودته من جولته ، والكشف على مرضاه الفلاحين . أخبرتها فطوم ، المسئولة عن خدمة الدور الذى يقطنه ، أنه لا يشعر بهــا حين تدخل عليه لتقلب حطب المدفأة ، أو تغير فنجان القهوة . فى البداية ، أرجعت رغبته فى العزلة بعيدا عن الأصدقاء الى احتياجه للراحة بعد طول عناء فى المستشفى . لكنها شعـرت بصعوبة الاقتراب منه . عاد لها من العاصمة أكثر اغترابــا وعزلة مما عاد به من سنوات الدراسة فى أوروبا . تحسست

طريقها نحوه عن بعد ، لم يكن ذلك الشاب الذى يرتدى أحـــدث خطوط الموضة ، ويحرص على انتقاء احتياجاته بنعومة · ازداد نحولا ، وانكماشا وزهدا فى روبه الصوف الذى يغطى قمصانه الحريرية ، وعرفت من مارى أنها حين تطل برأسها من البـــاب الموارب تجده غارقا فى أفكاره ، لا يقرأ ، يدخن غليونا لا ينقطع اشتعاله ليلا أو نهارا ، ويكتفى بهزة من رأسه ، وظل ابتسامة · منعت الجميع من الضغط عليه · وقالت لهم :

ـ اتركوه · أعرف ابنى · لن يعود الينا الا فى الوقت الذى يختاره · ونحمد الله أن أيام القلق رحلت بلا عودة · كنا لا نعرف عنه خبرا ، وكادت مارى أن تذوى تحت محاولات الاتصال به فى المستشفى ·

اتركوه لنفسه ، وسيرتاح ·

ثم تمتمت فى انكسار : لابد أنك رأيت ما لم يزه انسان ·· يا ضنايا يابنى !!

لاحظت عديلة أنه الوحيد فى الأسرة الذى استقبل خبـــر افلاس برهوم ، زوج ،أخته حميـدة فى بورصة القطن ، بهدوء بينما وقع النبأ على أهل الدوار كصاعقة ، اذ لم تكف أرضـــه لسداد الدين ، وجاءت حميدة باكية شاكية الى أبيها ، بعد أن باعت مصاغها كله دون جدوى · واشتعلت المناقشات حاميـــة بين العائلة !

هل هى غلطة سعيد برهوم ؟ أم هو وضع السوق ؟!

فلما لم يصلوا الى نتيجة حاسمة ، سمعوا عبد الحكيم يتمتم بصوت خافت :

ـ رب ضارة نافعة !! هذه هى القشة التى قصمت ظهـــر البعير !!

ثم طلب من مارى أن تستعد للسفر معه الى العاصمة ، والانتقال الى الشقة التى أثثها فى روضة المنيل ٠

انتشر خبر استشهاد عبد الحكيم ٠

هاج الفلاحون أمام الدوّار ، وجوههم عابسة مستنكرة ، مازالت تحمل عرق العزق ، وبلل الرى وطينه ٠ دخلوا ميضـــة الجامع أفواجا يستعدون لصلاة الجنازة ٠ تبخترت سيـــارات فارهه ، وكاريتات مبطنة بالمخمل الأحمر والأزرق ، ووجوه سمينة فوق رقاب مفلطحة ، وأجساد أثقلها الترهل تظهر صورها فى الصحف التى لا يقرأها الفلاحون ، عمد ومشايخ ، ورجال دين ائمة وقساوسة ٠ انشقت الأرض عن أغراب ما زاروا القرية قبل هذه الساعة ٠ بذرت المنتهى بشباب يصرخ بالثأر والاستقلال ، اختلطوا بموجات من العسكر طوقت البلدة ٠ حملوا النعش وهم يستقبلون غزالة الغروب ، سمعوا حفيفـــا وجلت له قلوبهم ، يهيئهم لاستقبال حدث مهيب ٠ صمتوا مترقبين خاشعين ٠ عبروا بوابة الجامع الكبيرة ، ارتفع النعش محلقا فوق الرؤوس محددا لهم الطريق ٠ حاولوا أن يتعلقوا فى خشباته ، لكنه أبى ٠ طار خفيفا مراعيا قدرتهم على السير معه ٠ دخل الأزقة ، طرق أبواب الدور الواطئة ذات النوافذ الصغيرة ، والكوانين الصغيـــرة ٠ خرجت له النساء متشحات بالسواد يشلشلن بطـــرح من نسيج شفاف ، ودعنه واستحلفنه :

ـ السلام أمانة ٠٠ يا اخوى ٠

ورددت كل منهن أسماء موتاها ، واستعطفته أن يطمئنهم على الأهل والأحبة ٠ ركض وراءه الأطفال الذين ما عادت عيونهم متورمة ٠ وحين هجم الظلام فى موجات ، لم يبال أحد باقلاق ملائكة الموت ٠ وللمرة الأولى فى تاريخ القرية ، لم يخش الترى من

فتح مقبرة وسط نهار الفوانيس ، ولم يهرع الفلاحون للمساعدة في اعدادها · كانوا فى داخلهم يؤمنون أن كل ما يخص عبد الحكيم قد أعد سلفا من قبل قوة لا يعرفونها · سرح الليل فوق الحقول ، وسكنها · اقتربت الجموع من المقابر ، لكن أجنحة النعش ما توقفت عن الخفقان · رفض أن يحط فوقها · تدخل العسكر الذين كانوا يترقبون المسيرة من بعيد ، أمسكوا به ، حاولوا انزاله من عليائه دون جدوى ، تعبوا ، خافوا من غضب الناس الذين تحولت همهماتهم الى زئير يرتفع ، تركوه الى طريقه · عاد الى الطيران أكثر خفة ، وهرول المعزون خلفه ، تم رفعوا أياديهم فما طللوه ، حتى وصل الى « أرضه المختارة » ووقف محلقا منتظرا حتى اجتمع الشمل ، ووصل الأطفال ، وعيونهم تلمع نظراتها للمرة الأولى · انفتحت الأرض عن سرداب من نور غشى الأبصار ، فلم يقوى واحد من القرية أو خارجها أن يفتح جفنيه · ترجل عبد الحكيم — والعيون تنفتح دهشة عن آخرها — ودخله ماشيا على قدميه حتى اختفت خطواته ، وخف دبيبها وتلاشى · فردت الأرض ما طوته لتنفتح وعادت الى استقامتها ناعمة ، كأنها ما ضمت بطلا منذ قليل !!

قال العمدة : شيدوا مقاما للشهيد ·

قامت القرية تمضغ المعجزة ، وأقسمت النساء أن توقدن له الشموع طوال حياتهن · ظهر النهار ، ولم يختف العسكر · قال أبو كحيلة لجيرانه ان عبد الحكيم حي يرزق ، وقد أعلنت أسرته عن موته بهذه الطريقة كي تضلل الانجليز الذين طوقوا الناحية بحثا عنه ، وضيقوا عليه الخناق ، وأنهم — بذلك — أنقذوه من اعدام محقق ، وانه مختف عند أقارب أمه ، وسيعود فى وقت لاحق متنكرا ، وربما يذهب الى السودان الى أن تهدأ الأمور · واقسم انه رآه بالأمس عند سبيل المتولى يغسل عيون

الأطفال بالبوريك ، وأنه أوصاهم أن يضعوا الملح فى المـــاء ، ويطهرونها قبل النوم ، وأن ابنه أحضر معه قطعة صابون نابلسى أعطاها له الحكيم بنفسه ·

استمرت أعمال التفتيش فى المنتهى ، والفلاحون متجمعون عند حوض رميح يصيفون قطن العمدة ، ويترقبون النتائج فى حذر · وشوش راضى منصور أن عبد الحكيم طلب من والده نقودا ليرحل مع زوجته الى بلدها ، ويلحق بأخيه حيدر ، لكنه رفض فانتحر · رد منصور بصوت سمعه الجميع :

ـ كيف يا رجل ينتحر ، وهو يصلى ويعرف الله ، ويحارب الانجليز ·· والدنيا مقلوبة فى الدوار ؟

ـ أصحاب يا عمى ·· يا داخل بين البصلة وقشرتها !!

ـ ألم تر المعجزة بنفسك ؟! النور الذى ملأ البلد كلها ؟!

بعد أيام ، شوهد عبد الحكيم يتجول فوق حصانه بجوار النهر · حكت أم رخية الخبر ، وهى تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم · وقالت انها تطلع الى عشتها فوق السطح فى الغروب تمسق للفراخ ، وتبيت البط ، وتراه قادما من ناحية الشرق ، ثم يختفى ناحية المقـــام ·

النساء وحدهن لم يستطعن تصديق أن عبد الحكيم عـلى قيد الحياة · قالوا لرخية : الروح لا تهدا حتى تأخذ بثارها · كن يشاهدن أمه ذاهبة الى المقبرة فى الصباح المبكر ، قبل أن ترسل الشمس ومضات حضورها أثناء استحمامهن فى النهر ، مثل خيال الظل ، ملفوفة فى سواد الليل ، تمشى أمينة أمامها حاملة فانوس الكيروسين ، وخلفهـا وديدة ونعمـة وحميـدة · قررن سؤال أمينة عن الحقيقة · قالت بغضب ·

ـ يا ناس حرام عليكم ٠٠ هذا نصيب ٠ الله لا يحرق قلب أم أبدا !!

التزمن الصمت ٠ خرجن من عندها متسللات نادمات ٠ وفى الصباح ، حكت لهن نفيسة كيف صام الحصان الى أن همدت جثته ٠ لكن انفجار القطار ، وهو يحمل بالات الغزل على طريق المحلة ، أعاد للجميع صورة عبد الحكيم ٠

قال راضى : رأيته بنفسى يضع المتفجرات فوق القضبان ، فتواريت وراء شجرة حتى تأكدت أنه هو عبد الحكيم بنفسه ٠ أردت أن أقول له تعال ٠٠ طمئن امك وأخوتك ، لكنى خشيت أن أعطله عن عمله أو يكشفنا العساكر ٠

وقالت أم الخير للنساء فى سوق الأربعاء ، وهى تقلب الطيور ، وتجس البيض داخل أحشائها ، وتفاصلهن على أسعارها ٠

ـ سافرت لأنها أجنبية ، ولا تقبل أن يقتل زوجها ابناء جنسها !

وحين أوضحت ستيتة أنها من بلد آخر ، غير بلاد الانجليز ٠

قلن فى نفس واحد : كلهم كفرة ٠٠ ولو كان فيها خير ، ما كان رماها الطير ٠

وتسألن في مكر :

ـ رجال بلادها خلصوا من الدنيا ؟! ناشفة ومقددة وجلد على عظم !!

- ١٠ -

تحلقت العاملات حول طبالى العجين يقرصنه ، وانشغلت ستيتة بالفرن تنظفه ، وترص الجلة ، وأغصان القطن حتى خرج الدخان الأسود يبدد رطوبة ما قبل الفجر ، وأم طه تستعجلهن الانتهاء بسرعة قبل أن ينكشف النهار · توهجت النار ، وحميت الشاروقة ، وبددت السكون ضربات متلاحقة تفرد العجين فوق المطارح · دبت العافية فى صاحبة الدار المهدودة الحيل · انشغلت بتفاصيل كثيرة لم تعتد الاهتمام بها قبلا ، دارت حول أقفاص الفاكهة تحصيها ، رغم أنها اختارتها من بين ما دخل الدوار بالأمس · كشفت الغطاء عن سبت قرص الرحمة ، واطمأنت الى نضجها وخميرتها ، وكانت قد رتبتها بعد انتهاء العشاء · وقفت أمام الكانون تتابع بقبقة الماء فوق البيض الذى يغلى فى قدر كبير ، لتتأكد من أن الماء يغطيه جيدا · التفتت ناحية ستيتة وهى تحدث العاملات :

ـ أريحى الرغيف · نطقيه فوق المطرحة ·· القفى منهـا يا معتمدة ··

دخل أبو شعيشع يجر حمارا يحمل غلقا كبيرا من الورد البلدى ، مازال مبللا بالندى · وقف عند باب الحوش وصاح :

ـ يا ستيتة · وصل الورد ·

قفزت أم طه من مكانها أمام الكانون متخطية الخبازات ··

ـ أدخل ·· هاته هنا ··

استحى الرجل من الدخول الى وسط الدار ، وتردد فى عبور العتبة ·

هتفت قبل أن تصل اليه :

ـ قلت لك ادخل · لا يوجد غريب ·· ناولنى بسرعة · دفع الحمار الذى جذبه الضوء نحو الداخل · مدت يدها الى الورد · أبعدها برفق :

ـ لا ·· ثقيل عليك يا سيدتى · أنا أحططه ·

ـ اقلبه فوق المصطبة ·· الوقت ضيق ·

لم تنتظر اتمام العمل · وقفت فى قلب الحوش ، وتطلعت نحو درابزين الطابق الأول ، وهى تزعق :

ـ يا بنات ·· يا نعمة ، يا حميدة ، يا فطوم ·· انزلن بسرعة · ماذا تفعلن حتى الآن ؟

ظهرت حميدة بجوار السور :

ـ حاضر يا نينا ·· حالا ·

ردت ، وهى تأكل نصف الكلمات أثناء سيرها ناحية المصطبة :

ـ على ·· يكون السوق خلص ·

ركضت بناتها وبنات اخوتها ، وحملن الورد ، ثم هدأن فجأة اثر نظرة صارمة صامتة من وديدة · ضفرنه وسط سعف النخل الصغير حتى تكومت أطواق الزهور ، وانتشرت رائحتها ، واختلطت برائحة الخبيز الذى يتقافز فوق الصاجة الملتهبة وينتفخ ··

مرت بين العاملات ، تتأكد من تبطيط الأرغفة ، وتسويتها ، على غير عادتها فى الجلوس على المصطبة المجاورة للباب الخارجي للمطبخ ، والاشراف واصدار الأوامر ، دون أن تتحرك · تعجبت آمنة وستيتة ونفيسة وهن يلاحظن هذا التغيير ، دون أن تبوح أى منهن لصاحبتها بهواجسها · كانت تعتمد فى الحركة على وديدة ، ومن قبل زواج طه على بنتيها حميدة ونعمة ، وتكتفى باشارات من يدها ، وكلمات قليلة أثناء توزيع العمل الصباحى ، تماما كما علمتها حماتها أم عبد القادر · وصلت الى غرفة العيش : كانت وديدة تنقل الخبز الذى برد فوق العربال الى قاع السبت ، وأمينة ترص البيض فى قدر صغير · وجهت حديثها اليها :

ـ تأكدا أن كل شيء بالمفرد · لا تجوزا صنفا حتى العيش والقرص · أنت المسئولة امامى · تعرفين ·· اى غلطة ثمنها غال ، وكفى ·

رفعت امينة يدها بالقدر ، ووضعته فوق أوراق البرسيم التى غطت بها وديدة الخبز ، وردت قائلة :

ـ يعوض الله عليك فى اخوته ، ولا يحرق قلبك مرة ثانية

ردت الموجودات فى نفس واحد :

ـ آمين ·· يا رب ·

تعالت الضربات فوق المطارح بهمة تخفى الحزن · طططا · طك ططا · طك · ططا · طك · دخلت قمر راكضة :

ـ أريد أن أذهب الى الترب ·

ـ اشغلى ساعدى أمك وعماتك ·

لم تتزحزح الصغيرة · حايلت جدتها ، وهى تطوف رقبتها بساعديها الرفيعين :

ـ صاحباتى يذهبن ، والنبى يا ستى ٠

ـ امشى يا بنت ٠ لا ينقصنى الاك !!

نظرت وديدة جسمها حتى وقفت بصعوبة تتمايل ، وسحبت ابنتها من يدها ، وهى تهمس :

ـ يسترك ربنا ٠ اتركى النهار يمر على خير ٠

أحكمت أم طه لف طرحتها حول وجهها ، وأمرت الركب أن يتحرك قبلها ٠ حملت كل خادمة سبتا ، وسبقنها الى المقابر لتزور عبد الحكيم ، وهى تصيح فيهن :

ـ الفجر ٠٠ الفجر ٠٠ شهلن قبل أن يشق السماء ٠

انتظرت عديلة حتى تأكدت أنهن غبن ما يكفى لكى تتسلل نساء الدوار ، مستترات قبل أن تهل نسمات فجر شم النسيم ، ويقابلهن الرجال فى طريقهن الى الجامع ، وحتى ينتهين من الزيارة ، قبل أن تخرج البلدة بكاملها فى القوارب المشرعة المزينة بالأعلام والورد ٠ ولم تجد بأسا من أن يقرأ شيوخ القرية سور القرآن الكريم لتهبها لعبد الحكيم على أمل أن يغفر الله لابنها انتحاره ، وأن يفتح لروحه أبواب الجنة ونعيمها ٠ وتسأل الشيوخ ، متوسلة أن يجيبها أحدهم اجابة تشفع لابنها ، وتبرد قلبها ، اجابة ضد كل ما آمنت به طوال حياتها ، ويتردد فى صدرها أن المنتحر قتل النفس التى حرم الله قتلها ، وأنه يتلظى فوق حطب جهنم ٠ وتحير كل من تسأله ، فيتهرب طالبا منها أن تزيد من الدعاء والصلاة ، فتسأله :

ـ هل أذهب اليه كل يوم ، أو أرسل الى قبره شيخا ؟

وكان زوجها يبدأ صباحه معها ، اذا رآها تستعد للطلعة فى الفجر ، قائلا :

ـ القرآن يصل لصاحبه فى الضلال يا عديلة · الله يصبر قلبك · اقرئى هنا ·· ابنك شهيد يا أم طه ·· والشهداء لا يدخلون النار · سيدنا عمر قدم الحاجة على النص ·· قدم الضرورة على كلام ربنا ·· فى المجاعة لم يقطع يد السارق ، وابنك حمى البلد كلها · خاف أن يبهدلها الانجليز ، كما فعلوا فى غيرها ، ويبهدلونا فى طوله !!

تفيض دموعها ، وينتفخ أنفها ، ووجنتاها ، وهى تردد بصوت خاشع ، ضارعة الى الله :

ـ سلامتك من النار يا بنى ·· يا زهر الفل ·· يا عود الياسمين ·· يا ورد مفتح ·

وتجهش ببكاء حار · مع الوقت تراجعت زياراتها الا فى المواسم · والأعياد ·

عادت القافلة الحزينة الى البيت قبل أن تبدأ حركة الافطار· وكانت العاملات مازلن يلملمن بقايا الخبيز ، ويدحرجن الطبالى الى مكانها ، بعد أن مسحنها من الردة والطحين · دخلت أم طه الى غرفتها فى الطابق الأرضى لتنام ، بعد أن هدها البكاء ، وأكل العافية التى اكتسبتها فى الفجر ، وهى تتوهم أنها ذاهبة لملاقاة ابنها · عادت وقد تأكدت أن الفراق قد ختم قلبها بالألم مدى الحياة · واعتزلت الحركة طوال نهارها ، فلم تدر أن رشدى قد وصل ، وأن زوجته نزيهة ظهر حملها ، وأنها توشك أن تهبها حفيدا جديدا ، وأن ابتعادها عن العائلة أعطى فرصة للرجال أن يرسلن بعض الفول السودانى والملانة الى النساء فى الداخل ، وأعطى فرصة للأطفال الذين جمعوا قراطيس الترمس والحلبة المنبتة أن ياكلوها مع أمهاتهم · وتعالت الضحكات والقفشات فى الطابق الأول ، وهم يسمعون حكايات نزيهة عن دمياط ،

والدنيا التى رأتها ، وعادات الموانىء الغريبة · وأخبرتهن أن نساء دمياط يحتفظن سرا بطريقة عمل وجبات خاصة يطعمن بها الفتيات فى سن التاسعة حتى ينضجن بسرعـــة ، وأقسمت أن بناتهن فائرات ، ولهن أثداء حقيقية ، ويأتيهن الطمث ، ويبلغن مبلغ النساء بسرعة لم تشهدها فى حياتها قط · وقالت أنهـــا حاولت أن تعرف هذه الوصفة ، لكنهن يتهربن منها ، وقد وعدتها احدى صديقاتها اذا ما ولدت بنتا ان تصنعها أمامهـــا ، بشرط الاحتفاظ بهذا السر ، وعدم نقله لأى مخلوق ·

انفض الناس عن مجلس العمدة ، ودخل رشدى مع أبيه الى البيت · سأل عن أمه فأخبرته وديدة أنها اعتصمت اليوم بطوله فى غرفتها ، وأنها أدخلت لها صينية العشاء منذ قليل ، اذ رفضت مشاركتهن الطعام رغم توسلاتها ، وتوسلات نزيهة ، وأنهما فرتا بعد أن طردتهما شر طردة ، وظهر جدها التركى · وتوسلت اليه أن يحاول اعادتها الى زوجها ، والى ممارسة حياتهـــا بعد أن تعبوا جميعا معها ·

صاح رشدى خارج الغرفة مناديا :

– يا أمى ·· أريد أن أسلم عليك ·

سمحت له بالدخول ، واستقبلته باكية ، واتهمته بأنها هانت عليه ، وطالبته بالعودة الى المنتهى ، والعمل فى منطقة قريبة · لم يحدثها فى شىء فى تلك الليلة ، لكنه دخل اليها فى المســاء التالى · وعندما كانت مشغولة بتجهيز العشاء ، أغلق الحجرة التى كان مفتاحها مدلى من مسمار على الحـــائط ، ثم جـلس بجوارها على المصطبة ، وقال لها :

– لى كلمتان معك · صبر ابى عليك مافيه الكفاية · أمامك

حلان اما الصعود الى فوق ، أو البقاء هنا فى الحوش طـوال الليل ٠

فوجئت أم طه ٠ ألجمها التصميم الذى ظهر على وجهه ٠ قالت والدموع تغمر وجهها :

ـ لا تكن قاسيا !!

لم تكن تريد أن تقول ذلك ٠ كانت تريد أن تنهره ، وأن تطلب منه عدم التدخل فى شئونها ، لكنها لم تستطع ٠ قالت له فحسب « لا تكن قاسيا » وهو يستدير صاعدا الدرج ، دون كلمة واحدة ٠

لاحظت وديدة أن شيئا ما يجرى ٠ أمرت الجميع بالمهمـة والانتهاء من الطعام ، ثم أشارت لهن بالصمت وعدم التعليق حتى انصرفن ، واغلقت الأبواب ، وحماتها مازالت صامتة جالسة ، وقد جفت عبراتها ٠ فى طريقها للصعود ، مالت عليها وديدة وقبلت يدها قائلة :

ـ الله يساعدك يا نينا ٠ لا مفر ٠

ثم مضت دون أن تلتفت وراءها ٠

خمدت الحركة ، وتباعدت الأصوات الا من ضجيج مازالت تبثه شقة طه ٠ نظرت عديلة الى أعلى ، رأت خيالات تحمـل الشرارات تمر بجوار الدرابزين ، فأدركت أن اسـتعدادات النـوم مازالت قائمة ٠ عكس الفانوس المعلق على باب السوباط اضواء وخطوطا افترشت أرض الحوش الذى تسقفه السماء ، ومازالت نجمات كثيرة لم تظهر بعد ٠ دائرة أخرى أضاءتها اللمبة المعلقة فوق الجدار ، ربعت رجليها فوق المصطبة أمام باب المطبخ ٠ انصتت الى صوت قطرات الماء الصغيرة وهى ترشح من الزير كل فترة اثناء اصطدامها بالاناء ٠ قلبت نظراتهـا تستطلع أحجـار

الدار ، والأبواب الكثيرة التى لم تلحظ عددها من قبل · تشاغلت تحصيها : الباب الخارجى الكبير ، باب الفيللا ، وباب الشكمة ، الرواق يفتح على ساحة لها بابان أحدهما للزريبة والآخر لحوش الدار ، وباب السلم ، ثم باب للسلم فى كل طابق ، وباب لكل « مقعد » يطل على السوباط ، وباب للشقة الصغيرة ، وباب للشقة الكبيرة فوق الشكمة ، وباب للحمام !!

تراخت أعصابها كأنها اكتشفت ما يصدمها · وقعت عيناها على باب المطبخ ، فسرت فى رأسها صورة أبواب وأروقة تهرب أمامها : باب غرفة اللبن ، باب غرفة العيش ، باب ساحة الفرن ، باب وباب ·· كلها أبواب مسدودة ، الى أن وجدت نفسها أمام باب غرفة نومها فى الحوش · لم تكن تستعملها من قبل الا وقت القيلولة ، بعد أن تشرف على ارسال طعام الأنفار فى الحقول ، وغداء أهل البيت · استكانت الكائنات ، فلم تعد تسمع غير صوت رفيع حاد لصرصور الغيط · أغمضت الشرارات عيونها واحدة بعد واحدة ، ولم يعد أمامها غير باب الحجرة المغلق · تذكرت حماتها أم عبد القادر ، وكيف كانت تحملها الى سريرها بعد أن تنام أولا فى حضنها · كانت فى العاشرة عندما زوجوها من عبد القادر الذى يكبرها بسنين · قالوا لها ضاحكين :

ــ ستتزوجين العمدة !!

ظنت أنها ستتزوج الشيخ تمام · خافت وبكت :

ــ لا أريد أن أفارق دوار ستى ، ولا أحب هذا العجوز ·· أريد أن أعود الى بيت أبى فى العباسية ·

طمأنتها جدتها ، واحتضنتها :

ــ فراقك على عينى · وهذا مصير كل بنت · كتبوا الأرض

لعبد القادر حفيد الشيخ تمام ، حتى يستلم مكان جده فى المستقبل · وهو شاب جميل خيال ، ويرقص بالعصى ، ويتعلم وسيلتحق بالازهر ·

بكت ليلة زفافها ، عندما عرفت أنها لن تذهب الى بيت جدتها قبل سنة · شرحوا لها التقاليد ، فلم تفهم · قالوا لها ان عليها أن تأتى لهم عندما تنجب طفلها الأول ، وليس قبل ذلك أبدا · توسلت اليهم أن تأتى فى العصر كل يوم تلعب مع صديقاتها فى حوش الدار ، كما اعتادت · قالوا لها انها ستنشغل بأشياء كثيرة فى دوارها الجديد · وعرفت جدتها أن سنوات ثلاث ستمر ، وربما اكثر ، قبل أن تطأ عديلة عتبة الدار ، اذ كانت لم تبلغ بعد مبلغ النساء · وصلت الى الدوار فوق الهودج ، وحضر أبوها من القاهرة بصحبة أمها واخواتها · واستمرت الأفراح أربعين يوما وليلة ، وقد سمحت لها حماتها باللعب أمام النهر فى حديقة العنب ـ اذ لم يكن هذا الدوار قد بنى بعد ـ مع البنات، بشرط أن تعود قبل أن يرجع زوجها الذى يصاحب جده فى المجلس فى الشكمة ، ويلعب السيجا مع اقرانه فى أوقات أخرى · تذكرت خوفها من النوم وحيدة فى غرفتها ، وتسللها الى سرير حماتها التى عطفت عليها · وحلت بسرعة محل أمها وجدتها التى عادت الى القاهرة ·

لم تكن عديلة من بنات القرية · كانت ابنة لأحد ضباط الجيش ، تعيش مع أسرتها فى سراى كبيرة فى العباسية حتى بلغت التاسعة · وفى احدى زيارات الأسرة لجدتها لأمها فى المنتهى ، طلبت الجدة من ابنتها أن تترك لها عديلة لتؤانسها ، خاصة وان أبنها لم يرزق ببنت واحدة · وافقت الأم ، وعاشت الطفلة فى كنف جدتها وخالها سنة حتى اختارها العمدة لتكون زوجة لحفيده · احتفظت عديلة بكثير من العادات القاهرية ،

وتقاليد أسرة أبيها ، رغم أنها ربيبة القرية ـ بحكم زواجهـا المبكر فيها ـ وظلت على تمسكها بها ، حنينا للماضى الذى لم تعرف منه الا شذرات الطفولة الأولى • وكانت فى داخلها ترى من حولها فلاحين أقل شأنا ، رغم أنها لم تعلن ذلك أبدا ، وهـو ما دعاها للاشراف بنفسها على تعليم بنتيها على الطريقة التركية، فأرسلتهن ليتعلمن فى مدارس داخلية فى القاهرة لفترة ، ثم جلبت المعلمين لهن فى الدوار • وكانت شروطها أن تعرف البنت كيف تدير بيتا كبيرا ، وكيف تجيد الرسم ، والعزف على البيانو ، وأن تجيد صناعة ملابسها ، وطعامها ، والأهم أن تتعامل مـع نظافتها الشخصية ، وكيف تصبح امرأة • أما أبناؤها الذكور ، فقد أرسلتهم للتعلم فى أوروبـا ، باستثناء طـه الذى درس فى الأزهر ليصبح عمدة بعد أبيه ، ثم رشـدى الذى قـرر دخـول الحربية •

أفزعها مرور فأر كبير من تحت الباب ، قادمـا ـ كما تصورت ـ من غرفة العيش • دفعها الخوف للتفكير فى الصعود الى غرفة نومها • ترددت وهى تتصور معنى أن تعود لممارسـة الحياة العادية مرة أخرى :

ـ يا قلبى يا عبد الحكيم •

شهقت بصوت ضعيف متقطع : هل سأفرح بعدك يا بنى ؟ مستحيل •

نظرت الى ثيابها السوداء ، والصمت الذى يغلف الدنيا من حولها • تذكرت سهراتهم حول الجرامفون • لو ان مارى بقيت بيننا ؟ كنا حملناها فوق كفوف الراحة ؟ لكن زرع قطع يـدرى يا اخوى • حتى ابنتك حرمنا منها ، ولا أدرى ان كنت سأعيش لأراها مرة أخرى ؟

تردد فى جوانبها سؤال وديدة : الا يشعر الحاج عبد القادر بفقدان ابنه ؟! انه يعانى دون أن يجدك بجواره لتساندیه ٠ ماذنبه ؟ نعم ٠ ماذنبه ؟ لقد صبر ما فيه الكفاية ، وكان فى امكانه الزواج من أخرى ، ولم يفعل ؟!! شعرت أن رأسها ثقيل ، لكن شريط حياتها لم يتوقف عن التعاقب أمام عينيها ، حتى سمعت حركة وصوت فتح باب وخطوات زوجها الى الحمام ، ثم صوت طه ووديدة التى نزلت تفتح الأبواب الداخلية ٠ وجاءتها نحنحة الخفير وهو يفتح الباب الأوسط ، ثم باب غرفة القهوة لبشير ليعد قهوة الفجر ٠ وتوالت تمنيات الصباح بالخيـــر والرزق ، ونزل الرجال الى الصلاة ، وقبل الأبناء يدها ٠٠ ودبت الحركة فى المطبخ ، واشتعل الفرن ، ولم يلحظ أحد متى صعدت أم طه الى شقتها فى الطابق الأول الا بعد أن انتهى العمل ، وأرادت وديدة استشارتها فى عدد الطيور التى عليها ذبحها !!

الفصل الثالث

دارت النوارج فى الأجران تسحق السنابل والعيدان · فى الليل ، كنس الرعب من انفلات المهلة التى حددتها الهجانة فرح الحصاد · رتقوا الصبر بالصبر ، وغسلوا الأنين من وجـــع الأنين · مر أسبوع كامل ، ولم يستطع الفلاحون ضم نصف الأرض ، رغم أن نفرا واحدا لم يتخلف · تململ أصحاب الأراضى فى الجهة الأخرى البعيدة التى لم يصلوا اليها بعـــد ، كانوا يحلمون بأكوام الغلة المختومة بآيات القرآن ، وترددت فى نفوسهم أصوات ترتل تكييل القمح :

الأولة باسم الله ، والثانية رقوة محمد بن عبد الله ·· يا بركة الأربعة ، السبعة بالصلاة على النبى ، التسعة للنبى نسعى ·

تكشف للناس استحالة الانتهاء فى المهلة المحددة ، حاربوا الوقت ، ومـــا توقفوا عن حش سلوك الذهب المنتفخة بالقمح · فى منتصف الأسبوع الثانى ، تغيرت فرقة الهجـــانة ، ونقلت لتأديب قرية أخرى ، وجاء فريق جديد دخل المنتهى مستفــــزا ترابها ، ومعفرا فضاءها بما يثيره من صيحات وشتائم · اجتمع الفلاحون فى دوار الفحام عمدتهم الجديد ، وطلبوا منه أن يجــد حلا مع المأمور ، لكنهم خرجوا وقد تأكدوا أنـــه لا حـــلول من خارجهم ·

دخل الحاج مدبولى الى دوار طه المصيلحى ، وكان شيخا فى التسعين ، يمشى بمساعدة عصا ، لعرج خفيف فى قدمه ، وانتحى بطه جانبا بعيدا عن ضيوفه ، وهمس له :

ـ اذا جاءتك هانم ، وقالت لك أنها حامل ٠٠ فالمولود منى ياشيخ طه ٠٠ وأنا أحملك الأمانة ، اذا وافانى الأجل قبل أن تضع ٠

ـ ما هذا الكلام يا عم مدبولى ؟ أنت تعديت التسعين ؟!

ـ قلت لك وكفى ٠٠ اذا وافانى الأجل ٠٠ انت حاميها ٠٠ السلام عليكم !!

رحل الضيوف ، ودخل أبو عبد الله الى الحرملك ٠ كانت أمه قد أوت الى مخدعها فى الطابق الأول ، واختفى عبد الله فى الغرفة العلوية يذاكر ، وذهب حيدر الى الاسكندرية ليرى عروسه التى اختارها بعد طول عزوف عن الزواج ، ونام الأطفال القيلولة، واختفى أهل الدار وضيوفها كلهم يحتمون من الحر فى الغرف العلوية ، وعاد الخدم الى دورهم بعد انتهاء الشقاء الصباحى ، ولم يتبق فى الحوش الا وديدة التى جلست فى انتظار العمـدة ، وصبحية التى افترشت حصيرا صغيرا أمام غرفة العيش ٠

قامت وديدة عندما رأت زوجها تصيح :

ـ انهضى يا صبحية ٠ جهزى الغذاء لحضرة العمدة ٠

نظرت البنت جسدها الطرى الغض ، وقـــامت الى النار متوهجة الوجه من النوم ٠ جلس طه الى زوجته مشغول البال ٠ سألها فى صوت خفيض :

ـ وديدة · أتصدقين أن رجلا فى التسعين ينجب طفلا ؟!

ـ الشيخ مدبولى صحته عال ، ومازال واعيا · وهانم فائرة ، وجسمها يلقط الهواء !! صحيح ان الديدان ضعيفة لكن ·· اذا موجودة يوم وراء يوم ·· البنت تشبك معها !!

ـ حملنى الرجل أمانة ·

توقف · وانتبه لها · ثم سأل :

ـ لماذا راح ذهنك الى مدبولى ؟

ـ لأن هانم كانت عندى ، وأخبرتنى بحملها ، وقالت أنها خائفة من أولاد زوجها ألا يصدقوها ، اذا مات الرجل قبل أن تضع مولودها ·

صبت صبحية لمخدومها الماء من الابريق فوق الطستية ، ثم ناولته فوطة صغيرة بيضاء ، وانتقلت تصب لوديدة · قام العمدة وهو يسند ظهره بيده متحسسا جرحه القديم ، متذكرا الثور ، وجلس أمام الطبلية · قال ، وهو يمضغ الطعام ببطء :

ـ ما هى حكاية حيدر بالضبط ؟ هل نوى الزواج حقا ؟!

ـ آن الأوان يا أبا عبد الله ·· وكل شىء يختشى من أوانه !

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى قرر حيدر فيها الزواج · كان فى الثامنة عشر حين جهز لعودته الى باريس بعد أن كنس الزمن آثار الحرب ، وهدأت رياحها · وافق الحاج عبد القادر على تكملته لدراسته هناك بشرط الزواج من مصرية قبل السفر · وبضغوط شديدة من أم طه رشح له ابنة عمدة « مسيس » ، وصديق عمره عبد الموجود رباح · وذهب وفد نسائى من العائلة للزيارة مكون من أم طه ، وحميدة ، ونعمة · وعدن منشرحات الصدر

بالمقابلة الودودة ، مستبشرات بالخير ، بعد أن أدخلن حيدر لرؤية العروس المرشحة التى نالت اعجابهن بجمالها الهادىء الفريد ، وحديثها العذب ، وخجلها الذى لا حدود له ، مثل بنات الناس الطيبين على حد تعبير أم طه لابنها ، طوال طريق العودة ٠ كان حيدر فى هذا الوقت شابا يافعا متوقدا بالحيوية والصحة ٠ أخذ عن أبيه ملامحه الدقيقة ، وعن أمه اتساع العينين وزرقتهما ، وسواد شعرها الفاحم ٠ توسل الى والديه أن يؤجل الزواج بحجة عدم ترك عروسه أربع سنوات على الأقل حتى يكمل دراسته ، ثم وافق بعد أن وضعا العربة أمام الحصان ، وقررا اما الزواج أو الغاء السفر ٠

غرق الدوار فى دم الذبائح التى استمرت أياما ، مختلطة بطين الساحة الخارجية ، ولم تجففه الشمس الساطعة القوية ٠ واتسع الفرح ليشمل أعيان المنطقة كلها ، والقرى المجاورة ، اذ كان الحاج عبد القادر يزوج ولدا للمرة الأولى ٠ ورغم أن طه هو الابن الأكبر ، فقد سبقه عبد الحكيم بالزواج من مارى أثناء الحرب فى فرنسا ، والآن يسبقه حيدر ٠ وصلت من القاهرة فرقة الشيخ سلامة ، ومداحون من السيد البدوى ، وغواز من سنباط ، وراقصة من روض الفرج ٠ وقضى الجميع ليلة أنس حلفوا بها ، وزفوا العروس حتى جلست فى الكوشة ٠ رفع حيدر الطرحة كاشفا وجهها ، والدفوف تدوى والناس يغنون :

يا خاتم ذهب يا عريسنا   يا حاكم على المنتهى

فوجىء المدعوون بالعريس ينثره كرسيه من فوق العرش صارخا :

– هذه ليست عروسى ٠٠ هذه ليست عروسى !

ركض باحثا عن أمه ، وهو يصيح :

ـ يا أمى ٠٠ أمى !!

دخل عليها فى غرفة الطعام ، وسط نساء عائلة العروس ، والغضب يرمى بالحمم من بين فكيه ، والضيفات فى ذهـــول ٠ احتضنته أمه التى بوغتت بالموقف ، وحاولت تهدئته ، واذا به يصرخ مشيرا الى فتاة جميلة :

ـ هذه من قدمنها لى ٠٠ هل تذكرينها ؟!

احتارت الأم ٠ تمعنت النظر ٠٠ لم تصدق عينيها ، كانت هي بالفعل من أدخلتها لتقابلهم يوم أن راحوا يخطبون ابنة الحاج رباح ، وكانت أم طه قد اختصرت اجراءات كثيرة اعتادوا عليها قبل الزفاف بسبب سفر حيدر ٠٠ سحبته من يده ، واستحلفته ألا ينطق ، وألقت نظرة على العروس الغارقة فى خوف وحشى ، فعرفت على الفور ما حدث !!

لم تنفع توسلاتها اليه ٠٠ ليتم الزفاف :

ـ لعلها فتاة طيبة ســـمحة ٠

ـ أبـــدا ٠

ـ أرض بنصيبك ٠٠ الجمال لا يسعد أحدا ، ويصبح عاديا بمرور الوقت ٠

رد بعصبية : غشونى ٠٠ لا اتزوجها أبدا ٠

اجتمع به الحاج عبد القادر بعد أن وصله الخبر ، وأقسم له أنها خدعة النساء ، وأن والد الفتاة لا يعلم بما حدث ، وأن عليه أن يتحمل حتى لا ينفضح الرجل ٠ لكن حيدر تحول الى حصان جامح ، رفض أن يدجن الألم والخديعة ، وأكمل اجراءات السفر دون أن يدخل بالفتاة ، وهو يعيد كلمات عبد الحكيم : « لا تقفل جرحا على قيح !! » ٠

خرجت أم طه من عند ضيوفها ، وجمعت الخدم ، وقالت لهم :

ـ كلمة واحدة عما حدث ، لا تدخلن الدوار مرة أخرى ، لا عمل لكن عندى ٠

أجابت النساء والبنات ، وهن يرتجفن ويضحـــكن فى أعماقهن :

ـ على رقبتنا يا ستى !!

لكن الخبر انتشر كريشة مسحت سماء المنتهى ، وحطت فوق صوانى العشاء فى الدور الصغيرة اللبنية ، وضحك منها أصحاب الدواوير الكبيرة فى شماتة ، وان كانت ضحكاتهم غلفت بحزن لم يفصح أحد عن سببه !! وبقيت العروس بعد سفر حيـــدر ، وطلاقها رسميا ، سنة كاملة فى الدوار ، ثم عادت الى بيت أبيها حتى لا تتأكد الفضيحة التى عرفتها الناحية بأكملها ٠

تشاءمت أم طه من زواج الأبناء ٠ وتساءلت فى حـــيرة عما يحدث حولها ، رغم نقاء سريرتها ، وحبها للخير ، ولماذا يكون بخت أبنائها على هذا النحو الغريب ؟! لكنها مع الوقت نسيت كل ما جرى لها بعد أن تزوج طه من وديدة ، فقد أحبت زوجة الابن المطيعة التى ما عارضتها أبدا ، وكانت تشعر بالامتنان لـعمة على اختيارها لها ، حتى أنها برأتها ، من تهمة استقلال طه ، وعمله بالتجارة ، ورغبته فى زراعة الأرض بنفسه ، وكانت تردد فى نفسها أن طه منذ ولد يريد أن يصبح فلاحا ، وأنه كـان عزوفا منذ صباه عن مجلس العمدية ، وعن اللهو مع اخوته ، والسمر مع الأصدقاء ، وكان يرفض زيارة أخواله فى مصر ، ويرفض طبيعة حياتهم ٠ لم تفهم عديلة لماذا تزمجر بنات وديدة قمر وكوثر ونازلى ، ويرفضن النظام الذى عاشت العائلة تمارسه

طوال السنوات الماضية ، ونفذته وديدة دون شكوى أو ملل ٠ ذكرنها ببنتيها نعمة وحميدة فى صباهما ، وحلا لها أن تتأملهن وتتبع كيف تنمو كل منهن الى شابة قوية الشخصية مثل عماتهن ، وأسعدها سرا أنهن لم يرثن خضوع وديدة ، لكنها اذا أرادت تنفيذ أمر ما ، ووقفن أمام رغبتها ، لعنتهن حتى جدهن الأكبر الحاج المصيلحى نفسه ، ولعنت اليوم الذى تزوجت فيه ، ولم تكمل العاشرة من عمرها فى عائلة من الفلاحين الأجلاف الجهلة !!!

أدارت أم طه الدوار ادارة حازمة تبدو من الخارج عادلة ، ومنظمة ، لكنها ـ لمن يتأملها بعمق ـ تستند على فكرة تقسيم داخلي ٠ اذ كان دوار العمدة الخارجي ، وما يحدث فيه ، يمشى بنظام خاص ٠ أما الحرملك ، فهو مقسم الى طبقات : الدور الأرضى فى ناحية ، والدور الأول ، والثانى فى ناحية أخرى ٠ وجدت وديدة نفسها تنتمى بمرور الوقت الى أسفل السلم لا أعلاه ، رغم جاه أبيها ، وهيبة عائلتها الرفيعة وسط عائلات الناحية ٠ دخلت دوامة التفرقة الغير مبررة ، لكنها لم تشك حتى الى طه نفسه الذى لاحظ كيف تعيش زوجته حياتها تقريبا وسط العمال ٠ فلما حادث أمه ، ولم يجد استجابة ، قرر أن يجلب الى البيت ما تحتاجه من تموين ،وأن يدخله الى شقتها الصغيرة فى الجناح الذى تعيش فيه فى القصر ، متعللا بحاجة الأبناء ليلا لتفاصيل قد تزعج أمه ، أملا أن تتمتع وديدة ببعض الحرية فى شئونها ، وشئون أطفالها ٠ لكن وديدة عاشت وسط العائلة كما أرادت حماتها ، ولم ترسخ للانقسام ٠

اكتشفت البنات هذا الظلم فلم يرضخن ، خاصة وهن يشاهدن زوجات أعمامهن يأتين فى بهرجة ، ويصعدن الى فوق ، ولا يشاهدن فى وسط الدار أو عند المطابخ والكوانين أبدا ، حتى من باب الفضول ، ولا يشاركن فى ادارة أعمال الدوار ، والاشراف

على الخدم ، مهما كانت ظروف المبيت أو الأحداث التى يمر بها ، وان كثر عدد ضيوف العمدة وزواره ، وينتظرن أن يدعين الى الغذاء مثل أى ضيف · حاولن تحريض وديدة ، لكنها تمسكت بموقفها وأخبرتهن أن كل ما يشكين منه هو مظاهر فارغة ، فهى التى تحضر كل شىء بيديها ، وهى التى تمتلكه ، لأن زوجها هو الذى ينفق المال ·

فلما اشتدت أزمة الطعام فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأصبح من العسير الحصول على القمح الذى يكفى الدوار بضيوفه ، واضطر الفلاحون الى طحن الذرة الصفراء التى كانوا يقدمونها من قبل الى المواشى وعجنوا منها خبزهم ، واضطرت أم طه الى صنع خبز العمال بنفس الطريقة ، ذاقته البنات من باب الفضول أثناء الخبيز ليتعرفن على طعمه ، وقلن ضاحكات :

ـ له رائحة النوفل الذى ينمو مع البرسيم !!

فى الغداء ، قدمته عديلة الى وديدة وبناتها ، وهى مطمئنة الى قبول أم عبد الله للأمر الواقع · فاجأتها ثورة البنات ، قلن لها

ـ هذا تقدمينه للخدم ، وللبهائم ، ولنا أب ينفق علينا · نحن لسنا عبيدك ، تسخريننا فى العمل ليل نهار ، ثم ترمى لنا بالفتات آخر النهار !!

ـ يا بنات ·· هذا ستر للبيت · نتحمل نحن ، ويبقى الدوار على حاله فى عز ، والحرب أعلنت عن نهايتها ·

ـ هذا كلام · اذا كان سيطبق على العائلة كلها ، أو كانت بدايته من اليوم · لكنك تعودت الطغيان ، والنائم غطى وجهه !!

ـ والله عال يا بنات طه · جاء يوم يعلو صوتكن على

جدتكن · ركضت وديدة نحو البنات آتية من غرفة الزلع ، وفى يدها صحن مخلل ، تترجرج بطنها المنتفخة أمامها :

ـ عيب يا بنات ·

أكملت بناتها الحوار العاصف ، دون التفات لها :

ـ لأنك ظالمة ·· واذا كانت أمنا قد سكتت ، فلن نسكت ·

قالت نازلى التى لم تتجاوز الحادية عشرة :

ـ ابحثى لك عن قطة وأغمضيها !!

ـ اخرسى يا بنت ·· قصم رقبتك فوق صدرك ·· يا مقصوفة الرقبة · اصعدن الى فوق دون غداء ، واذا لم يربكن طه سأربيكن أنا ··

أدركت وديدة ما حدث · قالت :

ـ كفى منك لها · لن تأكلن من هذا الخبز ·· وهذا قرار ·· استسمحن جدتكن ، وقبلن رأسها ويدها ·

أجبن فى نفس واحد : كان زمان !!

فوجئت عديلة بقرار وديدة الحاسم ، فلم تستطع النطق · وتتبعت حفيداتها وهن يصعدن السلم ، ويتوعدنها بالثورة الدائمة ، وقلب الدوار على رأس كل من يتدخل فى هذا الموضوع · ربتت وديدة على كتف حماتها ، وهى تستحلفها أن تسامحهن ، وعديلة تضرب الأرض بالعصا متجنبة الحديث عن تمرد وديدة الأول ، وتصب غضبها على البنات وهى تشهق بين كل جملة شهقات طويلة عميقة ، حتى خيل لوديدة أنها ستقطع النفس غضبا ·

ـ سيفضحننا مع حمواتهن في البلاد ، ويقول النـــاس أنهن محرومات ، ولم نربهن يا أم عبد الله ، هذا آخر شقانا !!

ـ والنبى الذى زرت قبره لا تغضبى عليهن ٠ الدعوة منـك بلسم يساعدهن ، بنات وسنهن ٠ وفى الزواج يا أمى معذورات يصنعن بأيديهن كل شيء ، ويقدمنه للقريب والغريب ٠

بلعت ريقها ، واكتسبت ملامحها حزنا لا يلين لم تعتده أم طه من قبل ٠ واستمرت كأنها تقرر شيئا غير معروف ، أو يحتاج الى تأكيد

ـ هن أولاد طه المصيلحى ، عمدة المنتهى يا أم طه ٠٠ سقت عليك النبى !!

ـ وأنت ٠ تصنعينه بيدك أنت أيضا ٠٠ لماذا لا تقولى لى نفس الكلمات ، وتتهمينى أننى أفضـل سلايفك وكنـاتك عليك ؟ أنا أعاملك ، وأعاملهن كما أعامل نفسى ٠

ـ أطفال ٠

ـ صغيرتهن ٠٠ بزها فى صدرها فى حجم الرمانة ، يخرق عين الشمس ٠٠ يا وديدة !!

ـ قومى نتغدى ، ورحمة عبد الحكيم لن تكسفينى !!

قامت عديلة ممسكة بعصاه ، ترتجف تحت وقع القسم الذى انتهى به النقاش ، وجلست أمام الطبلية لا تستطيـــع أن تبلـع لقيمات الذرة الخشنة المقلحفة ٠ أبعدت الخبز عن يدها ، وغرفت من محشرة الأرز ، وراحت تمضغه بصعوبة وتفكر فى البنات اللاتى لم يتناولن الغداء !!

دخل محمود بثياب مبللة ، وشعره الأسود الفاحم ملتصق

بجبينه وأنفه الطويل ، راكضا نحو الدرج · صاحت وديدة عليه :

ـ أين كنت طوال اليوم ، بلا طعام ؟

ـ تجلسون هنا ، والبلد هائجة ، وفيها غريق ·

ـ يا ستر تعالى هنا ··

قالت أم طه : قومى يا وديدة اعملى حساب ثلاثين نفرا زيادة على العشاء !!

ركض الصبى هاربا الى الغرفة العلوية ليغير ثيابه قبل أن يراه طه · سمع جدته تقول لأمه :

ـ شوفى حلمى عاقل · ربنا يهديه ·

رد من بين خشبات الدرابزين مستنكرا

ـ هادىء ؟! ابن أمه ·

أكمل الصعود وهو يلهث · وكان قد تجمع مع الأطفال على حافة الماء أمام غيط أبو كحيلة ، وأمسكوا بأيديهم عصيا وغابا وقطعا خشبية ، لم يخشوا السحاب الرصاص الذى غلف السماء ، ولم يذهبوا للجامع الذى يؤذن لصلاة الظهر · أمسك بعضهم بحجارة قذف بها الجسم الطافى القريب من الضفة الأخرى للنهر ، دفعها التيار ، مشوا بموازاتها يغنون :

ـ يا غريق يا غريق ·· يا اللى طالب الدفنة ·

رقص الغريق فى دوامات الماء حتى استدار ناحيتهم · جذبه اليهم فى ثبات ووقار ، خافوا وركضوا مبتعدين ، ثم ضحكوا واتفقوا على العودة · وجدوه فى انتظارهم ، دفعوه بعيدا عن الشاطىء بالعصا حتى لمس التيار ، ومشوا بجواره دون أن

يجرؤوا على كشف هويته · وعادوا يغنون : يا غريــق ·· يا غريق · لم يلتفت أو يسامح · طفا هائما حتى أوقفه فــرع شجرة غليظ ، عائم بعرض النهر · صرخ الأطفال :

ـ يا غريق ·· يا غريق ·

رفرفت رايته المهترئة ، صرخت فى وجــــه ريــــاح العبث · انتفضت بالحياة ، وأسرجت للموج الرجراج جناحا حملهــا ومضى · علا صياح الأطفال :

ـ يا طالب الدفنة ·

دمعت عيناه · سكنه الحنين للدفء ، لشرنقة بيضاء ناعمة، وعتمة أبدية مورقة · استدار ناحيتهم ، صرخوا :

ـ غريق ·· غريق ·· غريق ·

قفز الفلاحون الخارجون من صلاة الظهر الى النهــــر ، احتضنوه برفق ، شهقت السماء بالغيم الراكد ، أمطرت حبا أحاط بهــم · مددوه على الجسر ، كشــف المستور عن فتـاة صغيرة غضة ، زين رقبتها حبل معقود تدلى فوق جلبابها المورد ، وبزغ من تحته جنين همد وهو يدافع عن الحياة ·

صاح واحد · أبلغوا العمدة !!

انتهى الضجيج فى دوار العمــدة الخارجى · عــاد رجــال البوليس والنيابة من حيث أتوا ، تركوا الصباح يكشف عن هوية الغريقة ، حين يأتيها زوارها من كل البلاد المحيطة بالنهر · لكن الضجيج فى الداخل لم ينته · رقصت خيالات صامته فوق السباط تحمل الماء الساخن من الحمام الى شقة طه · اعتادت البنات أن يساعدن أمهن فى هدوء صاحبات الخبرة · نعمة هى المرأة الوحيدة

التى لم يهدأ لها بال أثناء طلق وديدة المكتوم بأسر التقاليد . طقطق جسمها ، ونز بعرق غزير أفصح للجميع عن الصراع بين التوتر ، وخلاياها المتوقدة . طلبت من أمها الدخول الى سريرها، والنوم حتى يفرجها الله بساعة راحة .

ضحكت عديلة قائلة :

ـ معقول يأتى النوم ؟! سبحان من يخرج روحا من روح يا بنيتى .

ربتت فوق كتفها ، واحتضنتها . تكورت فى صدر أمها الرجراج ، وتركت لعينيها فك أسر دموعها .

ـ لا تخشى شيئا . قال الطبيب أن الحالة طبيعية .

ـ عملت طول اليوم . فركت تحتها أردب غلة بين المصطبة وفوق وتحت ، وربنا أكملها بالغريق والبوليس ، ووجع القلب !!

ـ صدقينى يا نعمة .. الناس مثل وديدة لا يطيب لهم عيش دون عمل .

فى الفجر نزلت البنات الى الحوش يستقبلن الحلابة . دخلت ستيتة ومن ورائها ابنتها الصغيرة حلاوتهم . قالت :

ـ صباح الخير .. مبروك المولود يا ست قمر .. ماذا سميتم بالسلامة ؟

ردت قمر : يسعد صباحك .. اسماعيل .

قالت كوثر ضاحكة : مولودان يا ستيتة المباركة على أيهما ؟

ـ على الاثنين .. والنبى يا ستى الجاموسة تتوجع مثل البنى آدم ، وغبنا طول الليل نحايل فيها مع الحكيم ، وكانت

ولادتها عسرة ، وفرحنا لها · ربنا ما يجيب غم !!

قالت نازلى : انسرقت بدرى ، وطليت على العجل ·· جلده أحمر ، وشعره ناعم ، وواقف يرضع تحت أمه ، وعم متولى أعطانى مترد لبن المسمار ، ومترد لبن طرى ، اعملى لنا مطجن يا قمر ··

قالت كوثر ، وهى تشوح بيدها فى وجه نازلى : تموتى فى الحلو ، الغالى ، ما هو كل يوم تلهطى لبن راقد ، الا المطجن ؟! كيف تبلعينه ·· وتحبين زفارته ؟! ·

ـ أنا أخذت منك حاجة ؟ فاكره انك تتحـــكمين لأن أمى والدة ؟!

ربنا يقومها بالسلامة ·· والنبى أقول لستى ·· والا عمتى نعمة ·

ـ اسكتى يا بنت ·

ـ ناس تخاف ما تختشى !!

قالت قمر ضجرة : شهلى منك لها ، حالا يطلبوا الفطور ، قولا يا فتاح يا عليم !!

حمت ستيتة الفرن ، جلست أمامه تلقمه الأغصان ، وتغنى

لما قالوا ده ولد ·· انشد حيلى وانسند

وجابوا لى البيض مقشر ·· ولموا السمن من البلد

ولما قالوا ده بنية ·· وطربقوا الفرن عليا

جابوا لى البيض بقشره ·· وبدل السمن ميه

قال طه لأبيه : لا فائدة يا حاج · لن يتعرف عليها أحد ·

مرت الأيام الثلاثة · فى المساء ، سنواريها مدافن الصدقة ، والنيابة ستقيدها ضد مجهول · لم تبلغ أى قرية تطل على النهر عن اختفاء فتاة ·

ـ الشرف غالى ·· يابنى ·

ـ من يعلم ان كان شرفا ، أو أرضا وميراثا ، أو حقدا ملأ القلوب ؟!! ـ

ـ ماذا حدث للدنيا ؟

ـ لا تكون دنيا ·· دون هذا !!

- ١٢ -

صحا صبح أشبه بصباح قديم يعبث بالذاكرة ، يحاول أن يوقظ فيها أنينا مألوفا ، أجرى مع الريق طعم المرارة والصبر ٠ نزلت أم عبد الله الى صحن الدار ، مع الحلابة ٠ حط الحمام أمامها يحايلها على حبوب الفول ٠ كلما تقدمت خطوة ، وأوغلت فى الحوش ، فرد أجنحته وطار أعلى من الأرض شبرا واحدا ، مبتعدا بمقدار خطوتها ، ثم عاد اليها يترجاها مرفرفا فـــوق كفيها ، حتى فتحت له باب المطبخ ، فاعتلى كتفيها ، وهى تكيل له طعامه فى ماعون ٠ ولم يتركها حتى خرجت للحوش ، محافظا على طيرانه أمام الماعون ٠

دخل متولى ساحبا الجاموسة الأولى ٠ فتحت الأبواب ، وتسربت نسمة هواء طرية أزاحت رائحة التخثـر ، وسمعت صوت اللبن فوق جدران المتارد « تش ، تش ، تش » ٠ واستلمت أمينة كمية الدقيق التى ستعجنها لفطير الصباح ، وألقمت ستيتة الفرن بالجلة وأغصان القطن اليابسة ، فاشتعل قلبه ، وطقطقت المحاشر على الصاجة ، ثم توافد العمال ٠ ولم تعد أصوات الطيور وحدها سيدة المكان حتى هدأت حركة افطار أهل الدار ، وخروجهم الى العمل ٠ امتلك المكان عاملات النظافة اللاتى رحن ينشرن المراتب فى الشمس ، ويفركن البلاط ، ويزعفن الحوائط ، ويبددن الغبار من فوق الأثاث ، ويجمعن الملاءات المتسخة ٠

أفرغن الجرار ونظفنها ، وبخرنها بالسعد ، لتكتسب رائحة حلوة ، ثم ملأنها بالماء المغلى المروق بالشبة ، وغطينها فى مكان ظليل فى الهواء الطلق ، فى ركن من السباط ، ووضعن بعضها فى الصالات • انسحبت ستيتة وصبيحة ونفيسة الى الزريبة يقطعن أرضها ، ثم شكلن أقراص جلة ، ولصقنها فوق أعلى جدار السور كى تجف فى الشمس • وسرعان ما سمع صوت مدشة الفول : تك تك تك •• تك ، وتطاير الغبار حولها ، وتحركت عربة اليد الصغيرة تحمل الأجولة الى المخازن : زع •• زع •• زززززع •

سمع أهل الدوار صوت رفرفة أجنحة قادمة لم تحجبها أسوار القصر العالية ، التى تجعله شبيها بالحصون والقلاع • نعق نفير حرب ، رغم أن الحرب العالمية الثانية قد أعلنت انتهاءها رسميا منذ أيام قليلة • سرى فى الحقول قلق الخوف على الأمل الذى ولد جنينا فى القلوب : أن تنزاح غمة الحرب وويلاتها • دقت الصدور دقات منتظمة رجت الأرواح ، عرفها الشيوخ الذين شدت أوتارهم وعزفتها ذات مرة ، فاستعادوا الذاكرة المنهوبة •• وعرفها رجال ونساء وكانوا أطفالا حين اختطفتهم دويها من براءة جهلهم ، ووداعة عدم ادراكهم • وتنبه لها الصبية الذين سمعوها على الربابة فى سهرات راكية قوالح الذرة فى الشتاء ، وأمام الدور ، وهم يتنسمون رطوبة فالته من هجير الصيف • لكنها ــ هذه المرة ــ لم تكن موجعة فحسب كانت اكبر من الوجع بكثير ، عصرت القلوب ، ولم تقدر أمامها أى رئة أن تنفث آهة الم واحدة ، كتمها سعير الداخل ، فحركت وجعا قديما ، ووجعا ووجعا •• حتى لم تستطع ابتلاع سهام أنينها •

دخلت العصافير الخضراء سماء المنتهى تنوح . ركض الناس الى الشوارع ، تركوا أعمال الحقول ، والبيوت ، والقصور، والتقوا بها فى المدى الفسيح ، رفعوا الرؤوس الى أعلى خائفين. نشعت الآلام من الجسد حين انفـــرطت اللآلىء من العيون ، وتدحرجت أمامهم على الأرض وحررتهم . رأوا أولادهم الشهداء الذين حموا السماء من حرب لا دخل لهم فيهـا ، ودافعـوا عن بحرهم الذى تتعارك حوله جيوش لم تنبت جذورها فى هـــذه الأرض ، ودفعوا لهم الطعام قمحا زرعوه وطحنوه ، وما عرفوا كيف يمضغونه ، وقطنا أنبتوه وجمعوه ، وما لبسوا نسيجه ، وكتانا جدلوه لغيرهم ، وخضروات شحنت فوق عربات السكك لموائد جنود احمرت وجوههم ، يرطنون بخليط وأزيز من الأصوات المبهمة لكل ملة .

نحى الفلاحون الخوف من طريقهم ، رفعوا أيديهم يريدون عناق الطيور المنذورة للذبح ، رشفوا آلام الفراق قطرة قطرة ، طالبوهم بالبقاء ، وتوسلوا اليهم أن كفوا عن الرحيل والايغال فى الغربة .

قالوا : عششوا هنا فى أشجارنا !!

قالت العصافير : القتل ليس اراقة دم .. القتل أيضا فى امتصاص رحيق أبدانكم ، وتحويلكم الى عبيد !!

لم يفهم الفلاحون ، ونكس المتعلمون رؤوسهم ، رغم العطش الفاغر فمه للحنين . خجلوا من مواجهة المعنى .

قال عبد الحكيم : عاد الصديد الى العيون . كأنى لم افعل شيئا . كان استشهادى لا معنى له . كأنى لم أولد منكم !!

قال عبد المنعم بن معاطى الذى أنقذه عبد الحكيم المصيلحى

من العمى مرة ، ثم ضاعت احدى عينيه تحت وطأة الصديد ، بعد استشهاد الطبيب :

ـ على الأقل ٠٠ أنتم تحررتم ، وعرفتم المصير ٠٠ الدور الباقى على من يقاس على ظهر البساط !!

تراكضت صرخات الطيور فى السماء حول صوت الطبيب :

ـ ارحمونا ، لا تقتلونا مرتين ٠

قالت أم طه باكية : أوقد لك الشموع عند قبرك كل يوم !! زرنا مرة أخرى ٠٠ تعال الى أمك ٠٠ قتلتنى الوحشة لضمك فى صدرى ٠٠

تفتت أفئدة كانت تتكىء على قدرتها الهائلة على الاحتمال والتكيف ، بعد أن أكلتها البلهارسيا ٠ انهارت وازرقت وجــوه الناس ، تحت سياط الاستغاثة ، ولم يسمعوا هذه المرة ســؤال العصافير الصغيرة الخضراء التى تحمل رؤوس الشهداء أبناء الفلاحين ، وترفرف بأجنحة التشبث بالبقاء والحياة ، رغم تعفن الجسد فى البلاد الغريبة ، والانفجار الى أشلاء تحت سماوات لم تعرفهم ، أو تحنو عليهم ، ولم ترق لهم قلوب أهلها ٠ لم يكن سؤالهم هذه المرة عن المليون متطوع فى الحرب العالمية الأولى ٠ كان سؤالهم :

ـ الى متى ستقبلون الاحتلال ؟

لم يستطع أهل المنتهى البكاء ، فما بكوا ، وتحولت الدموع الى نهر يغلى على وشك الانفجار ولم ينفجر ٠ أخرج نفثات لهب خافتة ، لكنها أحرقت عددا من الجنود الحمر البشرة ، ونهبت معسكراتهم ، وبدا فى الأفق أن الهدوء المخيم على السماء مجرد قشرة خادعة ٠

أعلنت خطوبة قمر على فريد شوكت ، وتوجت قصة حب صامتة عاشت فى أروقة الدوار ، منذ وهبها جدها عبد القادر المصيلحى الى ابن أخى زوجته • ولم يكن العريس يزيد عنها يوم سبوعها بأكثر من أربع سنوات • شهد العصر جلسات مبررة للعروسين تحت رقابة أهل البيت جميعا ، اذ يدخل العريس الحرملك فى صحبة شباب العائلة بعد أن يقضى يومه معهم فى صيد الثعالب ، وطيور العنز ، ويمدحون فى الغيطان ، ثم يتناولون غذاءهم مع ضيوف العمدة • وبعدها ، تستقبلهم نساء العائلة ، وهو تقليد سن خصيصا لفريد ، اكراما لعمته عديلة التى أحبت أن تهدى أخيها حفيدتها ، لكى تعيد ربط وتوثيق العائلتين مرة أخرى • وقد سمحت بهذا التجاوز لأنها تعرف أن تقاليد القاهرة أكثر انفراجا من ناحية ، وتمشيا مع التطور الطبيعى للزمن من ناحية أخرى •

ورثت قمر هدوء وديدة ، وعينيها المسليتين ، وشعرها الكستنائى • ومن جدها ، أخذت أنفا صغيرا وشفتين رفيعتين ، ونغزات طولية فى الخدين قيل انها لعمتها حميدة ، مرحن جميعا فوق وجه بيضاوى لم يعرف لمن كان قبلها !!

انشغلت البنات طوال اليوم يفتلن الكسكسى ، جلسن فى حلقة يفركن العجين فى الغربال حتى ينفذ من فتحاته الضيقة ، ويرششن الماء على الطحين ليضفن كميات أخرى ، ثم يعدن فرك ما صنعن •

قالت قمر موجهة الحديث الى كوثر ! ادعكى •• والا كفك عليه نقش الحنة ؟!

ــ هو عريسى ؟! بينى أنت الشطارة !!

ـ لم أسمع فى حياتى عن عروس تطبخ بيدها يوم الزيارة الا فى هذا البيت · أنا وأمى فى المطبخ ، وعمتى وستى مع الضيوف فوق ! الدنيا حالها انقلب ·

ـ هم أقارب ·· لكن احنا أولاد الغفر ·

ـ قصرى لسانك ·· يا أم لسانين !

ـ ضرورى مع الخروف كسكسى وبط وأوز ؟ كنا دسينا محشرتى أرز والسلام · أو عملنا فتة ضانى ·

ـ موسم يا جاهلة ·· موسم ·

ـ فى الموسم ·· الناس يأكلون فى دارهم ·

قالت وديدة ، التى تسمع هذه المشاكسات اليومية ، وتتدخل حين تحتدم :

ـ شهلن ·· الظهر سيؤذن ، وأنتما تتلكعان فى نكرين بط وحبة كسكسى ·

ردت كوثر مستنكرة : كيلة كسكسى يانينا ·· كيلة !! اكل بلد بحالها !!

قالت قمر : شهلى يا بنت العمدة ·· احيانا أشك فى هذا ·

ردت ضاحكة : سأتزوج وأعيش فى شقة ، مثل باقى البنات، وانتهى الى الأبد من الدواوير وأشغالها ·

ـ تزوجى موظفا يرجع لك كل يوم بالبطيخة والجرنال وحزمة فجل !!

تجاهلت كوثر كلماتها ، ونظرت اليها نظرة تعرفها قمر جيدا وقالت :

ـ حلوة عروس المولد ، صحيح فستانها الكوريشه فاقع ، ومروحتها لم نر مثلها من قبل ، لكنها اليوم عروس وغدا فى حلة المهلبية ·· لماذا لم يحضر قمعى سكر ، بدلا من كل هذه الهوسة ، والعريس أحضر هدية ، والعريس وصل ·· وشيل يا جدع !!

سلتت قمر يديها من العجين ، وقامت تضربهـا بكفيها ، وكوثر تدغدغ بطنها بأصابعها الرفيعة حتى اغرورقت عيونهما بالدموع ، ونثرت جسدها بعيدا عنها ، وركضت حتى وسط الحوش ، قائلة بصوت سمعه الجميع :

ـ أسمر وابن باشا من العباسية ·· لازم أمه من المغربلين !!

قالت قمر ضاحكة : لازم ستة أم أبوه ·

قالت نازلى ، التى لم يعجبها عدم المشاركة فى كلام اختيها ، موجهة حديثها الى كوثر وهى تهز رأسها :

ـ بكرة نشوفك يا مزوق روحك !!

صرخت كوثر وركضت وراءها ·

ركضت أيام الاستعدادات لفرح قمر بسرعة خيل الريح · رفرف على الدوار هذا الاشماع الهادىء الذى يغلفه حين يوشك على توديع عروس الى بيتها ، أو استقبال عروس تضمخ جدرانه بحياة جديدة ·

أخفت قمر توترها ببراعة حسدتها عليها أختها ، حتى خال عليها التكتم ، فتصورت انها لامبالية بالمستقبل · على العكس ، أظهرت كوثر خوفها من الوحدة ، واحساسها بانها مقبلة على عالم مختلف دون قمر ، التى اعتادت الحياة معها فى البيت

والمدرسة الداخلية ، باستثناء أوقات قليلة تذهب فيها وحيدة مع جدتها الى القاهرة لأيام معدودة ، وبعض حفلات الزفاف فى الحور عند أخوالها ، كانت تشترط فيها وديدة ذهاب واحدة منهما حتى لا يتركا الأشراف على الدوار معا !!

شهد عصر كل يوم التفاف حلقة من الصديقات فوق السباط في الهواء الطلق ، يطرزن ما تبقى من مشغـــولات العروس ، ويخترن موديلات فساتينها ، وأقمشة عرسها مع كاترين الخياطة . اشتركت نساء العائلة كلها فى انهاء التفاصيل المتبقية ، حتى أم طه .. اصرت أن تغـزل مفرشا جميـــلا من «الدانتيـل الجبير» يدويا لصالون قمر .

جلست أم حلمى تثقب حـروف « الجورجيت » النـاعم ، وتطرز « البرودرية » فى « الايشاربات » التى ستوزعها قمر على صديقاتها وضيفاتها يوم الصباحية . وتشتغل كوثر القوية بالخرز حـول مناديل الرأس التى ستوزع على الفلاحات والخادمات . وانهمكن جميعا وسط تعليقات خبيثة خافتة حول الزفاف . استكان الكون حولهن حين هبت نسمة جميلة انعشت أرواحهن ، وتصاعـــد غناء رقيق اطلقته نعمة مرفرفا :

يا مكحلة ومعلقة .. والعين مليانة .

وان شفتها يا العريس .. في الطست عريانة

ترمى عليها الحرام .. ستي اطلعى نامى

والله ما اطلع ولا اطلع .. للطلوع نية

لما يعدو الدهب .. مية على مية

وابوك يسايس الحصان .. وامك مغنية

وابويا شيخ العرب .. يغسل على ايديا

ردت البنات :

يا مكحلة ومعلقة ·· والعين مليانة ·

واستمرت نعمة تغنى الى أن سمعن حركة ، ورأين ستيتة داخلة من باب الحوش · اتضحت ملامحها من بين قلل درابزين السباط الخشبية · ألقت تحية ، واختفت عن بصرهن · سمعن قدر الكينا الذى تركته أم طه منذ الصباح فوق الكانون على نار هادئة ، وقدرت أنه نضج الآن · عادت الى وسط الحوش ، وخاطبت أم حلمى :

ـ الخشب فرط ، واستوى يا ستى أم حلمى · انزله من فوق النار ؟!

أجابت نعمة : انتظرينى ·

هبطت الى المطبخ ، وجست سلخة من قشور الكينا ، وافقت خادمتها ، وطلبت منها احضار المصفاة والزجاجات الفارغة النظيفة ، ووقفت تراقب التعبئة ، ثم سألت ستيتة باهتمام :

ـ ما هى حكاية حلاوتهم بالضبط ·· يا أم محمد ؟!

طفرت الدموع من عين ستيتة ، ومسحت أنفها بطرف طرحتها السوداء الشبيكة ، وقالت باكية :

ـ كل يوم نمسكها له يا ستى ، ولا فائدة أبدا ، تصرخ وتلم علينا البلد · عمرها خمس عشرة سنة · غير يتزوجن فى سن أصغر ، لكن بختنا ونصيبنا ·· ماذا نعمل ؟

شهقت شهقات متقطعة فى نشيج عال حتى أن حفيف دخول الخيط فى النسيج فى يد البنات قطع صمت الفراغ · استطردت :

ـ الولية رخية ·· أم حسبو جارتنا ، الباب فى الباب ، تسمع صرخة حلاوتهم ، ووقوع راسها على صدرها يا حبة

عينى ·· تدخل تحايلها ؟ وتهدئها · فجأة يا ستى ، لقيناها من غير سبب عقدت على العريس !!

مدت ستيتة يدها نحو نعمة ، فتلقفتها خاشعة :

ـ وعهد الله ·· تقسم ابنتى أن رخية أمسكت بها يوم ، ودفعتها ناحية العريس ، وهى تقول له ·· « على عينى يامرزوق · بكرة تدجن · هى مرة وتلين بعدها ·· تقدم يا اخوى ولا تخف »· جرى ريقه ، خافت البنت من شكله ومنظره · فكرت أنه داخل عليها ، لكنه مد يده على رخية ، والولية ما قالت له ·· لا ، ولا اختشت ، البنت بنوت ، وكانت فاهمة انها زانقاها لأجل يتم المراد · أغمى عليها ، فاقت بعد راحة ، شافتها يا ستى على الأرض ، والعريس معها !! وأيمانات المصطفى ، حصل يا ستى !! يومان ، ثلاثة ، بعدها قالت المنتهى « مرزوق تزوج رخية ، وطلق ابنتى بالثلاثة !!

صفقت أم طه بكفيها ، وقالت بصوت رن فى الفراغ ، وطرق الأبواب المغلقة ونفذ منها :

ـ وبعدين ·· اختشى منك لها !!

وشوشت كوثر قمر ، وهى تطرز مفرش سريرها التل بخيوط « السيرما » ، قائلة !

ـ سنرسل لك عمتى تكتفك !!

ارتعدت قمر ، رغم أنها اعتادت على هذا الهزار من كوثر ، وقالت بهدوء لا يناسب النار التى اشتعلت داخلها :

ـ جهل يا شيخة ·· حرام عليهم البنت كانت وردة ، وسمعت ان الولد « داير » · انت عارفه انه سائق ولف الدنيا ، والبنت خافت منه ·

نظرت كوثر اليها ضاحكة : ما كل هذه الشجاعة ؟ غـدا نشوف !!

انكبت العروس فوق الطارة الصغيرة تشبك الخيـــط فى نسيجها بسرعة ، تحاول أن تبعد عن راسها دوران الصور التى تتناقلها البنات سرا عن الزواج ، وأختها بنورة تمدها بالبكرات كلما احتاجت ٠

دخلت أمينة حاملة اسماعيل الذى أتم فطامه قبـل ولادة وديدة لعاطف بأيام ، واخبرت أمه انه نام بعد ان انهكها طـوال النهار ، وأنه يبكى فراقها لكنه سيتعود ٠

قالت وديدة : غاير من المولود ٠

صمتت هنيهة ، ثم أردفت : عبد الحميد سعل نفس الشىء ، لكن ما باليد حيلة ٠ أدخليه سريره ٠

أرقدته ، ثم عادت تشعل مصابيح السباط بنار خافتة ، دخل مدبولى ساحبا أول جاموسة لحلابة المغرب ٠ قامت أمينة الى الفوانيس مرة أخرى ، واشعلتها كلها ٠٠ التمع الوهج ، وأعطى للبنات فرصة ساعة أخرى للتطريز ، توافد العمال بعدها يريدون العشاء ، نزلت نعمة وكوثر الى وســط الدار ، وكانت الشمس تجمع أطرافها المختفية وراء الحوائط ٠ حتى رحلت ٠

- ١٣ -

راوغ الأمل المنتهى عن بعد فى خريف له طعم المراودة تسلل الهدوء ، وتسللت السخونة الى الأجساد المتعبة بعد شـقاء · كانت شرقانة لقطرة انفراج ، يعقبها سيل من الرخاء بعد مرور سنتين على رحيل الحرب · مازال الرزق ضيقا رغم وصول بعض السفن الى الموانىء ناقلة البضائع ·· لم تكن هذه الأيام فى مثل قسوة ما مضى ، رعرعت الذرة وانتفخت كيزانها ، وانفرطت شـواشيها بتيجان مذهبة ، ناعمة · بذروا بين عيدانها برسيم قلب · كانوا فى حاجة الى طعام للأجساد الهزيلة للبشر والمواشى · راوغتهم رغبة أن يهبوا البرسيم فى الحقول رية أخيرة تورور أوراقـه ، ليحصلوا على خشة اضافية ، قبل أن يأتى بشنس « ويكنس الأرض كنس » ، تركوا الفول والكرنب فى الأرض ، واستخسروا خلعه فى موعده · وقبل أن تهزمهم الشهور ، جاهدوا يحرثون ، ويحفرون بأياديهم والمحراث ، ويشمسون التربة قبـل الحسومات، ليدفنوا البذرة الصلبة الوعرة البنية التى لا ينبت لها ريش أخضر قبل خمسة عشر يوما · خايلهم الأمل فى قطن قوى ، خـــدموا شجيراته الخضراء الداكنة التى تترعرع ببطء ، حتى ظهـــرت الأوراق المستديرة التى تنتهى بمثلث له حواف ثلاث ، واستقرت تسبح الله فى الحقول · نقروا حولها ، وانتخبوا الأقوى ، خفوا الجورات ، ثم كبشوا سماد فوق الجذور ، ورووا الأرض فى حذر وخدر لذيذ ، وهم يتأملون المساحة الواسعة التى ستضىء يوما بالعهن الأبيض المنفوش ، ويمنون انفسهـــم الا نزورهـــم الفراشات من البرسيم ·

غرسوا الأعلام الحمراء فى الغيطان كلها · ومر المنادى يضرب على قعر الصفيحة ، يذكرهم بالتبكير فى التجمع الصباحى · تحركت القافلة من أمام دوار العمدة تبحث عن اللطع ، تنقلوا فرحين من حقل الى حقل ، جمعوا الأوراق المصابة ، وحرقوها وامتلأت كفوف الأولاد والبنات وذويهم بالقروش ، وارتفعت الرايات البيضاء خافقة ترفرف فى كل مكان ·

عاشت القرية أحلى أيام السمر والسهر حتى ولدت فى أبيب زهرة الوسواس الصفراء التى تشبه القمع ، وتخبىء خيوطها وأجنتها فى القلب · استبشروا خيرا وهم يتحسسون قوتها ، وانتشارها · لاحظوها وهى تخضر من العنق رويدا ، تنتفخ حتى انغلقت على نفسها لوزة سمينة · حلموا بالأفراح ، واستعدوا لها ، وانشغلت الفتيات يطرزن قرطات شعرهن بخرج النجف والترتر ، وحددوا مواعيد الزفاف بعد الجنى مباشرة ، وتطلعوا الى السماء لتهبهم رزقا وفيرا ·· مر شهر مسرى رطبا، وبرد الجو فى نسىء(*) وتوت على غير العادة · نزلت الرطوبة وظهر المن فى بعض الحقول ، كتم اللوزة فلم تتفتح ، تضرعوا الى الله أن يهبهم شمسا قوية لكنها تمنعت ·

دق ناقوس الوباء بعد أيام من زواج قمر · ترك الحاج عبد القادر الشكمة الى وسط الدار متكئا على عصاه ، يغمغم بكلمات غير مفهومة · مر بالفيللا الصغيرة المغلق بابها ، ودخل الى الرواق · لم يلاحظ وقوف بشير على حيله عندما رآه ، ولا

(*) سبتمبر ·

توقف العمال عن نقل الأجولة الى المخازن ، ولا دفع متولى عربة الفول ناحية الجدار مفسحا له الطريق · تململ من صوت الدهشة، وكاد أن يطلب اليهم أن يوقفوها ، لكنه تراجع · عبر باب الدهليز، ثم تمهل ناظرا ناحية الزرائب المفتوح بابها على مصراعيه · لاحظ جلوس الجاموس على الأرض متكاسلا يهش الذبـــاب بذيله · راودته نفسه على الدخول الى الاسطبل ، وفك حصانه ، والركض به خارج المنتهى التى لم يعد يحتملها ، لكنه مضغ رغبته واستدار نحو حوش الدار الداخلى ·

رأى نعمة جالسة فوق المصطبة بجوار باب المطبخ أمـــام طست فينيك مذوب بالماء ، يطهر كل من يدخل يده فيه ، تحرس المكان بقوة شكيمة عرفت بها مدى الحياة ، ولا تسمح لأى خادمة أو غريب بدخول ساحة الفرن أو غرف الخزين ، والبنات واقفـــات أمام الكوانين مشتعلة بشرتهن من الوهج ، يخبزن بأنفسهن العيش يوما بيوم دون مساعدة من الخابزات ، باستثناء أمينة التى تلقم ناره ، وتبدو يابسة مثل تمثال تحطب بفعل حرارة الشمس ، وقفن جميعهن حين لاحظن دخول العمدة الكبير · وكفت ستيتة عن رش الأرض الترابية بالماء والصابون حتى يمر شيخ العائلة الذى تغضن بفعل الزمن ، وازداد وجهه احمرارا بفعل الغضب قالت نعمة التى وقفت تهش له مفعمة بصحة فرسة صغيرة منفلتة الى الفضاء ، نهداها مشدودان الى أعلى ، مستفزان من يحادثها:

ـ سلامتك يا أبى·

رفع عبد القادر يده المرتعشة ناحية ابنته ، وزم شفتيه فوق فمه الخالى من الأسنان :

ـ من أين يأتى الخير ؟!

تقدمت ناحيته تساعده على الجلوس فوق المصطبة ، وهو يردد بصوت ضارع يفتت الأفئدة :

ـ يا رب لاتمتنى فى أيام الرخص هذه !!

صبت له كوب ليمون من الابريق ، وناولته له . اجـــراء ما تنازلت عنه طوال فترة الوباء ، تسقيه لكل أفراد العـائلة ، وتنتظر واقفة حتى ينتهى كل فرد من شربه دفعة واحدة . قـال أبو طه وهو يرتجف :

يا ساتر .. يا ساتر .. الناس يسقطون كالذباب ، والفلاحون يخفون المرضى فى عربات الخضار . .والبوليس بهدل البلد .

سمعوا نحنحة وصوت أبو شعيشع يصيح :

ـ « دستور » .

التفتوا ناحيته ، قال :

ـ أريد ابريقا وطستا لتغسيل عباس بن أبو صابرة .

خرجت وديدة من غرفة اللبن كسهم نافذ ، حاملة متردا لغداء العمال ، يركض وراءها عنتر الرابع فلا يستطيع اللحـاق بها ، ويملأ الدنيا صياحا .

قالت غاضبة :

ـ لن يخرج طست واحد أو ابريق من هنا !

قال أبو شعيشع ، وهو ينظر الى الأرض :

ـ هذه أوامر حضرة العمدة .. كل بيوت القرية رفضـوا خروج مواعين لغسل الموتى ، وأمرنى سيدى أن أحضرهـا من الدوار .

دخل محمود وقد استطال عوده دون أن يمتلىء ، وانتفخت ملامحه ، واعرض أنفه الطويل وتفلطح ، وضاعت البراءة تحت خيوط الشعر الأولى المنبتة فوق شفته العليا ، وسوالفه المخضرة. دخل يتعجل أبو شعيشع فى حزم . حاولت وديـــدة أن تثنيه ، استحلفته البقاء فى الدار ، لكنه رفض . قالت :

ـ فوضت أمرى لله فى أبيكم ، لأن هذه مسئولياته . لكن ما ذنبى أنا تضيعون شبابكم هدرا ؟

ـ احتطنا يا أمى .. لا تخافى ، واتركيها لله .

قال أبو طه آمرا : أخرجى له ما يريد يا ستيتة ، لا حــول ولا قوة الا بالله .

قالت وديدة متوسلة اليه .

ـ ادخل يا محمود ، اطلع الى « المقعد » فوق مع حلمى ابن عمتك نعمة ، أو خذه وسافر مصر فى بيت جـــدك حتى ينتهى الوبـــاء .

ـ الوباء طال مصر أيضا يا أمى .

قال الحاج عبد القادر : نصيبه يصيبه .. يا أم عبد الله .

انتابت وديدة قشعريرة وهستيريا ، فلم تشـــعر أنهم نقلوها الى فراش حمـــاتها فى الطـــابق الأرضى ، وأن الطبيب زارهـــا ، وأعطاها حبوبا ، وأمر بالراحة التامة . غابت عن أهل الدار أياما ثلاثة ، لا تسمع ولا تقبل طعاما ، ولا تجف دموعها ليلا أو نهارا ، أو يصمت الدعاء من فوق لسانها : « أمرى الى الله .. أمرى الى الله » .

لم تتركها نعمة دقيقة واحدة تغيب فيها عن عينيها ، حتى أنها نقلت جلستها الصباحية من فوق المصطبة امام بوابة المطبخ

الى كرسى وضعته فى الحوش بجوار الحجرة التى تنام فيها وسط صحن الدار ، لتراقب عدم دخول الخادمات الى المطبخ ، وتتأكد من غسل كل شىء جيدا قبل تقديمه لأفـــراد الأسرة ، وتكفكف دموعها كلما سمعت ولولة تزعق « أمرى الى الله » ، وتأمر الجميع ألا يكفوا عن العمل !! وهى ترتجف خوفا على أم عبد الله ، حتى أن ستيتة عندما سمعتها تقـول باكية « سلامتك يا نور عينى » !! ، لم تستطع السكوت ، وهمست فى أذن أمينة :

ـ من يصدق أنها أم حلمى ؟أين راح الشخط والنطر وموشح كل يوم الصبح ·· « اللى يعيش ياما يشوف » !!

بعد أيام نعق صوت فى أرجاء القرية : وصـــلت سيارة الصحة ·

اختفى الناس فى البيوت الصغيرة · وتلصصت العيـــون تراقب الموكب الذى يحوم فى سمائهم : ثلاث عربات · البـوليس فى المقدمة ، يليه الاسعاف ، ثم عربة نقل مكشوفة تصلصـــل جوانبها فوق الطرقات غير الممهدة حين تنهبد فى حفرة · اعتلوا التواءات الأزقة حتى اختنقت ثم ترجلوا ، وانتشروا ، والقلوب تدق ، والعقول تخمن خلف الأبواب على من يكون الانقضاض ·

وقعت السقاطة مع أول طرقة على بيت منصور الشرقاوى ، تكوم الأطفال فى ركن القاعة بجوار الفرن ممسكين بجلباب محظية· تراجعوا مع دخول الغرباء الى الوراء حتى لمسوا الحائط الخشن، المتآكل الطمى والجير معا ، وكادوا يدهسون جدتهم المقرفصـة على الأرض تشوح رغم أنها لا ترى :

ـ ابعدوا عنا ·· لا نريد شيئا · لنا رب ·

قالت محظية : اسكتى يا أمى ·

تقدمت ناحية الطبيب والتومرجى والعسكر :

ـ كلنا بسلامة يا أخوى ·· والحمد لله ·

سألها شيخ الخفر بحسم : أين منصور ؟

ـ فى الغيــط ·

ـ يا ولية حرام عليك · جاء الطبيب ليعالجه ·· دلينا بدلا من البهدلة ، وقلة القيمة ·

انكمش الأطفال بعيدا ، وبقى صغيرهــم فى حضن أمه ، انتشر الجنود كبخار علق بلزوجة فى سماء الدار ، بحثوا فى الأجولة ، وأبعدوا الحمار الراقد فى أرض الزريبة · غرزوا عصا فى القش خرج صوت ضعيف من باطن العيدان الصفراء الجافة :

ـ ارحمونى يا ناس ·

حملوه فوق محفة ، ونقلوه الى عربة النقــل · انفتحت أمامهم الدور رغم أنف أهلها · انتزعوا المرضى ، ورصوهــم ممددين فوق الأضلاع الخشبية المتربة لصــندوق الســيارة ، فشـل العسكر فى تبديد البشر الذين انكبوا فوق تابوت الأحياء الكبير يمسكون بأطرافه · لم تبعدهم حشرجة المحرك ، ولا نفثات كبساته المختنقة بالعادم حين سعلت لتدور · تشبثوا بها أكثر كلما زادت سرعتها · نطرت واحدا منهم حتى تخلصت من الجميع الا محظية التى أمسكت بالاخشاب حتى سحلتها ، جارفة أمامها كل ما علق بالطريق ، وانغرز فى لجمها · صرخ الناس مقطوعى النفس ، لكنها لم تتراجع · فات الوقت الذى كانت تستطيع فيه أن تفكر ، وأن تتخذ قرارا · وقعت هامدة العافية ، والروح فيهــا تذهب وتجىء ، حملوها ، وأرقدوها تحت الجميزة الكبيرة ، وطســوا الماء فوق وجهها · أفاقت ، تطلعت فى عيونهــم التى تضىء

وتنطفىء · تشابهت الملامح ، تناسخوا · الكل فى واحد ، فلم تعرف جيرانها من أبنائها ، من ساكنى الدور البعيدة ، وجـوه سمراء مغبرة مبرقشة ببياض وسواد ، وثياب مهلهلة ، لا تستر كثيرا أجساما نحتت من صلصال الأرض ، وجففتهـا الشمس ، وعزفت فى عظامها عربدة رياح الشتاء الباردة ، ساعدوها على المشى حتى وصلت الى الأزقة المظلمة · رأت خلف الأبـــواب المواربة ، والمفتوحة ، والمكسورة ، خيالات سوداء ترقص ، وتنهبد حتى أعياها التعب · دخلت الى الدار التى وقع بابها الخشبى منذ قليل ، لم يختف من أذنيها فحيح العويل « الهمدان » الذى لم ينقطع فى القرية ، رغم أنها لم تميز لمن الأصوات ، ولم تهتم ·

دخل الليل ، أفاقت على صرخات جزعة لعجوز تتعكز على فرع خوخة ، وتعوى :

ـ دفنوك فى حفرة يا ولدى مع الأغراب !! حرقوك بالجيـر الحى ، يا متغرب ، دنيا وآخرة ·· يا ولدى !!

عرفت فيها أم هاشم ، التى راح عقلها تحت وطأة الألم ، وخرجت تبحث عن ابنها الغائب تحت رماد لا تعرفه منذ بدأ الوباء يأكل الأهل والأحبة · تمتمت وهى تغالب نعاساً لا يشبع :

ـ عينى عليك يا أختى ·

رمى الهدوء جدائله على سماء القرية · هدوء مغزول بصمت الظهيرة القائظ الحرارة · وشوشت الغيطان بحفيف ناعم لأعواد الذرة المكتملة النضج ، قبل أن تحصدها المنقرة · توقف النبض فى حقول القطن ، وكفت الأيادى عن انتـزاع التيجان المشـعة بالنتف ، والزغب الأبيض المنفرط من اللوز مؤقتـا ، انتعشت حركة خفيفة بين فرقة الجمع التى التفت تحت الجميزة ، تمضغ خبزا مقددا صنع بطحين الذرة ، وخلط فى بعضه بطحين القمح وعمس

عجينه بالحلبة ، ولمعت فوقه قطع الجبن الناضج فى زلع المش ورؤوس البصل الناشفة الحمراء • دشدش الأولاد العيش ولفوه مع المش فى طرف الجلاليب ، قمطوا عليها ، وقرطوا القماش ، عقدوه ، وضربوه بحجر حتى تفتت الخبز واختلط بالجبنة ، وتحول الى بسيسة سفوها وهم يضحكون بخبث ، ويتهمون الكبار بأن حياءهم وحده يمنعهم أن يأكلوا مثلهم •

اقترب محمود المصيلحى من أقرانه ، وشوشهم بشىء ، ثم انفلتوا مسروقين من الجمع ، عبروا القناية ، ووقفوا عند رأس غيط أبو كحيلة • ترقبوا الاهتزاز الدقيق ، لم يخدعهم السكون ، دخلوا نسيجه ، وأصبحوا بعض مكوناته • تراجعت الكائنات التى خافت من حركتهم فى البداية ، ثم تحسست المحيط حولها حتى اطمأنت ، فخرجت من أوكارها فى باطن الأرض • شعروا بانفلات فأر كبير ، وسمعوا قرقضة الحبوب بسهولة • تبادلوا نظرات لها معنى الانتظار • قرروا أن يهبوا الفريسة فرصة التقاط الطعم • تركوا لها خيط السنارة تسحبه ببطء حتى أمنت ، فتركته ينزلق الى جوفها ، وابتلعته •

بدأوا فى حركة انفرادية • قطعوا الخطوات داخل الحقل كأنهم جنود فى مناورة • زحفوا الى نقطة ، ثم انزرعوا فيها ، واحدا وراء واحد • فجأة ، انتصبوا فى المكان ، وأحاطوا بصيدهم ، وقبل أن يدرك العاشقان ما حدث ، طار الأولاد الأشقياء بلباسين !! داسوا القصبات الخضراء ، ولم يأبهوا لصرخات الفزع أو الاستجداء ، ولم يلتفتوا ليلقوا نظرة على المضبوطين ، ليعرفوا كيف سيواجهان الموقف • علت الضحكات ، وأوسعا الخطوات ، وارتفعت السيقان ، وانفرجت فى الهواء برشاقة ، خوفا من أن يلحق بهم المرسى ، ويسترد اللباسين قبل أن تشهر الفضيحة •

انتبه الجالسون تحت الجميزة للأصوات القادمة · تطلعوا نحوها مستفسرين · شاهدوا رايتين عن بعد ، ترفرفان فوق عصاتين ارتفعتا قليلا عن شواشي الذرة ، خرجتا من الحقل ، وبانت ملامحهما : لباس من باتيستا الزهور الحمراء ، وآخر من الدبلان المسلى ، تبادل حملهما الأولاد راكضين ·

لم يكن أى من الرجال والنساء ، أو الصبيان والبنات ، فى حاجة الى شرح ليدركوا ما حدث ، وقبل أن يتبين الجميعـة الأصوات ، فهموا ، وانفرجت أساريرهم بضحكة واسعة ، وشماتة منتظرة ، وترقب لمعرفة الأسماء · وعلت بشرتهم ملامح الشر الجميل اللذيذ ، ومتعة مجانية غير متوقعة ، أنستهم دهشتها ـ للحظة ـ أنهم واقفون بعيدا عن ظل الجميزة ، وأن عليهم الانتهاء من غدائهم بسرعة ، والعودة الى جمع القطن · ونسى الخولى أن يشهر العصا ، وأن ينادى :

ـ أمشى يا بنت انت وهى ·· اشتغل يا نطع منك له ·

وصلت قافلة الأخبار الطائرة بالأعلام · وقبل أن يلاحظ أحد أنهم حفاة ، ومغسولون بعرق يلمع ، ويلصـق الثيـاب فـوق أجسادهم ، سمع الجميع أصواتا ضاحكة متقطعة تعلن :

ـ الحقوا يا عالم ·· المرسى نط على حسنية !!

ارتجفت المنتهى تحت وقع دقات علت عند الفجر ، انصتت لها حتى اتضحت : دبيب غريب منتظم يرج ما حوله ، صادر من ناحية أرض أبو نصيف الفحام غرب البلدة · اقشعرت الدوارير الكبيرة ، واهتزت البيوت الطينية ، وكادت العشش أن تتكفىء حين مر هذا الوحش الذى يشبه فى حركته رتابة عجلات القطار الحديدية · ركض الفلاحون نحو الغيطان ، شاخت قلوبهم ، وهم

يرون قطيعا من الدود يعبر من حقول القطن الى الذرة · رغم أن مساحة أرض الفحامين صغيرة ، الا انها خبأت في باطنها جيشا كبيرا ، كشف عن نفسه دون حيـــاء ·

ارتعشت آذانهم وهي تسمع قرقضة ، وخشخشة أقرب الى أصــوات رقص فئران في جــرن ، ومخزن للقلال · رمى طه سهما أصاب الصمت :

ـ انزلوا الأرض ·· هزوا العيدان ·· انقذوها ·

هاجت القرية التي شرنقها الذهول · رتبوا أنفسهم بسرعة في خطوط متساوية تشبه تشكيلا حربيا ، ليمنعوا العدو من الحركة والتهام المحصول ، طابوران متواجهان واحد يجمع اليرقات في جب الجلاليب التي عقدوها عند الوسط ، وآخر يفرغ ما جمعه في حفرة وقف فوقها رئيس العمال يحرق الدود ·· انطوى نصف النهار تحت ضربات الأيادي الصغيرة والكبيرة ، وما عرفوا لماذا تعاديهم الشمس وتختفي عنهم · أرادوها لهبا يقتل عدوهم ، لكنها تميعت ، وتمطت ، وأرسلت أشعة خفيفة ناعمة · انشغلت نســاء الدواوير يخبزن العيش ، وخرجت قطع الجبن ، والمش من الزلع تلمع مع أعواد الكرات ، والجعضيض ، وقدور الفول ، ولم يتردد صوت غناء يعين على الشقاء ، ويصفي القلوب الجريحة ·

تفشى الوباء في الأيام التالية ·· ظهر ضعف المقاومة أمام شراسة العدو الذي تزايد كل يوم ·· توترت الأعصاب في الدوار بعد اعلان وصول العدوى الى لوزات قطنهم · ســأل الحــاج عبد القادر طه :

ـ هل أصيب ذرانا ؟

أجاب العمدة : ليس بعد · لكن لا مفر ·· الدودة تحيط به من كل ناحية ، وستصل اليه ·· ستصل اليه ·

ـ خذلنى يا طـه ٠

ـ لا داعي يا أبى ٠ هى مصيبة ، ولا راد لها ٠

ـ أتراني شيخا لا نفع منه الى هذا الحد ؟

ـ أطال الله فى عمرك يا حاج ٠ لا بركة لنا الاك ٠

أطرق صامتا ، ثم تكلم كأنه يناجى نفسه :

ـ الغيط ثقيل يفرح القلب ٠٠ لكن لا رزق لنا فيه ٠

ارتفعت الشمس من وقت مبكر فى السماء ، استردت عافية أبيب وصحته ٠ طرقت أبواب الدور بعد منتصف الليل بقليل ، سحبت الغطاء الخفيف من فوق الصدور فى القاعات الخشنة ، ونفذت من الجفون فوق أسطح المنازل ٠ قام الفلاحون غير مصدقين وصولها بهذه القوة ، واستبشروا خيرا ، وخرجوا أسرابا بعد صلاة الفجر ناحية الحقول ٠ كلما مروا أمام دار انضم اليهم النساء والأطفال ٠ هلت نسائم الصبح وهم يعملون ، وارتفعت الخناجر تغنى غناء كالعديد ، يغلفه أمل خافت لأول مرة منذ وقعت الغمة ٠

اشتعل قرن قرص الشمس ٠ توقفت كارتة العمدة أمـام الغيط فوق الجسر يقودها الحاج عبد القادر بنفسه ، ترجـل تاركا الحصان تحت الشجرة ، وعبر الطريق مستندا على عصا شكل مقبضها على هيئة نمر شرس ، يفتح فاه ، كأنه على وشك الأنقـاض ٠

تابع الفلاحون حركته ٠ وركض عبد النبى يمسك بيده ٠ رأى أعواد الذرة فى طول الرجل ، تهتز شواشيها تحت حركـة أصابع الأطفال التى ترجها رجا ، وتسقط اليرقات ، أشار لهم أن يكملوا العمل ٠

لمس ورقة مثقوبة ، أشبه بغربال جديد شدت أوتـــاره ، وانعكس الضوء من فتحاته . اخترق الحقل وسط المحصول الذى كشر عن أنياب لبنية لم تجف بعد . احتدم داخله هذا التحدى الذى يأتى حين يعجز المرء عن مواجهة ما . تجمعت أيامه فى صرة صغيرة مربوطة أمام عينيه . لاحت هزيمة عـــن بعد تستهزىء بقدراته التى باتت عقيمة . سمع وشوشات الكيزان ، واستغاثاتها الضعيفة . وقرقضة الدود ، وضحكاتهن الخليعة ، تشكشـــك جلده الناعم ، الطرى ، المغذى بالقشدة ، والعسل الأبيض . تراقصت قدماه فوق الأرض ـ التى ما مر فوقها منذ سنوات ـ فى خفة لا تناسب العمر المعقود فوق كتفيه . ترددت أصوات لم يعرف معناها . انزرع فى بقعة غطتها عيدان خضراء مازالت تقاوم ، تتمايل مع نسمة هبت من الجهة البحرية ، تصدر خشخشـــة حزينة متكاسلة .

انغرزت قدمه فى معجنة أيامه التى مرت كومضة . أخذته هيبة الأجيال المتعاقبة فى خياله . صبى يلعب بالعصا أمام جده تمام . طفلة تحملها أمه لتضعها عروسا فى سريره . عبد الحكيم غارقا فى دمه . رجل يصرخ فوق خازوق . نعمة تندب حظها . طه فى سروال الفلاحين ، حميدة فى ثياب العرس ، سفينة تنفث اعياء رحيلها ، حاملة الأبناء ، امرأة متشحة بالسواد ، عـــزب تباع ، وأراض لم يعد لها وجود ، شيخ يفرح بزيارة الأحفاد . انحدر على عتبات الغد . سبح فى المدى الرحب ، افترشت عيناه ملامح الكيزان المتجهمة ، كركرت الدودات حتى شرقت . أطبقت الدنيا على محنته تشرنقها . تبرأ رويدا رويدا من كل ما يحمل ، وغمرته محبة للناس ما عرفها الا متأخرا فى شيخوخته . عبر المسافات التى تسرقه الى جزيرة الأمان .. عربد فى صدره صوت هادىء يقول « ما أروع أن ينطفىء البشر ! » ..

طاف من عالم الى عالم · تذكر أنه يريد أن يقول لطه انـــه قد سامحه · وأنه فخور به ، ويحبه مثل باقى اخوته ، استدار ليعود ، لم يجد طريقا · عرف أن الملاح قد أوغل فى البحر ، وأن المراسى ضاعت من تحت خشبات مركبه · رأى جيوش اليرقات تترك أماكنها قادمة نحوه فى نظام ، تظهر وتختفى حتى ظهرت ولم تختف !!

تململ طه فى فراشه · جفاه النوم وهو يفكر كيف يتصرف بعد أن رفضت الهجانة خروج الفلاحين ليلا للحصاد · سمــــع صرخات فزعة لم يعرف مصدرها ، صحت القرية كلها بعد أن وصلتها استغاثة أم حسبو ·· صرخات موجعة ، لم تكن المنتهى مهيأة لها ، وهى تعيش أتعس أيامها بين رحى ضغط الهجانة ، والخوف من افساد المحصول · كانت الولية أم حسبو قد استهلكت قبل هذا اليوم عددا لا بأس به من الرجال رغم أنهـــا لم تبارح الثلاثين الا قليلا ، ورغم أن فتيات القرية اللاتى كن يتزوجن فى الثانية عشرة ، أو ربما فى العاشرة عند بداية القرن العشرين ، ثم قفزت أعمار زواجهن لتصل الى الخامسة عشرة وقت هذه الحادثة ، كانت هؤلاء الفتيات مثل لـوزات القطـن الأبيض ، المتفتح على الأغصان الخضراء المشربة باللون البنى ، تنفرط منهن العافية طالبة الحلال ، الا أن أم حسبو كانت أجملهن جميعا · فالنساء فى المنتهى كن ييبسن قبل أن يصلن الى سنها هذا ، وتكون الواحدة منهن قد عرفت عشر أو خمس عشرة ولادة حسب الظروف ، يبقى من بينها على قيد الحياة أربعة بطون أو خمســة فى أحسن الأحوال ، وتكون البلهارسيا قد امتصتها ، والشمس

كشفت عراقيبها · وكانت رخية كلما نفق منهـا رجل وجدت عددا من الخطاب واقفين ببابها قبل مرور جناز الأربعين ، وسقوط أنف المأسوف على شبابه ، وتكون هى قد تزوجت فعلا بعد مرور الأربعة أشهر المحرمات ، وقبل أن يهل الخامس ·

اثنان من الرجال فحسب فرا بجلديهما بعد زواجهـا ، وطلقاها قبل أن يزورهما عزرائيل ، ولم يكد يمضى على عشرة كل منهما سنة أو يزيد قليلا ، اذ لم يصبرا على عافيتها ، وقوتها الضارية ، المتجددة دوما ، والتى تطل من عينيها اللتين لم تخشعا حتى أمام الغريب !!

لها عينان خضراوان داكنتان ، تزيدان من الاحساس بقوة سمرتها ، واحمرار خديها البارزين ، ينفجر جسدها بالشهوة طالبا الاخصاب ، طالما لم يعلق فى رحمها جنين ، لم تستطع أن توقف رقصة الغزل التى تجيدها بالفطرة ، اذ يخرج من عينيها نداء ناعس يتسلل الى الرجل ، أى رجل ، وينتشر فى جسمه مسيطرا على حواسه كلها ، ويجذبه اليها دون أن يعى سرها · لها نهدان ينشران حربتيهما ويتحديانه من تحت جلباب رخيص مزركش بورد فاقع ، جيداء ، تحمى رقبتها الجميلة بعقد من الكهرمان احتفظت به حتى فى أيام الشدة ، ولم تخلعه من صدرها وهى تعمل تحت نيران الشمس أو المطر · ولم تختف من كفيها وقدميها الحنة أبدا ، اذ تحرص على اعادة صبغهما مرة كل شهر بعد أن تتحفف · ورغم أنه لم يكن مألوفا أن ترتدى الفلاحة الخواتم ، لكن رخية احتفظت بخاتمين من الفضة ، أحدهما مزين بفص من الفيروز البلدى ، والثانى مزين بالعقيق الأحمر الأصلى ، ولم يهمها أن تسمع الفلاحات وهن يتندرن ضاحكات على أنها تنزل بهما الى البحر · هل تعجن بهما أيضا ؟!

قوامها ممشوق مثل سائر نساء المنتهى اللاتى لم يعرفن السمنة قط ، أو يذقن أوجاع الظهر ، بسبب العمل المتواصل الذى يكسبهن مرونة ، وليونة غصن البان ، ويتعجبن من فتيات الدوار ونسائه اللاتى تحمل أرجلهن كتلا من اللحم والشحم ، ويصفنهن قائلات :

ـ البطن ثنيات ثنيات ، ويا بخت من أكل وبان عليه !!

حسدت النساء أم حسبو على الشباب الدائم ، ولم يعرفن أنها لا تحتاج الى طعام كى تنمو ، لأن شهوتها كافية لتجدد فيها هذا النماء الربانى . ورغم أن الزواج حلال ، الا أن تعدده كان يمصمص شفاة النسوان ، ويبعث الحسرة فى قلوب الرجال الذين تمنوها .

عندما أفاقت القرية قرب الفجر على صرخاتها ، كانت على ذمة رجل أصابه المرض بعد زواجه منها مباشرة ، فقعد فى الدار لا يعمل . واضطرت هى للخروج الى الغيط كى تعوله ، بعد أن أصبح تقطيع الشعرية بالدولاب وعمل الكنافة فى رمضان لا يكفى قوتهم والعلاج الدائم . صرخاتها الفزعة أعلنت للناس أن الولادة متعسرة . ورغم معرفتهم أنها دلوعة وممرقعة ، لكن أحدا لم يتصور أن تفضح الدنيا دون سبب حقيقى على هذا النحو ، حتى أن بعضهن رقت لها قلوبهن ، ودعين الله أن يهبها ساعة راحة من عنده . الغريب الذى لم تفهمه القرية أبدا هو حمل رخيسة العزيز فى وجود الشهوة متفجرة فى مسامها !!

حاولت قنوع التى وصلت اليها بمعجزة أن تهدئها دون جدوى . سلقت لها أربع بيضات ، وأطعمتها وهى تتوجع . واستمرت المعركة بين الداية الخبيرة والعظام التى لا تريد أن تتفكك لكى يجد الوليد منفذا كافيا للخروج ، غلت لها قشر

البصل ، مع قشر الرمان ، والقرفة ، وكل ما تعرفه من أعشاب وأخشاب لكى تحمى الطلق ، وسقتها رغم أنفها الا ان القرية لم تستطع النوم من أناتها غير البشرية التى عبرت النهر ، وسمعتها الذئاب فى جحورها عند الجسر القديم ٠

سكتت الأصوات فجأة اذ اندفع من تحتها ذيل حمار طويل ، رفيع كامل المواصفات ، نابض بالحياة ينش الهاموش من فوق أمه ٠ وجلت قنوع ، واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم ، وقامت من فورها تشطف الوالدة بالماء الساخن وتواسيها :

ـ حتة جبنة من باب الزلعة يا اختى ٠٠ وربنا يخلى أبوه !!

غسلت يديها وقرأت سورا من القرآن ، فى سرها ، وهى تدلق الماء من الزير ، ثم رفعت صوتها قائلة لرخية ٠

ـ مائة كوز ٠٠ ولا الزراع ٠٠ يا نن عينى !!

سمعت القرية صباح اليوم التالى الزوج وهو يندب حظه ، لاعنا امرأته التى استغفلته ونامت مع الحمار ٠ وقال لها وهى على فراش الولادة ، رافضا أن تذبح لها جارتها دجاجة تتقوت بها :

ـ كنت تريدين تعميتى ، لكن الله افتضحك أمامى ، وأمام الناس ٠ لم أصدق نظرة الحمار الغريبة لك ، الآن كشف الله سترك ٠ أنت طالق !!

رحل مع وصول الفجر لليل آخر ، تجمد فيه الفلاحون مسعورين وراء عتبات دورهم يريدون الانفلات الى الحقول ، وحصد القمح . نهشتهم انفجارات الغضب ، شهرت أنيابها ، ومارت فى أحشائهم ساعات السكون الطويلة . هزت المحنة أغصـانهم ، فكت أسر الذاكرة ، تساقطت جنازير ربطت فى أقدامهم ، وهم يجرون الى عربات السكك الحديدية ، وأحبال كتفت أياديهم ، وأربطة كممت أفواههم فى ليل السجون ، وسياط لسعت ظهـورهم ، وحفـرت أخاديدها جروحا ما شفيت . رتقوا بصيرتهم ، وأورقت أغصانهم صورا لشباب تجرر من الاكتفاء . تبعثروا فى الطرقات، (*) سمعوا بائعا جوالا راح ينادى على بخور ، وزيتون ممتاز ، وعطورا للشعر ولبان . سمعوا وما سمعوا ، دفعته الجموع فى طريقها ، ألقت به وراء طه المصيلحى . وقف بالباب لا يفهم ، يسأل ما معنى هذا الجنون الذى يجرى هنا ؟!

قال طه : هل تذكرون الفيضان الكبير ؟

تطلعوا حولهم . أرجحهم اليأس الذى يعلقـهم على حافة الوقت ، رمقوه بشهوة النجاة ، منحوه انتباههم ، وانتظروا كلمات تتدفق بالمعنى الذى يريدون .

قال موجها حديثه الى الحاج مدبولى ، اكبر رجال القرية سـنا :

(*) كفافس

ـ احك لهـــم ما حـــدث ٠

ـ نزلت الندوة ، وعششت فى الماء حتى ازرق لونه ٠ خاف الناس من الجفاف بعد أن رأوا الطحلب عائما على السطح ٠ كانت الأرض مزروعة من الخيرات كلها : قطن ، ذرة ، رية ، ذرية ونبتت الخضروات فى الجزر التى طرحها النهر ٠ خايل العطش الأرض ، وأطلقت فى المدى نذيرا حط فوق الدور ٠٠ صـلت البـلد لله أن تزورنا المياه الحمراء ٠ وصحونا ليلة على صوت عواء ذئب جريح ، عواء ذئب ورب العزة ، صرخ النهر كأن كل جنياته تجمعت فى لحظة واحدة تريد الخروج من الموج الغاضب ٠ جـرى الفـلاحون الى الجسر الذى يلطمه الماء ويفتته وهو يقاوم ، وقفوا مشدوهين أمام قوة الفيضان وسلطانه وهو يفتح طريقه ، ويجرف ما وجده فى سكته ٠٠ غمر الغيطان ودخل الدور الواطئة والعالية ، ولم تنفع حيلة فى صده ٠ جمعنا التراب والزلط ، والخشب من كل نوع ، حتى الأشجار ما أوقفته !!

ابتلع ريقه وهو يتابع ردود أفعالهم ، وصمتهم المتوقـد ، ووجوههم التى تستحلفه بهدوء أن يكمل ٠تناول فنجان القهوة من صادق ، قهوجى العمدة ، بيد طويلة جافة نفرت عروقها الزرقاء ، راسمة خريطة محددة الملامح متجهمة ، تشبه وجهه شديد التحديد والوضوح ، الذى لم تزره التجاعيد الا خطوطا دقيقة حول عينيه الجاحظتين اللتين يلمع بياضهما بزرقة محببة حول أسودهما ، وفم كشف عن اسنان طويلة لا تناسب العمر المتقدم ، تجسها شفتان غليظتان منتفختان ٠ قال :

ـ جاء الحاج تمام رحمة الله عليه ، وطلب من الجميع أن ينزلوا الحطب من فوق أسطح البيوت كلها ، وأن يجلبوها الى هنا ـ أشار الى الساحة أمام الشكمة ـ فى هذا المكان قبل بناء الدوار كانت جنينة عنب ، ثم امرنا أن نحزم الحطب حزما كبيرة ،

المنتهى ، وأيامه : رأى نفسه واقفا فوق سطح دار يطلق النـار على منافسه ·· ابتسم · لم يخايله شعور بالذنب ، أو تقلقه لحظة تردد واحدة ، أخرس صوت الضمير بشكيمة المنطق ، وأغواه بالحجج ·

ـ لو تكررت لفعلتها مرة ·· ومرة ··

ـ أحمد الله أن الرجل لم يمت !!

ـ لم استهدف موته ·

أسند رأسه لظهر الكرسى الجلدى ، تحركت عمامتـه الى الوراء ·· تحسس بطرف قدمه فراء ثعلب ممدود تحت المكتب ·

ـ يعرف الجميع أننى من أفضل رماة المنطقة ، رغم عدم اشتراكى فى ألعابهم ورحلات الصيد منذ تركت الصـبا · لم أكف عن التدريب اليومى أبدا ، وما صوبت ناحية عنز أو ثعلب أو أرنب دون أن أصيبه !!

ـ اعتمدت على قدرتك ، ولم تقدر نتيجـة خطأ واحـد فى المليون ·

ـ هناك لحظات لا يسع المرء فيها أن يتردد ، والا ضاع الى الأبد !!

ـ انتهزت الفرصة لتستعرض قوتك ، وتثبيت مكانة لك بين الأقوياء ، والحلول الأخرى كانت موجودة وممكنة !!

أخترت طريقا واضحا ومكشـوفا ، ومبـاشرا ، الحل الآخر معناه أن اقبل تبادل الاكتـراء للقتـل او الأذى ، أو فـرض الاتاوة · لم أحب أن أعيش مثل بي خلف أحجبة من ناب الجمل تحمينى من الرصاص الذى يكتريه اعدائى ·

ـ ليتك تشعر برجفة خوف واحدة · ضعف بشرى يقربك اكثر من النـاس ·

وأن نعقدها معا بحبال قوية ، وأمر رجال آخرين بتجهيز الحمير والجمال ، وكل المطايا بمقاطف التراب والزلط · بعدها قامت القرية كلها فى همة رجل واحد ، وألقينا أحمال الحطب معا ، وفوقها التراب والزلط ، وأوقفنا الفيضان عند كل عطب فى الجسر ··

ابتلع الهواء دفعة واحدة ، وسعل ثم أردف :

ـ لم يصدق وزير الأشغال ما حدث ، وجاء بنفسه ليشاهد كيف نجحنا ، وفشلت البلاد حولنا ، وغرق زرعهم ·· يومها عرض على الشيخ تمام أن يأخذ ما شاء من أرض ، لكنه أجاب « عندى ما يكفى والحمد لله ، الطين آخرته طين » ·

رد عبد الله المصيلحى : أسمع دائما هذه الكلمات تتردد فى الدوار ، لكنى لم أعرف أن لها قصة !!

قال طه وهو يدقق النظر فى عيون محدثيه :

ـ كل ليل له آخر · أمامنا سهرة طويلة يا رجال !!

قام الى شأنه ، مائلا بجسده الى الأمام ، وانثنت ركبتاه بنعومة تنقل ساقيه الطويلتين الى أرض قوية واثقة !! وقام الفلاحون من ورائه الى أحوالهم ·· .

سال الضحى ·· داسته خطوات الشمس التى تتعجل اعتلاء العرش · عاد طه من جولته بعد أن تفقد الأرض والمخازن ، ومر بالعاملين وهم ينقلون الحبوب المباعة الى عربات النقل · ترجل من الكارتة ودخل الدوار ، أرسل فرج الله الى الحرملك يبلغهم رغبته فى تناول الغداء معهم · دلف الى غرفة مكتبه التى كانت يوما لأبيه ، اخرج بعض الأوراق التى اعتزم اعطاءها لوديدة وعبد الله ، وجلس يقلب فيها · طفا فوق ذاكرته يوم خاص من أيام

ـ أردت وضع دستور جديد للتعامل يخرس الشر الى الأبد !!

لم أجد صعوبة فى اختيار المكان الذى أطلق منه النار على سليمان عطية • عرفت دور المنتهى وبيوتها ودواويرها شبرا شبرا • دخلتها طفلا ، وصبيا يلعب مع أقرانه ، وزرتها تاجرا ثم عمدة فى الأفراح والمآتم ولمعاودة كل مريض ، ومع التهنئة بكل عيد ••

•• مرت فى ذهنى مواقع كثيرة تمكننى من اصابته : « فى الحقل •• أثناء ترجله من السيارة •• وهو يتجول عصرا على فرسه •• رفضتها جميعا • أردت توصيل رسالة بعينها ، رسالة فى عقر داره • راجعت خريطة الدار التى طالما لعبت فى كل جزء منها ، وبعثت من يراقبه • وبعد أيام قليلة اتخذت قرارى • كان الحاج عطية الكبير من أعز أصدقاء أبى ، ولم يكن دواره يبعد خطوات عن دوار المصيلحى ••

أشعل العمدة النار فى ذاكرة الأيام السعيدة التى عاشتها العائلتان ، وانتهت برغبة حميمة وصادقة فى زيادة الرابطة بنسب يجددها • وأقيمت الأفراح ليتزوج سيد أحمد من نعمة • فلما قتل ، وجدت بذور العداوة أرضا خصبة لتنمو وتترعرع وتقيم حاجزا بين العائلتين ، اذ اعتبرت عائلة عطية رفض نعمة للزواج من أخى عريسها الأصغر منصور اهانة لا تغتفر •• تقاطعوا دون أن يتحرش أحدهما بالآخر ، حتى ترك الحاج عبد القادر منصبه اثر فضيحة وفاة عبد المنعم غزال الذى جاء يسرق الجاموسة وضربه الخفر • تقدم الحاج عطية ورشح نفسه للعمدية وحصل عليها لمدة سنة ، وعادت بعدها الى دوار المصيلحى وفاز بها طه • اشتعلت العداوة واتخذت مظهرا انتقاميا ، اذ طرد عطية الخفر الذين عملوا فى دوار المصيلحى سنوات ، واستبدلهم بآخرين ، وأثار أحقادهم بسبب قطع الرزق • فلما عادوا للعمل مع طه ، لم يفتهم أن يتحرشوا بالعمدة السابق بمناسبة أو بدونها • كتمت

العائلتان ألغيظ تحت الجلد حتى ارتفعت نداءات الانتخابات للبرلمان ، واشتعلت الفوانيس فى طرقات القرية ، وساحاتها ، وجلس الناس فى السرادقات يستمعون الى المرشحين ، فوجىء طه برجال سليمان عطية ابن عم منصور يخرقون له غيط قمح سرعان ما تم اخماده • وبعد يومين ، سممت مواشى ترعى فى حقل برسيم ، وأرسل سليمان لطه مرسال فى عز الظهر يطلب منه وسط ضيوفه عدم ترشيح نفسه للعمدية مرة أخرى بعد الانتخابات !!

عرض الخفر على العمدة أن يردوا الصاع صاعين ، لكنه رفض • وجاء الى دواره رسول من كل من القاتلين المأجورين اللذين يسكنان الناحية : سيف ، وشلتوت ، يعرضان خدماتهما ، فردهما بعنف وقال لمن حوله :

– هذه مشكلتى ، وأنا أحلها بنفسى !!

فوجىء أبو كحيلة بالعمدة واقفا على باب داره • وقبل أن يفهم سر الزيارة ، صعد طه الدرجات الى السطح ، ووقف بهدوء فوق القش ، وأطلق النار على اناء ثريد خزفى انفجر الى شظايا جرحت الجالسين حوله ، وأصابت يد سليمان التى تصادف أن كانت ممدودة اليه • باغتهم الانفجار ، صرخوا ، رفعوا جميعا رؤوسهم الى مصدر الطلقة القادمة من السماء ، رأوا طه ينفخ فوهة البارودة ، ويحييهم بهزة من رأسه ، ثم يدير ظهره وينصرف • نزل الدرجات فى رباطة جأش صعقت أبو كحيلة الذى صعد وراءه ، وهو يقلب فى ذهنه هذا التصرف الغريب لطه الذى لم يعرف عنه الطيش أبدا ، ثم توقف أعلى الباسطة اذ فاجأه اطلاق الرصاص •

خرجت أم كحيلة من تحت بئر السلم ، وأطفالها وراءها يمسكون بأطراف جلبابها مذعورين يبكون • ألقى عليهم السلام وعيناه لا تفارقان المدى أمامه الى باب الدار ، ومضى دون أن يفهم أى منهم شيئا ، وصراخ عائلة سليمان عطية يدوى فى البناء الصغير الذى اهتز بصوت العيار !!

بعدها لم يسمع فى الناحية عن حرق زرع أو تسمم مواشى ، أو اعتداء من أى نوع على عائلة المصيلحى ، سواء كانت العمدية فى دوارهم أو خارجها • وتناقل الناس فى القرية أن الحاج عطية الكبير قد اصطحب ابن أخيه الى دوار طه معتذرا بنفسه عن تصرفه الأحمق • وقال للعمدة والحاج عبد القادر انهم لم يكونوا مجرمين أبدا ، ولن يكونوا •

ومع هذا لم تنقطع العداوة من النفوس ، وظلت تعجن أوهامها فى قلوبهم ، وتحت جلدهم ، لكنها لم تجد أبدا متنفسا علنيا لكى تكشف عن نفسها ••

دخل طه الى الحرملك • رآه يشغى بالأولاد والبنات العائدين فى أجازة • البنات يتحركن بين غرف اللبن والزلع والعيش ، ويخرجن المعاشر الدافئة من الفرن ، بنورة تلعب الكرة مع عبد الحميد واسماعيل فى صحن الدار المبرقش بأضواء يقطعها ظل الدرابزين ، نعمة تكسر الخبز اليابس للثريد ، وعاطف يتدحرج وراء كوثر يريد أن يأكل خوخة من الطبق الذى تحمله بدون غسيل ، وهى ترفض • نازلى تطنبر الماء من الطلمبة لتنظف خضار السلطة •

هبوا لاستقباله حين تنبهوا لوجوده ، انتعشت أحجار البناء بحميمية اللقاء بعد غيبة ، فرحوا بالغذاء معا ، وأصروا على تناوله فى الحوش • دحرجوا الطبالى فى ساحة المطبخ ، والأماكن الظليلة أمام المصاطب ، وجلسوا حولها يتسامرون رغم أنباء اللقاء

بين ابيهم والفلاحين التى سبقته اليهم · تغلب صخب وجودهم معـا على التوتر ، حكوا عن الأفراح التى ينتظرون اتمامهـا فى الصيف قالت نعمة ضاحكة موجهة حديثها الى حيدر :

ـ لماذا لا يكون فرحك وفرح كوثر فى يوم واحد ؟! تخرج عروس من الدار وتدخل عروس محلها ؟!

ـ اريد فرحى غدا ·· شهلوا ، وانهوا العمل فى شقتى حتى أنقـل الموبيليا !!

عقبت أم طه : عريان سنة ومستعجل الخياط !!
قال عبد الله لأمه !

ـ لا تحملى هما ·· ساشترى لك معزى بدلا من كوثر نربطها وسط الحوش على الأقل تكون اكثر فائدة · ناخذ منها حتنين جبن ضـــأن !!

لكزته كوثر بكوعها فى جانبه وانفجر وجهها ببقع حمراء ، وكادت أن تزور ·

التفتت اليه وديدة ، وهى تكتم ضحكتها قائلة :

ـ اختشى !! على الأقل نحن عرفنا نصيبها ، ومحمد سـليم عريس عليه العين · أما انت ، فلا أحد يعـلم ان كنت ستجلب لنـا عفريتة او جنيـــة !!

قالت نعمـة بحنـان :

ـ ناقصنا قمر ·· تعيش البنت فى بيت أبيها مهما تعيش ، مصـــيرها تفـــارق !!

قال محمود بصوت خشن ، لفت الأنظار لهيئته الجديدة ورأسه المحـــلوق فى الكلية الحـــربية :

- ستأتى آخر النهار بعد انتهاء فريد من العمل ، وتقضى معنا يومين ..

انتهى طه من طعامه ، لم يقل لهم شيئا عما اعتزم فعله ، لكنهم أدركوا ما أدركه الفلاحون . قام ساهما مشغول البال ، عائدا الى الدوار الخارجى . قالت وديدة :

- ارتاح فوق يا أبا عبد الله ، سريرك أضمن لك ، أكثر هدوءا .. فى الدوار ألف سبب لايقاظك قبل الأوان ..

أسند يده فوق كتفها ، ضاغطا أصابعه فى لحمها دون كلام ، وعبر الحوش . اجتاز الساحة الصغيرة الى الرواق ، ثم دخل من باب الشكمة الى غرفة نوم خصصها لراحته أثناء النهار ، حتى يكون قريبا من أحداث القرية . لم يستطع الاستغراق فى النوم ، رغم معرفته باحتياجه الى طاقته كاملة ومتجددة من أجل الليل الطويل الذى لم يولد فى الأفق بعد .

فى صدره ما يوحى بأن تقديره لابد وأن يكون صحيحا « لن تخذلنى البلد .. ما عادوا يمتلكون شيئا حتى يخافوا ضياعه ، وصل الخطف للقمة العيش ، فماذا يخشون » ؟!

استعرض يوميات قريبة مضغتها القرية على مضض . ترددت فى خلاياه صورة عبد الحكيم تروح وتجىء ، ارتج من وطأة الذكرى ، تمنى لو كان بجانبه ، لم يكونا فى حاجة أبدا الى كلمات ليعرفا ماذا يريدان ، رغم بعد مسافة الثقافة الفرنسية عن الأزهرية . لم يسألا نفسيهما عن سر التقارب أبدا . قال فى نفسه « ربما تكون طفولتنا المبكرة .. الشعور بالحماية الذى أحسسته نحوه دائما ، رغم أن فارق السن بيننا سنة واحدة ، لكن ضعف جسمه أوحى لى دائما أنه فى حاجة الى قوتى . لم يفقد فى باريس احساسه بنا ، رغم زواجه من مارى . لم يغترب .. وربما جعله

ابتعاده اكثر وعيا ·· مسكين ابى ، اختلفنا عنه كثيرا حتى تاه وسطنا ، وان كنت لم اره سعيدا بحيدر شبيهه » ··

قلب السبب فى رأسه « قد يكون الخوف علية من الوحدة وعدم الاستقرار » · تململ فى فراشه · برقت عينان لمعت فيهما شرارات التحدى ، رغم مأزق صاحبهما ليلة عودة رشـدى جريحا من الحرب · رقصة الفأر الأخيرة قبل الموت « لم يكن خوفا هذا الذى رأيته يشع من نظراته · كان شيئا آخر لا أصدقه ·· فجور !!»

اجتر غضبا لم يذهب رغم مرور سنة على واقعة تسلل بشير الى الحرملك ، واعتدائه على روايح · غفر لنعمة اطلاقها سراحه ، أعجبته شجاعتها ، وقوة احتمالها · هبطت فوق ذاكرته كل ما مرت به من محن ، « يكفى ما لاقته » · احتل وجه حلمى الصبوح الخجول مساحة الرؤية المتاحة امامه ، تمنى أن يعوضها عن سنوات الشباب الضائعة · انفلت الآسى الى سماء الهجير فرد شراعه ، حوم حول ذلك اليوم · لم يعرف ان كان غضبه موجها الى بشير ، أم الى الأحداث التى كادت أن تقتل رشدى ، وتضيف الى عبد الحكيم شهيدا جديدا · « وهل نجا ؟ » التأمت حروق ساقه ، واستغنى عن جبيرة ساعده ، ورئتـه تكاد أن تطيب · اضـطر الطبيب لمصارحته بأمرها ، عندما أصر على الالتحاق بكتيبته بعد انتهـاء الهدنة الثانية ·

لم ير رشدى كما رآه قرب ذلك الفجر : متعبـا ، مشـدود الوجه ، باهت اللون · أصرت امه على فتح الصالون الكبير فى الطابق الأول ، كى تلتف العائلة كبيرها وصغيرها حول ابنهـا العائد ، رغم اعتلال صحتها · استندت على عصاها من ناحية ، ويد كوثر من ناحية أخرى ، وقامت من سريرها لتستمع اليه يحكى عن تصوراته ، وزملاء السلاح ، عن مهمتهم التأديبية قبل السفر ، وما اكتشفوه لحظة ان عبروا رفح · ظهر على وجهه جفاف بشرة

التائه فى صحراء يبحث عن نبع ماء ، يجف ريقه كلما تذكر حدثا · لاحظت كوثر احتياجه لرعاية خاصة · وأمدته طوال ما تبقى من ليل بعصائر مختلفة ··

قال حيدر : أكمل مفاجآتك يا رشدى · كيف لم يكونوا مجرد عصابات ؟ ماذا وجدتم ؟ وكيف صمدوا أمامكم كل هذه المدة ؟

قال رشدى : اتضح لنا بعد أيام قليلة من بداية الحرب أن الصهاينة بنوا المستعمرات فى مناطق حساسة جدا ، تشرف على الطرق ، وتكشف الأراضى لمسافات بعيدة · واكتشفنا أنهم مسلحون كجيش نظامى ، وان كانت وحداته منفصلة ، يسهل اتصالها فى ثوان تحت قيادة واحدة ··

قال طه : أنتم أيضا كانت لكم قيادة مشتركة ·

ـ نعم هيئة أركان حرب للقيادة العليا فى عمان للتنسيق بين القوات المصرية والأردنية ··

سألت كوثر : كيف جرحت يا عمى ؟

قال حيدر : انتظرى يا كوثر · نريد أن نعرف الموضوع بهدوء من البداية ·

قال رشدى : كان المفروض أن نتجه عبر الساحل الى تل أبيب ، لنلتقى بالجيوش العربية هناك · فى النوم الأول ، تحركنا من ناحية رفح الى الشمال ، واشتبكنا مع المعسكرات التى حكيت لكم عنها عند الدنجور ، وكفار داروم ، بيرون اسحق ، ودخلنا غزة فى اليوم الثانى مباشرة ··

ـ الحمد لله ·

ـ لم يكن هذا سهلا · كلفتنا هذه العملية شهداء وجرحى كثيرين ، لأن الدنجور فتحت علينا النار من دشم محصنة ، ولم نستطع اقتحامها رغم ضربها بالمدفعية ، واضطررنا لعمل ستائر

دخان للانسحاب ، واخلاء الجرحى والقتلى ، بعد أن تركنا سريتى مشاة وبطارية مدفعية ميدان لمحاصرة المستعمرة . وفى اليوم الثانى ، قصفها الطيران وقصف تل أبيب أيضا . ودخلت القوات المتطوعة بئر سبع ، بعد معركة شرسة فى مكان اسمه بركة العمارة ، ودخلناها نحن عن طريق شرق رفح ، بعد أن احتللنا العوجة والعسلوج ..

تصوروا . وجدناها مليئة بالأغذية ، وكانوا قد أعدوها كمخزن لتموين مستعمرات الجنوب فى النقب .

قالت أم طه ، التى شدتها الأحداث فتوقفت عن البكاء :

ـ كفى اليوم يا رشدى . فى الصباح رباح .. قرب الفجر يشق السماء . غدا احكى لنا .. أريد أن أعرف متى وأين جرحت ؟ ولماذا كل هذه البهدلة يا بنى ؟!

أجاب ، وهو يربت على كتفها بأصابع يده اليسرى .
ـ الحمد لله ياأمى .. أنا الآن بخير ، وتعافيت ..

تذكرت نعمة فجأة وجه بشير ، حين فتحت له باب البرج . لم تعرف ان كانت نظرته لها هى امتنان أم حقد او كراهية ، أم خليط من اليأس واللامبالاة ؟! ضايقها أن تختلط مشاعرها بهذا الشكل فى وقت مفروض فيه أن تسعد بسلامة أخيها .. صرفت ذهنها عن الهارب ، وعادت تتأمل الوجوه حولها ..

تمنوا جميعا أن يستطيع رشدى اكمال باقى حديثه ، لكن واحد منهم لم يطلب منه ذلك ، وتعلقت نظراتهم به متوسلة ، ومشفقة فى آن معا . قال :

ـ جرحت فى دير سنيد ، وهى مستعمرة تسيطر على الطريق الرئيسى بين غزة وتل أبيب جنوب المجدل . وكان احتلالها عملية

صعبة ، لأنهم حصنوها بعدد كبير من الجنود المدربين تدريبا عاليا . وعرفنا بعد ذلك انهم من المشتركين فى الحرب العالمية الثانية . وايضا حصنوها بدشم كثيرة ، واسلاك شائكة ، واحاطوها بالألغام . ورغم أن الطائرات اغارت عليها يوما كاملا ، الا أن الكتيبة عجزت عن اقتحامها ، رغم اشتراك السيارات المدرعة فى الهجوم ، باستثناء سرية واحدة احتلت دشمة فى الجزء الجنوبى الغربى ..

خفت صوته حتى كاد ان يصبح همسا ، وكست وجهه حمرة اعتادوا رؤيتها فى بشرته عند الانفعال . توقعوا أن يسمعوا كيف جرح ، قال :

- استشهد قائد السرية اليوزباشى عز الدين الموجى على سلك المستعمرة ، وهو يقتحمها فى مقدمة جنوده . حاولنا أكثر من مرة اقتحامها دون جدوى ، لأن نيرانها كانت قوية . أمرنا قائد الكتيبة أن ننضم الى السرية الأولى التى كانت تحتل الدشمة المنفصلة ، وظل الحال كما هو من يوم تسعة عشر الى يوم أربعة وعشرين ..

بلع ريقه الذى تلكأ فى سقف حلقه الجاف وسعل ، تقاطرت دموع صامتة من عيون وديدة وبناتها كوثر ونازلى ، وأجهشت بنورة بصوت عال سكت على الفور بنظرة صارمة من أخيها عبد الله . اكمل رشدى :

- قمنا بعملية استطلاع لمدة ثلاثة أيام ، استطعنا خلالها التدريب على الاقتحام ، وزودنا بأعمدة بنجالور التى تفتح الثغرات فى الأسلاك وحقول الألغام ، واعدنا توزيع مواقعنا ومدافعنا بحيث نسيطر على المكان . ثم حاولنا مرة أخرى يوم الثالث والعشرين . وبعد أن ضربنا المستعمرة بالمدفعية ، تقدمت المشاة خلف الدبابات والمدرعات ، وفتحنا ثغرة وكدنا ننجح ، لكن باقى الفصائل تأخرت

في احتلال الدشم التالية بسبب هبوط الظلام ، واضطررنا الى العودة والتراجع الى اماكننا الأصليـة ٠

قدمت له كوثر كوبا من الليمون ، رشف منه قليلا ، واكمل :

ـ عدنا للهجوم فى اليوم التالى ليلا ٠ قطعنا خمس سياجات من الأسلاك الشائكة التى كانت تحيط بكل دشمة ، وكانت تصلنا نيران أسلحة صغيرة ، وبدأنا الاقتحـام ، وتبادلنا قتالا عنيفـا ٠٠ عنيفـا ٠٠

تقاطرت حبات العرق فوق وجهه ، وبللت شفتيه ، رغم نسمة الفجر التى تهل منعشة ، حتى تجمعت قطرة كبيرة أسفل ذقنه ، وسرحت تحفر فى رقبته اخاديد هائلة ٠

ـ اثناء دخولنا الموقع ، القوا علينا قنابل يدوية قتلت وجرحت عددا من جنودنا ، لكننا دخلنا فى النهاية ، وتراجع العدو ٠ وقمنا بتطهير المبانى فى الداخل ٠٠ سقطت قنبلة يدوية بجوار جدار كنت خلفه ، شاهدت انهياره ، وانبطحت ، لكن يبـدو أن قـوة الانفجار قذفت بى ٠ شعرت لوهلة أن النيران مرقت من ساعدى ، وتدحرجت بسرعة ، ثم تصورت اننى فوق موجة تعلوا ومياهها تحتى تشدنى لأسـفل ، ولم اعرف ان كنت أغوص ام ارتفع ٠ شعرت بقبضة حديدية تمسك بصدرى من تحت ابطى ، وتكاد تنزع روحى ٠ فتحت عينى ٠ كان الدخان يملأ السماء ، ويختلط بالوان مثل الشفق مع تراب وفتافيت لاسعة فى فمى ٠ أدركت اننى على قيد الحياة وشاهدت من يخطفنى من بين اللهب ، ثم اصطدمنا معا بشىء ربما يكون أحد الحجارة المنهارة ٠ وأفقت لأجد نفسى فى المستشفى الميدانى ، والمنطقة هادئة ، بعد ان وصلت قوات الحرس الملكي واستلمتها ٠ وتم اعداد حصن المستعمرة ليكون مقرا للقيادة العامة للقوات المصرية ، ورفعنا عليه العـلم بعـد انسـحاب الاسرائيليين الذين تركوا عشرات القتلى بلغوا حسـب ما أذكر ثلاثمائة ٠٠

ارتشف رشفة أخرى من كوب الليمونادة ، وأكمل دون أن ينتظر رأى منهم كأنه يستقرأ شيئا ما فى الغيب يراوده بحزن وأسى:

ـ لم أستطع الحركة أياما . لاصابتى بارتجاج فى المخ أدخلنى الى غيبوبة استمرت أسبوعا كاملا ..

خرج صوت أمه باكيا : يا عينى ياأبنى .

ربتت عليها وديدة قائلة :

ـ هو أمامك بعافية الآن !!

قال رشدى : أفقت لأجد القتال مشتعلا فى نجبا ، ونيتسانيم ، وتمكنا من خط المجدل ـ الفالوجا ـ بيت جرين ـ الخليل ، وتبة الفناطيس أيضا .. لكننا خسرنا نيتسانيم ثم استعدناها مرة أخرى بمعركة ضخمة ، حتى أعلنت الهدنة بعد قتال استمر ستة وعشرين يوما ونصف اليوم . لم نهدأ فيه ثانية واحدة على طول الجبهات . فلما قرر الطبيب امكانية سفرى ، قال اننى فى حاجة الى الراحة ، وقد ينتهى القتال عند هذا الحد ، وان كانت الشواهد لا تطمئن بسبب هجوم الاسرائيليين على بعض الأماكن فى العسلوج وغيرها ، لتحسين أوضاعهم القتالية ..

قالت أم طه ، وهى ترتجف تحت ضغط التماسك أو صوت المؤذن يدوى فى القاعة .

ـ لا استطيع اكثر من هذا .. حمد الله على السلامة . سأقوم لأتوضأ وأصلى . تعالى معى يا وديدة نحضر لقمة للافطار .

قالت وديدة ، وعقلها يستدعى رد فعل طه حين يعرف أن أخته هى التى افلتت بشير .

ـ حاضر .

قالت كوثر : اتركيها والنبى ، هى الصلاة طارت · عمى سينهى الحكاية بعد دقائق ، ثم نحضر ما تريدين ·

اتكأت عديلة على عصاتها ، دون أن تلتفت ، ونعمة تعاتب كوثر :

ـ لسانك ·· لسانك ·· بكرة محمد سليم يقصه من لغلوغه ··

قالت وديدة : اتركيها يا عمتى ·· معقول تأخذى على كلامها ؟

خرجتا ببطء ، والجدة تهتز كطائر صغير فاجأه المطر فى العراء تحت برد الفجر · أحضرت كوثر الابريق والطستية · تابع رشدى صب الماء فوق الكفوف ، وتذكر أباه ·· ترحم عليه بصوت سمعه الجميع خاشـعا ·

قال طه : ارتاح يا رشدى ·· قم يا عبد الله أنت ومحمود وراء عمكم حيدر · الناس فى انتظار وصولنا لاقامة الصلاة ·

قال رشدى : لم ننته من الانجليز يا طه ·· يطلع لنا غيرهم ؟!

قال طه : كل ليل وله آخــــر ··

أبعد طه عن عينيه الصور المؤلمة التى تتواتر خاطفة أمامه · اجتهد كى يغزل ثوب حلم يريح عقله المتعب ، ويدخل به اليهوغياهب النوم الدائرية · راوغته ، باعدها بسهم من الحب أســال فى سماء الحجرة نهرا متدفقا سبح فيه أولاده وهم أطفال صغــار ، وسرعان ما شبوا !! انقلبت موجة ، انفرطت وافصحت عما فى باطنها ··

عبد الحميد مختف عن اخوته فى قدر نحاس كبير مركون تحت سرير منزو فى احدى الغرف العلوية · يلعبون « طيروا » صاح واحد :

« سندق بندق •• عمر •• طيروا قفش » !!

امسكت نازلى بكل اللاعبين • بحثوا عن عبد الحميد ، لم يجدوه • صاحوا :

ـ خلاويص •• عبد الحميد الملك •• أظهر وبان •• عليك الأمـــان ••

لم يسمعهم • تداخلت أعضاؤه فى بعضها ، فاتخذ وضع الجنين كى يسعه الدست • تسلل الدفء اليه ، نام • صحا بعد أن زار الليل المنتهى ، تمطى فى الرحم النحـاسى الضيق ، ثم خـرج يتثاءت من تحت السرير • اصطدم بالظلام ، فرك عينيه ، أعلن مرحا أنه الفائز •

صرخت قمـــر :

ـ عبد الحميد •• عبد الحميد هنا •• يا نينا

انفجرت بالبكاء واحتضنته ، وفتشت فى جسمه عن جروح أو آلام ، وهو ذاهل لا يفهم شـــيئا ••

ـ أين كنت ؟

ـ تحت السرير !!

وبختـه أمينة بحدة ، تجمعت العـــائلة حـولـه يضـحكون ، ويطلقون القفشات والنـكات ، وهم يعـاينون موقع اختبائه • وطار مرسال يعيد تجميع الخفر الذين تبعثروا فى الناحية كلها بالفوانيس يبحثون فى الغيطان • جاءت وديدة التى كتمت مشـاعرها طوال فترة غيابه ، نظرته وصامت عن الكلام ! !

هلت موجة اخرى مزبدة تفور : راى محمود يركض بالفرس على طريق الجسر ، والحاج عبد القادر فى ايامه الاخيرة يدخل الى وديدة غاضبا ••

ـ سأترك لك يا وديدة البـلدة كلهـا حتى ترتاحى ٠٠ ماذا سنفعل اذا وقع من فوق الحصان وكسرت رقبته ؟!

انتفض وهز عصاه امامها ٠

ـ نقول ياليت الذى جرى ما كان !

ربتت وديدة على حميها : ماذا افعـل يا ابى ٠٠ عندما يصل ، ملص اذنيه ٠

دخل محمود بعد ساعات حاملا ثعلبا وعددا من الطيور لها الوان واحجام مختلفة ، مرغها العيار فى التراب فشرقت به ٠ حايل نازلى أن تنتف معه ريشهم ، ثم أغراها بالخروج معه ليلا فى القارب والتجديف حتى حديقة المانجو البعيدة ٠ سلخا الثعلب معا ، وقضيا الظهر والعصر اثناء نوم القيلولة فى توضيب الفراء وتمليحه ونشره فى الشمس ٠ « اكتسب محمود مهارتى فى الصيد ، وعنادى فى الحياة ٠ لكنه بلا قلب مثل جده عبد القادرة ، ومحب للرفاهية مثل حيدر :: نشأوا كما أردت ، لكنى لم أستطع ابعاد ميراثهم الأخلاقى من العائلة عن التوطن فى نفوسهم اكتسبوا الغطرسة بدرجات متفاوتة ٠٠ عبد الحميد هو الوحيد الذى يعذرنى رغم صغر سنه ٠٠ عبد الله أرعن ، وقمر ناضجة ومدقدقه ، كوثر طيبة ، محمود عنيف ، عبد الحميد عاقل ، اسماعيل ٠٠ ؟ ! » ، وابتسم ٠ لحقت به موجة اخرى طالت قلبه ٠

عادت العاملات الى دورهن بعد انتهاء الغداء ٠ صعدت وديدة الى غرفة نومها بعد أن تأكدت من انتهاء مراسـم اليوم الصباحية ٠ سكن الدوار الا من طنين ذباب ، ودبور يحوم مبددا ـ فى ضجة ـ شبقه الملتهب ، ورغبته التى تنتهى بهلاكه فى خدود حوائط الحوش وثناياها ٠ هبط اسماعيل من فوق السرير العـالى الذى حاول أن يتسلق اعمدة ناموسيته ، ويتأرجح بها مثل بنورة

وعبد الحميد ، ولم يستطع ٠ أمسك درابزين السلم ، وانزلق فوق خشبه الأملس حتى وصل الى الأرض ٠ اختل توازنه من السرعة ، وبدلا من أن يسقط فوق الدرج سقط فى عشة صغار الطيور التى تحتفظ بهم وديدة مع أمهاتهم ، تحت بئر السلم ، الى أن يحين فطامهم ونقلهم الى عشش السطح ٠تلصصت عليه بطة راقدة ، ادارت له راسها حتى تركز عليه نظرة عينها الوحيدة الموجهة له ، وتتابعه فى حذر من قنها ٠ تحرك فى فناء العشة ، لهثت البطـة بصوت يشبه الفحيح ، وارتكنت الأوزة حاجزة فراخها وراءها فى الركن البعيد ٠ ذهب اليها ، صاحت وهى تتراجـع للخـلف « كاك ٠٠ كاك ٠٠ » ٠ اقترب ، مدت منقارها تعضه ، خاف ، ركض أمامها ، وفتح الترباس ثم استدار ، وخطف فرخا وأغلق الباب الخشبى ، حتى لا تلحق به الأم ٠ اختار مكانا وسط الحوش ، حفر فيه حفرة صغيرة ودفس فيها منقارها أولا ، ثم رأسها ، وأهال عليه التراب ٠ رفرفت بقدميها وجناحيها الصغيرين حتى همدت ٠ عاد اسماعيل الى الحظيرة وجلب واحدة أخرى وضعها فى حفرة مجاورة لأختها حتى اكتمل العدد ثمانى عشرة أوزة ٠ هز رأسه اطمئنانا لحسن عمله ، وتوجه الى الزير ، حاول الوصول الى الكوز المعلق بحبل فى غطائه ، فلم يطله ٠ أمسك بالماعون المتجمع فيه الماء المرشح من الفخار ، وراح يروى الأرض حول أفراخـه حتى فرغ ، تركه وصعد ركضا الى أمه وأيقظها من النوم :

ـ نينا ٠٠ أنا زرعت الأوز ٠

لم تدرك وديدة ما حدث ٠ طلبت اليه أن يذهب الى كوثر وينام فى حضنها قائلة :

ـ العفاريت قيـلت ٠٠

مدت يدها الى ثديها المتدلى من فتحة قميصها ، بعد أن أفلته عاطف وهو نائم يرضع ، وأدخلته وحبكت صدر الجلباب ٠

ـ اصحى يا نينا ·· تعالى شوفى الأوز المزروع ·· حلو يانينا حلو ·· افاقتها ومضة ادراك · قعدت فى سريرها مرتبكة ، تحاول أن تصدق ما سمعت ·· « اى أوز هذا ، لم يحن بعد موعد عودة الذكر بالسرب من النهر ·· مازال المغرب بعيدا ·· نظرت اليه مستفسرة ، وهى بين اليقظة والنعـاس ·

ـ سنحصده بعد شهر أوزا كثيرا ·· سأسقيه كل يوم ··

قفزت من سريرها راكضة الى السباط · رأت الأجسـام الصفراء طرية ناعمة ، مرتبة بنظام شديد ، ورايات سقيانها منكسة بعد أن فارقتها الحياة · كادت أن تتكفىء على وجهها وهى تهبـط الدرج ، رغم معرفتها انه لا سبيل الى نجاتهم ، وأنهم ماتوا بالاختناق :

ـ اخص عليك يا اسماعيل ·· اخص عليك ··

جذبت الضجة الأولاد من الغرفة العلوية تركوا أعمدة ملة السراير التى يتأرجحون من فوقها ، وقفزوا الى الأرض ، وقفوا حول درابزين السباط يشاهدون الأوز ، واسماعيل يضحك مشيرا الى صـــدره :

ـ انا زرعت الأوز ·

راوغ طه الأحداث التى اعقبت سفر رشدى الى الاسكندرية · احتلت رأسه دفعة واحدة ، هرب منها ، ثم شعر انه لا مفر من الاستسلام لها ، والهجانة يستعدون بعد قليـل لنزول المنتهى ، وقضاء ليلة أخرى يدنسون فيها ترابها ، وأهالى المنتهى عقدوا النية على ؟!

« ربما ·· والا فأنا لا أعرفهم ، وما عرفتهم قط !! ·· عصر مثل هذا ، كأن الأيام لا تدور ، تجتر نفسها ، وتعيد مضغ ما فات ·· أبو مندور وأولاده لم ينهوا مدة عقوبتهم حتى الآن ··

ليل يسيل ، ونهار يرسل أوراق الفلاحين الى المحـاكم ، ويقتل الراحة والبراءة الى الأبد ٠٠ أعقبه هدوء أشـعل الحرائق فى القلوب ، وجرح الجذور ، استوطنتنا وحشة كوحشة الصحراء ٠٠ مصابون بالمئــات ، فلاحين وعســكر !!

واجهت عائلة المصيلحى ضيافة هذا العدد الهائل من البوليس والفلاحين المتهمين يوميا فى الدوار الخارجى ، حتى انتهى التحقيق بنظام عرفت به فى الناحية كلها مدى الحياة ، اذ ظلت الكوانين تلتهم الوقود طوال النهار ، واشتعلت الأفران كلها لخبز العيش ٠ واستطاعت وديدة بحزم أن ترتب خروج مشـارد اللبن الراقـد ، وتحسب بقانونها الخاص كمية الطعـام ، وعدد الآكلين حتى تمت تغطية احتياجات الضيوف ، دون أن تطلب أى مساعدة من زوجها ، مراعية حالة التكدر العـام التى كان فيها أبو عبد الله وعائلته والقرية كلها ٠ واستمعت أثناء العمل اليومى ـ طوال النهـار والليل ـ الى حماتها ونعمة وهما تحكيان كيف واجهتـا الحريق الكبير ٠ وقالتا أن الأبقـار حلبت مرتين لكى تنقذ رجال المطافىء ، ورجال القرية الذين راحوا يطفئون النيران المشتبكة فى البيـوت كلهـا ، وكان ذلك قبـل زواج وديدة بسـنوات طـويلة ٠ فلمـا انتهت الأزمة ، وفى احدى السهرات أمام راكية النار فى الشتاء ، وطه يستعيد ما حدث ، سأل زوجته :

ـ كيف نظمت ذلك ؟

ردت ضاحكة : الخير كثير والحمد لله ٠ اتفقت مع الطباخ على شراء كمية اللحوم يوميا ، وذبحنا أكثر من عجل لبـانى ، لأن الطيور لا تسعف فى مثل هـذه الأحـوال ٠ وكنت قد خزنت بالمصادفة كمية كبيرة من الجبن القريش فى زلع المش والمخلل ،

وربنا سترها ·· كان عندنا جاموستان ولدتا فى عز الصيف ·· وكل يوم ، كان راضى الصياد يرسل لى مشنة سمك ، وكل ما يخرج به من النهر !! وأرز مدسوس سهل أحوالنا ··

نظر اليها طه نظرة طويلة ··

انفرطت موجة فوق رمال الذاكرة ، كشطت كل ما حفرته الموجات التى سبقتها ، وأرست رشدى على العرش ·

دق طه جرس الفيلا الصغيرة التى تواجه البحر ·· فتح له أخوه بنفسه منهك القوى ، مشوش التفكير ، أشبه بأسد مريض محبوس فى قفص ، يدور بلا نهاية باحثا عن ثغرة فى السياج المحيط به ، الى أن يدرك الحقيقة فيعود الى نقطة البداية ، ثم يستدير ليبدأ محاولة جديدة ، لا تتعدى خطواته أصابع اليد الواحدة · تنهار أحلام الحرية ، فيثبت قدميه الخلفيتين وسط الفناء ، ويدور بالأماميتين · دوامة توصل الى حلقات متصلة من الفراغ · يزأر صارخا من آلام جسده ، وانصهار البراءة الى رماد تذبحه الأرض ، وتتجاهله السماء البليدة المشدودة بشمس تنهش السحاب · يقتلع أشجار الدهشة التى تبرق فى عينيه ، يزرع مكانها أشواك الصبار · لم يصدق طه ما وصل اليه حال البيت الذى كان منذ شهور آية من آيات الفن الرقيق ، اعترفت العائلة بسببه بمكانة خاصة لنزيهة ، فاكتسبت احتراما لم تعرفه زوجات كثيرات · تحول الى غرفة عمليات عسكرية ، تبعثرت عشرات الخرائط فوق أرض المكتب ، انتصبت خريطة كبيرة لفلسطين فوق حامل ، وأخرى مفرودة على طاولة الطعام ، تحركت فوقها قطع صغيرة من الخشب الملون تمثل التجمعات العسكرية ، وتنقلات الجيوش العربية والاسرائيلية · وقع رشدى أسير المسافة بين

وحدته فى الثغر والبيت أو نادى الضباط فى القاهرة ، يحــرك قطعة كلما توفرت له معلومات ٠

قالت نزيهة لطه ، دامعة العينين :

ـ لو كان رشدى داخل الحصار ، كان أهون كثيرا مما وصل اليه علاجه الوحيد هو التواجد بين زملائه تحت سماء الحرب ٠٠ وحدته رفضت مرارا طلبه للسفر ، والطبيب أخبرنا أن الحركة ستحول الاصابة الى عاهة مزمنة تضيع الرئة ، ولا فائدة ٠٠

طيب طه خاطرها ، وقال :

ـ المحنة أكبر منا جميعــا !!

عاد الى المنتهى لا يعرف ما يقوله لأمه ، وما يخفيه ٠

قالت عديلة : أرسلتك لأنى أعرف أبنى ، وأعرف أنه فى حاجة لنا جميعا الآن ٠ لو كنت استطيع السفر ، ما تركته فى وحدته هذه ٠ لكنى حتى ان أردت ، لا اقدر على مفــارقة المنتهى ، وقد تحــول نهارها الى سواد وجهامة الشعور بالذل والاختناق ، وليلها الى حزن ٠ فى مثل هذه الأحوال ياطه يجب أن نكون سويا معا ، ولا يحل اى منا مشكلته منفردا ٠٠

شعر أنه مسئول بشكل ما عما يحدث من انطفاء الفرحــة حولهم ٠ تأمل أحوال أهله ٠٠ منذ سنوات وهم ينتظرون موسم قطن مريح ، فرغوا فى شجيراته طاقتهم المختزنة ، توهجت لوزاته ، وانفرطت بتيجان بيضاء تتحدى ضوء النهار ٠ أعلنوا عن أفراح مزيلة تنتهى عند المغرب ، صوتها لا يرن فى الفضاء ، ولم يسأل أحد لماذا لا تغنى النساء وهن يغسلن الغلة التى سيطحنها لكعك العروس ٠ اختفت مواكبهم التى تسبقها ايقاعات الطبلة المشدود جلدها فوق نار الفرن ، وهن عائدات من السوق يحملن الصحون

الصاج المتبقية بألوان صارخة ، وأباريق الزجاج • والأكواب المبطشة بدم الغزال ، وقدور النحاس لجهاز الصبايا • تبخرت من أروقة القرية أدخنة البخور ، وزغاريد التفاخر بجلاليب العروس المنشورة فوق أسبتة الغاب ، يستعرضونها حتى بيتها الجديد • وزعوا قراطيس الحنة بهدوء لم يعتادوه من قبل ، ومرت قوافل الصباحية المزركشة بفساتين البنات الستانيه الفاقعة الألوان ، وهن يحملن طستيات الأرز والشعرية ، وقوالب السكر ، وأقفاص الطيور • وخرج غناؤهم مبحوحا •• يتعثر فى الطرقات ولا يرسل البهجة فى القلوب التى برك فوقها الهم ، وهم يشاهدون الجمال بطيئة شامتة ، تمضغ شروخهم وهزائمهم ، وتقهر انتصاراتهم ، وتلفظ من شفاهها الطويلة المتدلية بذاءة صامتة •

طرقت الفرحة أبواب الدور فجأة • هشت الأحزان ، ورمت بها الى تلال القمامة خارج القرية ، وصل الجنود المحاصرون • سافر عدد من الشبان الى القاهرة ليحضروا احتفالات العاشر من مارس ، بكت الأمهات ، فتشن فى صناديق العرس الخشبية المطعمة بالعاج والصدف ، والصناديق المشغولة بالنحاس ، والصناديق التى تخلعت مفصلاتها، وفى الكودبية(*) فى حوائط الدور الواطئة • أخرجن صورا قديمة لجنود ما تجاوزوا السابعة عشرة بكثير : شعورهم مجعدة ، خدودهم غائرة ، فى عينيهم شرر من رغبة فى الحياة ، ما تبددت بفعل السنين ، بعضها معبق برائحة المسك ، والعنبر ، وأخرى لها رائحة الورد والياسمين ، وأغلبها تفوح منه رائحة الحلبة • صور بهتت طباعتها وبقيت الضحكة مسجلة فوق أوراق التصوير المصفرة !!

(*) دولاب صغير فى الحائط •

كأنه كتب على العصافير الخضراء التى تزور المنتهى أن تدفع ثمن الأخطاء كلها ، كلما انضم عضو الى السرب · احترقوا فى لظى الوجدان ، وشرقوا بدمه حتى يجف ويتحرر فى رحلـة الانفلات والتحور التى تستغرق زمنا ليصل الى الخلاص · سنوات ثلاث مرت منذ آخر زيارة لهم للأهل والأصحاب · شبان كانوا بالأمس مصابيح المنتهى ، مهورهم ما زالت دافئة ، حملهم القش شهورا حتى حبوا فوق التراب ، ومسحوا الندى من أروقة القرية ، ولحسوا الأوراق الخضراء ، وذاقوا طعم الحوائط الخشنـة ، وأبواب الدور ، وشربوا من مساقى البط ، شاركوا الدجاج طعامه ، حتى عرفوا كيف يقرقضون الخبز الجاف المقلحـف من الذرة ، ويشتهون القمح الذي يزرعون · شهقت الحقول التى حملتهـم صبية يقلبون أوردتها ، ويدفنون البذور فيها ، ويروون فصوص الطمى العطشى ، ويضطجعون فى ظل أشجارها الرطبة · بعضهم ما جفت ثياب عرسه المرفرفة فوق الحبال · جاءوا يبحثون عـن وطن له رائحة ذروة صبى وصبية ليلة جلوتهما · تداعت التأوهات حتى ارتطمت بالتربة التى تتوجع ، تريد أن تدثرهم بلحافهـا ، وتمنع عنهم هجير الغربة ، وبرد الفراق · أبناء تبعثرت أشلاؤهم فى فلسطين ، وبقرت بطونهم وهم يدافعون عن وطن ينهب ، وتزرع مكانه عصابة تشرنق فى بقعة كى تغزو ديدانها الوطن من كل صوب · شحنوهم فى سيارات تنفجر بأسلحة تنفجر وقنابل تنفجر الى أرض تنفجر تحت أقدامهم كى يدنسها القادمون من فجـاج الأرض ·

نادت العصافير الخضراء ذات الزغب القطيفى على الأرض ·

ـ نحن عشاقك ، ننتظر الشبق المكتوم فى براكينك · نبحث عن اشارة لانفجار الحمم !!

قالت الأرض :

ـ عودوا الى أمكم . عودوا . رقادكم فى طينى ، وملاذكم بين ثراى .. لم تكن الفترة التى غابوها بعيدة حتى تنسي القلوب الرفرفة ، عرفوها لحظة أن سبحوا فى المدى الرحب ، انقشعت المسافات العقيمة التى تفصل بين العالمين . لف السواقى وجوم ، وزارتهم رياح تجهش بالذكرى ، وحفيف طرى لفقاعات تتصاعد عن بعد تتبدد ثم تعود ، وتزحف . تدغدغ الضوء حميمة فى الارتقاء نحو العلا . هفت النفوس للحظة صدق ، للمسة حانية ، لكلمة تهبهم أحلاما دفعوا ثمنها دما ما زال مسفوحا فى السهول البعيدة . تنسموا الحضور الجليل على شفرة السماء . مشوا فى طرقات القرية مستعينين باشارات غامضة تعبـــر المحـــن والحسرات ، متشحين ببيارق أمل تخفق فى القلوب . توتـــرت العروق فى صدور الأمهات ونهودهن . توجعن فصرخن ، واندفعن ناحية الفرح المفجوعين به منذ زمن الى الفضاء ، فى انتظـــار وصول الأولاد . حتى العجائز والشيوخ الذين تحنطت أقدامهم ، دبت فيها الحياة ، وعلا الصوت المحترق الذى ذاب يوما فى الفراغ . عاد الي الظهور ، بزغ وسكن الحناجر . تحررت الأيدى المكبلة ، وخرج سيف النخوة ذو الشفرة الحادة من غمـــده . اكتشفوا ـ لحظة أن اقترب الشهداء ـ أنهم لا يملكون سوى الفزع، والكوابيس ، وسهام الغضب مغروزة فى الحلق . وصلت العصافير التى لفت الف مدار ومدار تترنح وسط حلقات سوداء تدور فوق رؤوسها .

سؤال واحد عن بعد : هل نبت للعصافير عرف مثل الديك ؟

أتت الرياح على بقايا الظلام الذى سكن العيون . امتص الفلاحون الانتظار بالم ، رغم ان دبيب الوصول يمس الأرواح ، ويدفع باللهيب الى جراح الذكريات فتتنزى . وظهر للقرية أحضان حانية تكفى الفجيعة . تنشقت رحيق الألم الملتاع ، وقالت :

ـ الوقت ·· وقتى !!

فرشت العصافير أجنحتها ، تمطت فيها أصداء الاساءة وذل الهوان · حلقت فوق أعناق الأحبة الذين نسجوا هزائمهم بصبر العجائز فى خيام الشعر المتناثرة فى الصحارى البعيـــدة · اكتشفوا أن التيجان دخان أسود يطبق على رقاب الطيوز · رقصوا مخنوقين ، وصرخوا :

ـ البكاء ليس مباحا الا فى الوطن ·· ليس مباحا الا على الوطن !!

انصهر الآباء والأبناء فى روح واحدة ، اندفعوا نحـــو أعالى الدور بمقشاتهم ، وسعف النخل ، يبددون السواد ، لكنه ازداد كثافة ، ولاحت فى الأفق جثث الظلام ·

دارت العصافير حول عجوز وقفت بعيدا ، لا تدرى من أمر قريتها شيئا ، تنوح :

ـ يا غريب دنيا وآخرة يا بنى ·· طربوش مين اللى معلق فى شماعته ؟!!

رفعت المرأة عكازها الذى لا تملك غيره والعديد ، وتحركت معها حتى أصبحت فى المركز مستها أجنحة ناعمة لها ريش حان مثل بشرة طفل يفوح منه عطر نبات الحلبة · نظرت فى العيون المحدقة فيها ، كانت كلها عيون هاشم · بكت المرأة الثكلى التى تحتاج الى وقت يعيدها الى الحياة ، من وسط متاهات الغربــة الموحشة · نبض جسمها الذى تفتحت مسامه لربتات الطيور · مدت يدها ، ملست على الصدور ، تمرغ عصفور صغيـــر فى صدرها ، حرك فى قلبها نبش اصبع لرضيع كان يخربش لحـــم ثدييها وهو يرضع ، ازداد نحيبها · عرفته · قالت :

– بحثت عنك فى كل الأعشاش ، وتحت الحجارة فى الدروب البعيدة ، ناديت عليك · لماذا لم تجبنى ؟ يئست من زيارتك وسط الطيور ، وطلبت من الله أن يمد فى أجلى حتى أعثر لك على أمارة ·

قال هاشم : سرقوا لبة قلبنا يا أمى · نحن شهداء الجوع والمرض والفقر ·· الغياب عن الدنيا لن يفك أسرنا ·· لن يفك أسرنا ··

قالوا جميعا : كتب علينا أن نتنفس دخانا مدى الحياة حتى تحرروننا ·· لمعت فى صدورهم نجوم مشتعلة تنفث لهبا :

– النار تأكل احشاءكم ؟

– تبادلنا رعب الهزيمة تحت رحى الخيانة ، وانفجرت فى صدورنا اسلحتنا ، وحوصرنا مائة وستة وثلاثين يوما ، والمعاهدات تجرى فى الخفاء ، وبعضهم عقد هدنة مستديمة حتى ينصبوه ملكا !!

صرخ الفلاحون ، صرخة جاءت من تهاويل الظلم الطويل :

– ماذا نفعـــل ؟

– ازرعوا فى حقل امانينا نبتة من اعاصير الغضب ·· هذه المرة ستضيع البلاد الى الأبد ·· ستطيع البلاد الى الأبد ··

رفرفت الأجنحة بقوة ، وكان شيئا هائلا يسحبها بعيدا عن المنتهى · القوا بكلماتهم الأخيرة ، وغنوا لحنهم الوحيد ·

لم يستطع أهل المنتهى البكاء ، فما بكوا · وتحولت الدموع الى نهر يغلى ، كان على وشك الانفجار ، ولم ينفجر ، لكنه بعد سنوات ، لم تتجاوز الثلاث ، فاض وصحت القرية على صوت

يفرح القلب الحزين لشباب أسمر وجميل ، ملامحه من فصوص الطين ، وعرق العزق ساعتها ، صاحت أم هاشم ، وصـــاحت أم طه ، وصاحت كل ثكلى قدمت شهيدا بصوت تجمعت في أوتاره كل نغمات العويل القديم والجديد ، وناحت بما يشبه الغناء ، وغنت بما يشبه العديد · وتردد فى المدى :

ـ اقيموا العـــزاء ·

تململ طه فى فراش القيلولة ، جفاه النوم اقلقته ضربـات الموج المتلاحقة للماضى بكل تقلباته ، وصور الهجانة ، وأحداث الليلة التى ستنفجر بعد ساعات · شعر أن جرفا هائلا من الألم يحفر طريقا بين عظامه · قام فى غير توازن باحثا عن البلغة ، تخطى عتبة الباب التى يجلس خلفها بسيونى الخفير الذى فضل البقاء فى خدمته عن الذهاب الى بيت الفحام · هب واقفـــا ، متسائلا ان كان العمدة فى حاجة الى ماء · أشار طه بالنفى دون كلام ، ودخل الى حوش الدار · سمع بكاء عاطف آتيا من الطابق الأول · صعد وفتح باب غرفته ، كانت وديدة تربت على صـغيرها الذى صحا من نومه اثر لدغة برغوث الهبت جلده ، تاركة له ثديها ، رفعت لزوجها رموشها الكستنائية المرتخية فوق عينيها ، هدهدت الطفل حتى راح فى سبات عميق ، وحملته بهدوء الى مهده وهى تراقب طه يخلع ملابسه · دفعت عجلات المهد البامبو خارج غرفة نومها الى الصالة ، وعادت الى فراشها مفعمــــة بالحيوية ، متوردة الوجه اثر النعاس الذى لم يكتمل ·

رقد ثدياها على مضض متحفزين لأى اشارة · قبلتــه فى رقبته ، ومسحت شعره الأسود الفاحم ، استسلم لحرارة شفتيها التى تنتقل الى صدره ، لفها بذراعه · غرقت فى احساس وحشى يدفعها نحو رحم أمها ، الى القرار المكين ، وأصابع طه تتنبـــه

وردات احساسها ، وتكشف عن سنابل الرغبة الكامنة فى خلاياها ما انفرطت بعد · مرحت كفه ، وأشعلت شرارات اليقيـــن فى الأعضاء النائمة فتوهج · ضاع من ذهنها ادراكها أنها مقسمــة الى رأس وجزع وساقين ويدين ، وأنه آخر ، امتزجـــا ، تنضر وجهه ، وانعكس فى عينيه بريق شمس الضحى فوق حقول الندى، وصافحت نظراتها التى تغيب رويدا انفعاله · تاقت لاطـــلاق عصافير الروح كى تمتطى الرياح · خلخل هـــديره الصمت ، وفتت آخر سدودها وتميعاتها · ماءت بصوت متقطع تجمــع فى بلورات كرستال تنتظر نفخة النار كى تهطل · دخلت العاصفــة مرماه ، اجتاحته ، صارع اللجة المرتعشة بضربات غريق يجاهد للخروج الممتع من اليم والغرق فى لذته الى الأبد · أسكرته رائحة انفجـارها المختلطة بعبق أرضـــاع طفلها وامتصاصهـــا اللآلىء المخصبة ، حتى وصل الى شـاطىء مرســاه متطهرا ، مستعــــدا لصلاة شكر لكل ما وهبه الله اياه فى هذه اللحظة المترعة بنفاثات لهب تومض ، وتنطفىء ، وسكون مرتجف ، وركض لا يعرف الى اين ، وطمأنينة المسافر الى الوصول لبر السلامة · طفت وديدة فى هالات من الأرجوان والنرجس واللارنج ، وحملها شذى الربيع الى ألق الصفاء العطر ·

غرقا فى نوم عميق ، فلم يشعرا بالحركة التى دبت فى حوش الدار حين وصلت قمر بصحبة زوجها فريد شوكت وطفلها · وكانت عقارب الساعة تشير الى الرابعة بعد الظهر حين هدأت عجلات السيارة من سرعتها كى تستدير فى الشارع الضيق وتدخل الدوار · هدوء موحش الا من طنين ذباب غزا أسماع ركابها عند نزولهم منها · وما زالت المياه المتسخة برغاوى الصابون الملقاة امام البيوت تحفر أخاديد صغيرة ، تحاول الشمس الحارقـــة امتصاصها على مهل ، مخلفة طينا زلقا ينفث اعياءه الأخير ·

اختفت الطيور فى أعشاشها الا من غربان قليلة تحط متثاقلة وتمشى على الأرض بتكاسل • لا أثر للحياة ، كأنما هجرت البيوت والحقول • انحسر النهر قليلا مخلفا أرضا مليئة بالحفر ، ومياها غرينية سجنت بداخلها أسماك صغيرة تتخبط •

قبل أن يعبر ركاب العربة البوابة الكبيرة ، سمعوا ضجة وصراخ أطفال هربوا من أمهاتهم وقت القيلولة ، وتجمعوا تحت تعريشة العنب فىْ غفلة من الغفير النائم بجوار الجراج تحت التوتة • أمسك عاصم الفحام ببلطية فتحت فمها عن آخره وهى تشهق بالموت • ظهرت الألوان الحمراء ، والأسنان الصغيرة المشرشرة ، غرز عبد الحميد المصيلحى المغراز الذى ينتهى بدوبارة طويلة فى سقف حلقها ، فتدلت تتلوى حبيسة الخيط السميك • عادوا الى النهر ، وقد توهجت تحت الشمس الناقحة زرقة قلم الكوبيا على ظهورهم ، وابتلت سراويلهم الطويلة وهم يخوضون بحذر بين أخاديد الطين ، يرفعون قدما ويغوصون بأخرى ، عسى أن يقعوا على مشط سمك كبير ، أو ربما قرموط !!

انتبهت بنورة للضيوف القادمين • أبلغت أخاها بوصول قمر ، وركضت ناحية البيت ، ملابسها مبللة بالطين ، وجيوبها مليئة بحبات المشمش التى انفرطت من وقدة الشمس ، تتطاير ضفائرها الحمراء فى الهواء ، ضئيلة القد ، نحيفة ، ورثت بشرة جلدها الرقيقة ، وانتشر النمش يبقع حروف أنفها ، وخدودها ، ولها عينا وديدة فى لون العسل ، ورمشاها المرتخيان فوق جفنيها • اندفعت الى أحضان أختها ، وحملت الطفل راكضة به الى كوثر ونازلى فى الغرفة العلوية • خرج عبد الله لاستقبالهم، واصطحب شوكت الى الشكمة يتبادلان الأخبار •

قالت قمر لكوثر : اضطررنا للخروج من القاهرة بعد عودة

شوكت من الشغل فى عز الظهر ، حتى نلحق بالشمس قبل أن تغيب بسبب حظر التجول ·· متى يفرجها الله علينا ؟

قالت كوثر : تعالى أحكى لك حتى يقـــوم أبى ، ونرى ما يحدث ··

ـ لماذا ؟ هل هناك شىء جديد ؟

ـ تعالى الى الغرفة العلوية ·

- ١٦ -

استيقظ الدوار غرفة وراء غرفة على حركة غير عادية فى شقة حيدر • تفتحت عيونه عينا بعد عين رغم التكتم الشديد الذى حرصت عليه أم عبد الله • عرف الجميع أن اقبال تواجه مصيرا مجهولا أثناء الولادة ، وهو أمر كانوا يتوقعونه منذ زمن طويل حين اختارها عروسا رغم شحوبها دون جميع الجميلات اللاتى كن يرفرفن من حوله ، وتناقل الخدم همسات حول معاناتها من مرض عضال ، وتساءلوا فيما بينهم عن جفاف عودها ، وانطفاء بشرة وجهها الى أن حملت ، واجبرها الطبيب على ملازمتها للفراش مستلقية على ظهرها دون حركة • ظهرت ظلال اشباح عملاقة فوق جدران الشقة ، وانعكست على درابزين السباط تحمل أوانى الماء الساخن من المطبخ ، ثم اختفت فى الصالة • لزم كل أفراد العائلة ـ باستثناء وديدة ونازلى وعبد الله ـ اماكنهم فى غرف النوم ، والصالات الملحقة بها ، دون أن يجرؤ احد على السؤال عن كيفية سير الأحوال • وحين هم الرجال بالخروج الى صلاة الفجر ، أعلن خبر رحيل العروس ، وولادة طفلة ضعيفة تنتظر الموت بين لحظة وأخرى ، اطلق عليها اسم الأم •

كافحت اقبال هانم الصغيرة ، واظهرت رغبة غير عادية فى الحياة ، والتفت الأسرة حولها تساعدها على تجاوز امكانيات جسدها الذاوى ، حتى أن وديدة التى كانت ترفض ارضاع أى

من أطفال العائلة متحججة بأن تبادل الأمهات الارضاع يحرم زواج الفروع ، حين حملتها لأول مرة ، شعرت بعروق صدرها تنتفض ، وتنبض باليقظة ، ثم امتلأت بالدم ، وشدت لحمهما حتى ألمتها · وهم ثدياها بالوقوف والانتباه ثم نشرا حربتيهما اللتين انتفختا مثل نبقة ناضجة لوحتها الشمس ، وانفجر اللبن طوفانا أشبع الطفلة · وكانت وديدة قد فطمت عاطف قبل سنة · ومع الوقت رفضت اقبال الرضاع من فرح ، مرضعتها التى انتقلت لتعيش فى الدوار هى وابنها الصغير بدوى ، وفضلت زوجة عمها · ولم يجف ثديا وديدة بعد أن فطمت بيللا كما أطلقوا عليها تدليلا مدى الحياة · وكانت كلما رأت طفلا نزت قطرات الحليب تبلل صدرها ، وتحفر فى جلبابها خيطا رفيعا ضعف مع تقدمها فى العمر ، لكنه لم ينقطع أبدا · ورفضت وديدة حين أكملت الطفلة عاميها أن ترسلها الى أمينة مثل أبناء عمها ، وأبقتها بجوارها تحت رقابة مربيتها ، حتى جاء مساء ، ولم تكن بيللا قد اكملت ثلاثة أشهر بعد عامها الثانى · صعدت بها الى حيدر ، واسلمتها له · سألها بدهشة :

ـ ماذا أفعل بها ؟

قالت بحزم : تحدث اليها ··

مضت دون أن تلتفت وراءها · ولم يعلم أحد كيف مرت هذه الليلة بين الأب وابنة ، لكن الدهشة جاءت من بنات وديدة ، وهن يشاهدن أمهن وقد نامت مطمئنة فى سريرها طوال الليل ، وكن يتوقعن الا تستطيع ! · بعد أقل من سنة ، اعتادت الطفلة أن تتجنب درابزين السلم ، وأن تنزل فى الصباح الباكر الى أحضان نينا وديدة · وأضاءت البهجة الطابق المظلم حتى أصبح حيدر لا يشاهد الا وفى يده ابنته التى اكتسبت ملامح دلت على جمال مبكر ، وتميز

خاص ، اذ اتخذ وجهها الدائرة مفتاحا للتشكيل فيه · كانت مستديرة الشفتين المكتنزتين ، محددة الخطوط فى شفتها العليا التى تظهر فيها الانحناءات أكثر حين تبتسم · ولها عينان زرقاوان مثل جدتها عديلة ، اتخذتا شكل اللوزة المقلوبة ، وانثنت رموشهما الى أعلى فى استدارة أكملت جمال التصميم · وزين ذقنها طابع الحسن ، وظهرت نغزة واحدة أعلى خدها الأيمن تهرب الى الأغوار حين تنفعل ، فتكشف عن نفسها · ونما لها شعر أسود غزير فاق نمو باقى أعضائها ، حرصت وديدة على عقدة فى ضفيرة واحدة ، وكانت تغضب بعد ذلك من كريمان زوجة أبيها اذا ما أمسكت بالمقص كى تتخلص من طوله الشديد ·

لم يتوقع اخوة حيذر الذين يعرفون تاريخه مع النساء أن يؤثر عليه رحيل اقبال بهذه الصورة · اعتكف عن الخروج ، وجلس فى شكمة الدور الثانى ليلا ونهارا لا يطلب شيئا ، ويرد صينية الطعام الا من قليل يعينه على استمرار الحياة · وبعد شهور من الصمت ، خرج الى الحقول فى الكارتة ، يركض بها حتى يتعب ويعود دون كلام · لم يجرؤ أى من أفراد العائلة على سؤاله : الى أين ؟! اكتفوا بأن حمدوا الله أنه كسر عزلته الى النور ، ولم يعلموا أنه كان يذهب ليلتقى بها عند حديقة المانجو على مشارف القرية ، حيث اعتادت أن تبحر فى المركب الصغير وتشق النهر الهادىء ليلا حتى سبيل الشيخ سلامة ، وتنزل الى الغيطان ، وتخترق الجرن حتى الحديقة · تركض فيتورد وجهها · تنهج بشدة ، يحيطها بذراعيه ضاحكا ، ويحملها الى شجرة بجوارها كانون صغير للشاى ·

عرف حيدر الحب الوحيد فى حياته مع امرأة ذابلة لها روح وثابة ، تتحفز للانطلاق فى كل لحظة ، وتشيع الطمأنينة فى كل ما حولها حتى أنها تركت فى الدوار ــ فى الوقت القصير الذى

عاشته ـ بصمة وقفت سدا أمام زوجته الجديدة التى قتلتها الغيرة منها مدى الحياة ، رغم أنها رحلت مبكرا ولم تكن قد تجاوزت العشرين الا بشهور · ورغم أن أمه حذرته من هذه الزيجة حين جاءها خبر افتتانه بها ، لكنه رفض توسلاتها ، خافت أم طه من ولعه بالأجنبيات ، خاصة بعد رحيل مـــارى اثر استشهـــاد عبد الحكيم وانتزاعها حفيدتها عديلة الصغيرة الى الأبد ، وانقطاع أخبارها تدريجيا · كما أنها خشيت أن يتزوج احدى بنات عمه · لم تكن تريد له واحدة من أهل زوجها الفلاحين كما تصـــفهم ، وتريدها هانما تليق بحسبه ونسبه · ولم تعجبها العائلات الثرية فى القرى حولها ، اذ كانوا يربون بناتهم على ادارة البيوت دون اهتمام باللغات ، ودخول المجتمعات الواسعة ، وهو ما كانت تتعجب منه أم طه · وحين لاحظت أن وديدة تميل للعزلة والبعد عن اللهو ، قدمت ابنتها نعمة كسفيرة للعائلة · لكنها حين رأت العروس تميل على يدها وتقبلها ، شعرت أن الله يعاقبها ، وتوسلت اليه أن يسامحها وأن يعجل بوفاتها قبل أن ترى ابنها وقد أصابه مكروه · وطلبت من وديدة أن تنقلها لتعيش البقية الباقية من حياتها فى غرفة تطل على السباط والحوش ، وخرجت من شقتها الى الأبد ·

رأى حيدر اقبال أثناء زيارته لأخيه فى الاسكندرية ، كانت صديقة لزوجته ، وهى الابنة الوحيدة لبحار عجوز ، ماتت أمها الايطالية فى شبابها ، وتركتها قبل أن تكمل عامها الخـامس · ورغم الدقائق القليلة التى جلسها معها قبل تناول الغداء ، الا أنه أحس أن فى هذه الفتاة المرحة البسيطة ما يدفعه الى التعرف بها · وقد تعجب رشدى حين طلب حيدر من اقبال ألا تذهب حين همت بالخروج · فلما أخبرته أنها ستشاهد فيلما مع نزيهة ، أصر على صحبتهما · وعرف أنهما يتريضان كل جمعة ، فأصبح لا يستطيع صبرا باقى أيام الأسبوع وهو يتعجلها للسفر الى الميناء ·

أحب الحياة · ولأول مرة شق الفجر برمحه الظلمة ، وهو وحيد فى العراء فوق حصانه ، أو جالسا على النهر أمام جـــرن القمح · وكثيرا ما رقد فوق حصير السباط مستطلعا السماء ، واستقبل صدره هواء الليل البارد لا يفارقه منديلها الدانتيل الصغير الذى تركته عامدة ذات مساء ، يقربه من فمه فيمتلىء بالنشوة · يضىء العبير احساسا بأن وردا يتفتح ، ينبثق من شرايينـــه · وكثيرا ما فاجأته الشمس وهو يرقب جريان النهر الذى لاحظ لونه لأول مرة فى حياته ، واستطاع أن يكون أول من يعرف أن ســاعة الفيضان قد حانت ، وأن النيل الأحمر وصل حاملا طميا غرينيا ثقيلا · فلما اشتد عزف المياه وصخبها ، تنبـه ونزل من سـطح الدوار مناديا الخفر · ليلتها ، قامت البلدة عن آخرها تحمى زرعها ، لكن التيار كان أقوى من سدودهم الطينية التى انهارت مع أول دفقة كبيرة ، وغرقت المحاصيل ، واضطرت وديدة أن تأمر بردم أرضية الحوش بكومة كبيرة من التراب أخفتـه ــ للأبد ــ أرضيته الرخام التى كانت قد اختفت تحت التراب فى الفيضان الكبير أيام الحاج تمام ، حتى لا يكون منخفضا عن الجسر ويتعرض للغرق الدائم · وبقيت الشكمة والفيللا الصغيرة على حالهما اذ انهما بنيا بعد الفيضان الكبير بارتفاع عن الأرض ·

شعرت نزيهة بالحرج حين طلب حيدر منها التوسط لـدى صديقتها فى طلب الزواج ، وسافرت على الفور الى حمـــاتها ، فأخبرتها بمرض العروس ، وتركت لها حرية التصرف · لكن كل محاولات المنع باءت بالفشل ، وهم يشاهدون العشق يقذف بالحمم من قلب أجمل شباب الأسرة ، الغندور المختال بنفسه · وانطلقت الأفراح من الدوار ، وأمرت أم طه بتجهيز شقتها لاستقبال حيدر بعد أن رحل الجميع ، وتنازلت عن بعض أثاثها ، ونقل الى الغرف المحيطة بالسباط ، وأعيد طلاء الجدران ، ورمم البناء حتى لمـــع

وبرق ، واستقبلوا العروس الاسكندرانية التى أرسلت ثيابها قبل أسبوع · فلما فتحت وديدة الحقائب ، والصناديق الخشبية الكبيرة ، وجدت صورة للعذراء فى اطار بندقى يحيطها بالجلال والرهبة · وجلت البنات ، وسألن كحيلة :

ــ هى العروس نصرانية ؟

لم تكن الصورة المفاجأة الوحيدة ، اذ كان الصندوق مملوءا بأيقونات للسيد المسيح وأمه ، وشمعدانات فضة حفر فى قاعدتها تصوير مجسم للعشاء الأخير · ثم خرجت من معطف الفراء لفافة حريرية كانت مضمومة بعناية ، أسفرت فى النهاية عن صليب من الخشب المطعم بالعاج آية فى الدقة والجمال · وأصبح من الواضح أن سيدة المنزل الجديدة قد اصطحبت معها كل متعلقات أمها · ورغم مصمصة الشفاه التى لاحظتها أم طه وأم عبد الله ، فان صوت احتجاج واحد لم يسمع فى أروقة الدوار ، وأعيد كل شىء الى الصندوق ، واختفى فى الظلام مرة أخرى ، حتى وصلت اقبال وحررته ، وعلقت الصورة الكبيرة فى صدر الصالة ، وبقيت فى مكانها حتى تزوج حيدر مرة ثانية ، فأعيدت الى الصندوق الخشبى مع كل أيقوناتها الصغيرة التى انتشرت فوق المناضد ، وسط التحف الغربية ، وبجوار علبة صدفية ضخمة تنفتح عن المصحف الشريف بأوراق مذهبة عيار أربعة وعشرين ·

راقبت الخادمات صلاة العروس متلصصات ، ولاحظن أنها تحفظ القرآن جيدا ، وأنها تختلف كثيرا عن مارى وعن نزيهة ، فهى ليست أجنبية مثل مارى ، بل مصرية تماما ، ولولا ميراث أمها ما عرف أحد أن لها اما أجنبية · وهى بسيطة ومتواضعة على عكس نزيهة التى تأتى محاطة بالوصيفات · والخدم ، وتصطحب معها صفا لا يقل بأى حال عن ثلاث مربيات ووصيفة وسائق ·

استقبلتهن في يوم صباحيتها بروب أحمر ، أضفى كثيرا من البهجة على وجهها · وقدمت لهن نفسها قائلة :

ــ بيللا ·· أرجوكم أن تنادونني به !!

رفرف الهدوء على العش ، وشوهدت العروس قبل أن تطير فراشات عرسها تتبختر في فناء الدار · شيء واحد كان يعكر هناءها ، هو رغبتها في الانطلاق الى الحقول ، لكن التقاليد فرضت ألا تخرج الا مستترة بظلام الليل ، أو في سيارة تدخل حتى باب الحرملك · لكنها سرعان ما رضخت بعد أ ن اصطحبها حيدر مساء كل يوم وقدمها الى أصدقائه وعائلات الناحية ، واستقبلها السباط عصرا وهي تغزل وسط البنات خيوط الكروشيه ، وتنافسن في انتاج الأوبيسون والكانفـــاه · وعلمتهن كيف ينثرن اللؤلؤ فوق القطيفة · فلما حملت جنينها الوحيد ، رحن يخيطن ملابس الطفل ، وكلما انتهى فستان وضعته فوق الطاولة ، وسألن كل من يدخل ان كانت هيئته توحي بولد أو بنت · واشتعلت المراهنات في سعــادة ظاهرة تخفي آلام القلق على صحتها التي تدهورت في الشهــور الأخيرة ، وعلى المستقبل المجهول ·

اتشح الدوار بالسواد ، وفرض حدادا ذكر الجميع برحيل عبد الحكيم · وتناوب شيوخ القرية قراءة القرآن كل ليلة بعــد صلاة المغرب حتى صلاة العشاء ، في شكمة الدوار الخارجي · ومنعت وديدة فرك الكسكسي أو الحمصية ، وتبطيط الرقاق ، ولف محشي ورق العنب ، وطهي الأرز باللبن والسكر ، وفرضته بالملح فحسب · كما حرمت أكل البسبوسة ، والكنافة والجلاش ، ولقمة القاضي ، وعقد الشراب السكري أو المربى أو تقديم الشربات ، وسمحت بشراء زجاجات البيبسي والليمونجو · ومنعت الفراولة لأنها حمراء اللون · ورفضت توسلات الأطفال لأكــل العصيــدة بالسكر ، ولفتها لهم بالملح فرفضوها ·

وكاد قلبها أن ينفطر حين دخل اسماعيل يبكى الى جدته ، وهو يطلب :

ـ حلاوة دقيق والنبى يا ستى !!

وفاجأتها أم طه قائلة : اعملى له · حزن القلب لا ينفك يا وديدة بحلاوة أو بغيرها !

قبل أن يحل الأربعون ، وتنتهى المراسم الأولى للحداد ، أفاقت ستيتة من القيلولة على صوت شهيق عال ، ونداء متقطع · رفعت رأسها من على الأرض ، فرأت أم طه تمسك بظهر سريرها النحاسى ، وتجاهد للجلوس وهى تصيح :

ـ يا وديدة ··

ركضت ستيتة ، وبعد دقائق ، كان كل من فى الدوار حول سرير الجدة ، تغسلهم دموعهم ، وهم يجهشون · قلقلت المواجع كلها دفعة واحدة · بكوا عبد الحكيم ، والحاج عبد القادر ، واقبال وودعوها وهى تنظر اليهم بعينين تحجرت فيهما الدموع · نطرت وديدة جسمها من فوق سرير حماتها ، ومسحت دموعها بمنديل فى يدها ، وقالت حازمة الأمر :

ـ اخرجوا ·· روقوا لها طريقها ، اتركوها لملاكها ، وارحموها يرحمنا الله جميعا ·

قرات سورا من القرآن ، وعديلة تحرك شفتيها معها ، وظل ابتسامة يزحف ليضىء وجهها حتى اكتمل !!

- ١٧ -

لم تكن وديدة حتى هذه اللحظة ، حين جاءها الخفير بسيونى يطلب منها أن تستعد كوثر وابناها للرحيل الى الاسكندرية على الفور، لم تدرى أنها ستنتظر سنوات طويلة قبل أن ترى ابنتهـا مرة أخرى · كانت كوثر فى زيارة للعائلة تتوقع وصول زوجها عنـد نهاية الأسبوع ، لهذا ، تعجبت حين نقلت اليها أمها الخبر ، وحاولت الاستفسار من الخفير ، فقال لها ان سيارة المهندس محمد سليم وسائقها فى الخارج يريد الرحيل حتى تصلوا قبل حلول الظلام · وحين حزمت حقيبتها ونزلت الى الحوش ، وجدت اباها جالســا على المصطبة ، وأمها تجهز طعاما للطريق ، وتحتج على الاستعجال، والعمدة صامت ، الى أن رأى ابنته ، هش لها ، وابتسم وهى تقبل يده ·

انتظرت · قال :

ـ ارسل لى محمد مع السائق يطلب سفرك بسرعة لأمر هام لم يفسره · اذهبى على بركة الله ، واجعلينا نطمئن ·

التفت الى زوجته التى تقول :

ـ الدنيا لم تطر · خلقها الله فى سبعة ايام ·

ـ اتركى البنت لزوجها يا أم عبد الله ·

ودعتهم كوثر ، والحيرة تأكل شفتيها الصامتتين · خرجت السيارة الى طرق ملتوية مليئة بالحفر والمطبات أنت منها البويك

العتيقة • لاحظت انهم يستخدمون طرقا وسط قرى لا تعرفهـــا ، وجاءها الرد بأن اصلاحات تجرى فى الشارع الرئيسى • اسلمت راسها الى مسند المقعد ، تذكرت انها كانت على موعد مع ابنـة خالتها فى الغد ، وانها ستاتى خصيصا كى تراها •• ما هذا ؟ لم يعتد محمد مثل هذه التصرفات ! اى اجازة تلك التى سنقوم بها الآن ؟ » •

توقفت قلقلة الطريق ، وانساب ناعما مريحا تحت العجلات• اعتدلت ورفعت خصلات شعرها الى اعلى ، عقدته فى شكل ذيـل حصان •

اتخذ السائق الاتجاه المعاكس ، والتفت الى المرآة يحادثها من خلالها دون أن تختل مراقبته للطريق :

ـ آسف يا هانم • طلب منى الباشمهندس الا اخبرك اننـا ذاهبون الى القاهرة الا بعد خروجنا من البلدة ، وأن أسلمك هذا الخطاب •

أخذت الورقة مذهولة وفتحتها ••

حبيبتى كوثر

لم اكن اعرف أن البعد عنك أياما قليلة سيعذبنى بهذا الشكل• ارسلت اليك عم موسى لكى ياتى بك مرتاحة مع الأولاد • اعددت لكم مفاجاة سارة ، اتمنى أن تضفى عليكم البهجة من اجل أجازة سعيدة معا • لا تتعبى نفسك فى شراء الشال الحرير والغيارات القطنية لأننى اشتريتها بالفعل ، وسوف نقـوم باهـــدائها الى صديقتك معا •

المخلص

محمد سليم

١٩٥٤/٨/٣٠

طوت الورقة ، وسألت نفسها : معا ؟ كيف ؟ معا ؟! ربـاه ٠ هل يمكن أن ٠٠ أن ؟ لا ٠٠ وبيتنا ؟ والشركة ٠٠ ؟ متى رتب هذا ؟ هل حدثت تطورات سريعة لا أعرفها ؟ كم طلبت منه ارجاء هـذه الزيارة ٠ الآن أعرف لماذا اقترحها ، ولماذا ألح عليها ٠

امتدت يدها تتلمس وجهها الذى تحول الى ساحـــة انتظم فوقها جيش من النمل ، زحف فى خطوط متوازية من فروة الرأس حتى وصل الجبهة وانتشر ، وهلت طلائعه الأولى فـوق طـرفى اذنيها ، وطلائع أخرى علت تبتى خديها ، وتسلقت انفها وسقطت فوق شفتيها ، ثم نزلت الى ذقنها بعد أن تركت كتيبة ضخمة لا تهدأ فوق حروف فمها ، وواصلت الخطو بتصميم وحقد حتى ارتج الجسم كله فى رجفة نشرت الاحمرار فى بشرتها التى تبرقشت ببقـــع داكنة ٠ رفعت رأسها تستطلع الطريق ، صافية ، قرأت ما يدور بداخلها ٠ أرخت جفونها ، وتملكها شعور بأنها عارية ٠

ـ اقسم لك أنه فى أحسن حال ٠ اطمئنى يا بنتى ٠

تقاطرت دموعها ، واستدارت تخفى وجهها فى الزجـاج ، والشمس تتثاءب ، ترسل زفرات الكسل ، تتمطى أشعتها ، وتتكسر على صفحة السماء الواسعة « هل عرف أنه سيعتقل ؟ » ٠

ـ ماما الا تسمعيننى ؟ أنا أسألك عن جردلى الأحمـــر والجاروف ؟

مسحت دموعها ٠ انعكست الألوان البرتقالية على الطفلين ٠ اضاءت وجهيهما ببريق ذهبى أخاذ ٠ لاحظت كم هما صغيران ، وضعيفان ، وفى حاجة الى رعاية ، فاحتضنتهما ، وأجابت :

ـ بابا حضر لنا كل شىء فى الشاليه ، وكل ما نحتاجـــه سنشتريه من السوق عندما نصل ٠

ـ انا أحب البحر ، واسبح طول النهار ٠

ـ انا أعوم أحسن منك ٠

ـ لا ٠ انا ٠

ـ حمدا لله على السلامة ٠

ـ الله يسلمك ٠

أرادت أن تسأل عن المكان الذى يتجهون اليه بالتحديد ، والجدل بين أبنيها يصلها دون أن تحاول اسكاتهما ٠ لكنها عدلت عن السؤال فى آخر لحظة ٠ فضلت الانتظار ٠ استعادت كلمات زوجها : اشتريت الشال ، وسنهديه الى صديقتك معا !! قلبتهـــا لتناسب كل المعانى ٠ اشارت كلها الى كلمة واحدة : الشال ٠٠ طلبته سميرة زوجة صديقه الحاج سيد ، وتعيش فى السعوديـة الآن ٠٠ هل ٠٠ ؟

تبلورت الاجابة فى رأسها ، ثم انفجرت واضحة ، وعلامات الطريق تتبدل الى أسهم بيضاء تشير الى مطار القاهرة ، وتتوالى « رحلة سعيدة » ٠٠ « تصحبكم السلامة » ٠ ركزت بصرها عــلى عربة عتيقة تنفث دخانا أسود لا ينقشع ، احتلت المساحة البصرية أمامهم ٠ قرأت على خشب المقطورة « والنبى تضحك ٠٠ وتدعو أن تصل لوزة بالسلامة » ٠ ابتسمت ، وحاولت فك رموز الكلمات الكثيرة الموشومة بها حتى تخطوها ٠ اختفت السيارات المسرعة ، وهدأ الطريق قبل أن يتوقفوا ، ويندفعوا ـ بالغريزة ـ ناحيــة صالة المطار الداخلية ٠ تلقفتها يدا زوجها :

ـ اطمئنى ٠ ستعرفين كل شىء ، بعد أن تنتهى الاجراءات ٠

ـ ربنا معكم ، يحميكم ، وتصلوا بالسلامة ٠

رد على مودعهم الوحيد ٠

- كما افهمتك : أعط مفتاح البيت لحضرة العمدة ، والليلة ساتصل بهم تليفونيا ·· ان شاء الله ·

لم تصدق كوثر أن المرة الأولى التى تطأ فيها قدماها أرض المطار ، تعبره هاربة ليلا الى المجهول ·

- العصفورة جاعت ياماما ·

- حالا يا وليد ·

تعاملت مع ما حولها بآلية تخفى فورانا داخليا · اكتسبت بعد زواجها هدوءا ونضجا تعجب له المحيطون بها ، لكنها دون أن تدرى فقدت مرحها الجميل الذى كانت تتميز به ، وهو ما كان يقلق وديدة ، دون أن تستطيع التدخل · حومت من بعيد تستكشف الأسباب ، وانتهت الى انها تشير الى تأثير محمد سليم ، لكن الذى احتارت فى فهمه هو رضوخ كوثر ·· رأتها يوما بعد يوم تتخلى عن عادات كثيرة كانت شديدة التمسك بها قبل الزواج ، لكنها حمدت الله فى النهاية لأنها استطاعت اكمال دراستها والحصول على الليسانس ·

تأملت كوثر زوجها وهو يتحـــرك بين نوافذ التصـــديق على الجوازات : نحيل ، أسمر ، هادىء التقاطيع والانفعـــالات · جلس بجوارها فى انتظار النداء على الطائرة ، دون كلمة واحـــدة · اعتادت انتظاره حتى يختار اللحظة المناسبة لاخبارها بما يريد · قال هشـــام :

- اذهب الى الحمام ياماما ·

وقف محمد قائلا : انتظرى انت · ساصحبه انا

تابعتهما معا · حتى طريقة المشى واحدة · هشام يحنى كتفيه نحو صدره · كم حاولت أن تعدل من استقامة ظهره ، دون

جدوى . انشغلت فى اطعام وليد ، وعيناها لاتبارحان اللوحة . القاهرة ــ جدة .. تذكرت حكايات جدها عبد القادر عن رحلة الحج على ظهر الخيل والجمال : استقر فى الوجدان ــ منذ زمن طويل ــ أنها رحلة شاقة ، ومكلفة ..

استغاثت امطار من الذكريات أن تعيدها الى الحياة ، وهى عطشى تحلم بلمسة من وديدة ، وارتماء فى أحضان قمر ونازلى وبنورة . دخان يغلف ما فات من عمر . تعثرت فى أوهام القادم المجهول ، اشتهت أن تعارك عبد الله ، وتشاكس محمود ، أرادت الصفاء فى وجه عاطف ، والرزانة فى حركة عبد الحميد وشقاوة اسماعيل ، والحنو من أبيها . تذكرت جدتها عديلة ورحيلها المفاجىء . وعمتها نعمة ونقارها معها ، مشاعر باهرة وحب جارف لهم جميعا .

هربت صرخاتها من الحلق وتشرنقت فى الأغوار ، نشعت من جسدها ترنداتها دون صوت . رممت لحظات دفء تسللت اليها واعادت لها التوازن . مشرد لبن تطبق قشدته وتبرمها ، تحملها فى صحن الى صينية الفطور ، لسعة الصبح الندية وهى تفتح لمتولى ليحلب أول جاموسة ، رائحة العشب تحت شجر المانجو ، قارب يبدل خطواته فى عمق النهر وينزلق حاملا زيطة الاخوة يسابق قاربا آخر ، رعشة استقبال النهار فى الداخلية ، التقاط الجميز فى الفجر ، مشنة ذرة مشوى ، وجه سليم يطل من بعيد فى أفراح العائلة يبحث عنها دون كلمة حب واحدة رغم أن عينيه تنشران الفضيحة ، بلح أخضر ، وخوخ أخضر ، ومانجو ندفنها فى التبن ، قطعة عجين نكورها عروسا وقوسا ، نضعها فى الفرن بطينها ، مشط سمك وقرموط يصطادهما محمود يشويهما فوق راكية يحرقان الأصابع ويلسعان الألسنة ، أحلام بعريس يفتح باب الدوار ــ سجن القلعة ــ كم كان رحيبا ودافئا دون أن

ندرى ٠ ما هذه المصائر الغريبة التى تحيط بنا ٠ ؟ كنت أظن أن السعادة رهن اشارتنا ٠ جمال وعائلة ، ومركز ومال ، ما الذى ينقصنا حتى نطول ما نريد ؟! لماذا كانت الحياة أسهل من قبل ؟ لم تكن أسهل كثيرا ، كنت صغيرة ولا تعرفين ما يجرى حولك !!

أغواها الحنين الى نازلى بالبكاء ، لكنها تمنعت بصعوبة ، ورددت بصوت هامس « ليس هذا زماننا !! » نازلى تحب زميلها منذ دخول الجامعة ، كأنه كان فى انتظارها سنوات ٠ ويتم القبض عليه بعد شهور ، ويزج به الى السجن ، بتهمة الشيوعية ٠

لم أستطع أن أخبرها بما عرفه سليم ، وما تردد فى الأوساط السياسية أن هناك نية لاعدامهم ٠

لم تنتبه بعد لعودة زوجها وطفلها ، وهى تردد « يا الله ماذا جرى لنا » ؟

قال سليم : مكتوب لنا أن نعتمر ان شاء الله ، وقد نجح أيضا ٠ لا تقلقى ٠٠ الحاج سيد فى انتظانا فى المطار ، سننزل فى ضيافته ٠

توقف يرتب أفكاره ، يعرف معنى هذا السؤال فى عينيها ٠ ابتلع ريقه وأكمل :

ـ لم تنته الاعتقالات كما كنا نتوقع ٠ قررنا السفر بسرعة حتى لا يتم القضاء علينا ٠

ـ انت متأكد أنك غير ممنوع من السفر ؟

ـ نعم ٠٠ والا كانوا حجزونا فى الجوازات ٠ لهذا لزمت السرعة قبل أن يحدث تغيير فى الموقف ، لن أطمئن حتى ندخل الحجاز ٠

انتبها معا للنداء على الطائرة ، أمسكا بالطفلين واتجها نحو باب الخروج . لم يستطع أن يخبرها أن السعودية مجرد محطة حتى تنتهى اجراءات العقد الذى يرتبه زميله فى الكويت . كانت خطته أن ينتظر وصول التأشيرة ، لكن تصاعد الموقف دفعه الى تعجيل السفر . ود لو يدفع بهم الى الأمام ، وأن يتخطى الطابور أمامه ، لكنه تماسك .

أرادت أن تلتفت وراءها لترى الصالة التى تطن خلفها ، وخزها شعور بالوحدة ، رغم وجود زوجها وأطفالها « سـفر بلا مودعين » ترقرقت فى عينيها دموع كتمتها بأعجوبة ، أنبتت بثورا حمراء فوق بشرتها ، كشفت انفعالاتها .

عكست المرآة التى تغطى العمود بجوار باب الخروج الى ساحة المطار الحياة فى الدوار، يوم جاء الفلاحون الى أبيها يشكون من ظلم الهجانة ، وخرجوا دون أن يتحدث واحد منهم فى القرية أو داخل الدوار عما اعتزموا الليلة . لم يجلسوا معا ليتفقوا على شىء بعد أن حكى الحاج مدبولى قصة الفيضان ، لكنهم عرفوا ما يجب أن يكون ، رفرف نذير فى الهواء الذى يتنفسونه ، فتحركوا وهم يتجنبون النظر فى عيون بعضهم .

هيأت البنات السباط لجلسة العصر ، فرحات بوصول قمر وطفلها فرشن الحصير ، وأحضرن الخيوط والمفارش ، وتحلقن يشتغلن الكورشيه لجهاز كوثر ، متظاهرات وسط وديدة ونعمة وعديلة بأن الأمور عادية . لم يخبرهن أحد أن ساعة الصفر قد حانت . كانت المسافة بينهن وشكمة العمدة أبعد من أن يسمعن ما يدور بها . وشوشت قمر نازلى وكوثر فتركن غزلهن ، وصعدن الى سطح الدوار كى يكشفن القرية من فتحات السور العالية ،

ركضت بنورة وراءهن ، حملتها كوثر لكى تستطيع الرؤية • التفتن الى صوت عكاز واقدام ثقيلة تصعد الدرج • رأين جدتهن وأمهن وعمتهن يتساندن معا للوصول الى السطح • هرعن لمساعدتهن الى ان وقفن معا •• هيء لهن ان الأسدين الرابطين فوق مدخل الباب الخارجي يتاهبان للانقضاض • خرج الشيخ • طه من الدوار بصحبة عدد من الرجال ، التحموا بالموجات التى تصبها البيوت الى شوارع يدب فيها جيش من النمل يزحف حاملا متاعه • رجال ونساء وأطفال فى موجات تزحف على الطرقات الملتوية والأزقة • هبت نسمة مغارب منعشة طيرت الملاءات من فوق رؤوس الفلاحات اللاتى يحملن الأمتعة ، ويمشين ممشوقات ، منفردات منتصبات كرمح • رفرفت الأقمشة الملونة والخرق البالية معا كبيارق عشقت الريح ، وفردت له الأجنحة • رأت البنات الأربع وأمهاتهن القرية حية تشغى فى حضن المزرع الأخضر والذهبى ، والنهر يتلوى فى ناحية ، ويفصلها عن الكفور والنجوع • خفتت سنابل الضوء عن بعد رويدا ، والناس يتجمعون فى الشوارع الترابية ، يهجرون البيوت ، عاقدين الصرر فى عصى قوية ، جافة ، متحررين من الخوف والوهم ، حركتهم خفيفة كأنهم يسيرون فوق بخار • دققت البنات النظر الى الشارع الذى تسربت اليه موجات من الضباب الناعم ، لم تلحظها جحافل الهجانة التى وصلت قادمة من عند دوار ابو نصيف • لاحظن كيف يمشى العسكر على مهل ، تذبح سياطهم السلام ، يرشون الشتائم على بيوت المنتهى ، وأهلها • لم تحن بعد ساعة الحظر ، تعجبوا من تسرب القرية الهادىء ، اخترقوا موجاتهم الحذرة ، شنقوها بجمالهم البلهاء التى تجتر المرارة ويسيل الزبد الأبيض حول فمها • انبعج الخط ، تفرق ، ثم عاد الى الانتظام ، وما نطقوا ، وما التفتوا نحوهم ، استمروا يصعدون تلال السباخ الصغيرة أمام بعض البيوت ، ويتجنبون الحفر ، ويخرجون من أروقة القرية الى شوارعها

الفسيحة دون كلام · رمموا الوجع ، وشرنقوه فى القلوب ، فما عاد ينشع فوق الأجســاد · اكتسبت وجوههم صلابة ، وطمأنينة المنذورين للجنة · لم يفهم الرجال ذوو البشرة الداكنة ، والأسنان التى تلمع فيها رقائق الذهب ما يحدث · كأن المنتهى قد عزمت على الهجرة · سألوهم جماعة ، فصمتوا جماعة · ألحوا عليهم · تعمدوا ألا تكون لاجاباتهم معنى · تاريخ طويل من محاولة الالتفاف على الذات لم يفهمه الأغراب ··

سأل رئيس الهجــانة :

ـ الى أين أنتم ذاهبون ، وقد دخلت المغارب ؟

تعلل كل واحد باحتياجه الى شىء من الحقل · توقف الجمل فى مواجهة الطابور ، تراجع النــاس للخــلف ، ثم عادوا يمشــون بأجنابهم محتمية ظهورهم بحوائط البيوت الخشنة ، قال الرجــل من فوق جمل يتململ ويثير الغبار حوله ، موجها الحديث الى منصور الشرقاوى الذى لم يبرأ بعد من هزال الكوليرا ·

ـ الى أين ؟

ـ لا ··   ولا حاجة ·

ـ قلت لك ·· الى أين ؟

رد منصور ، وعيناه زائغتان ، لا تنظران الى وجه محدثه ، كأنه ما سمع السؤال المستفز ·

ـ من ؟!

ـ ما الذى تحمله ؟

ـ أنا ؟ أين ؟

ـ فى القفة يا رجل !!

ـ آه هنا ؟!

فتحها دون أن ينطق · غرز العسكرى عصاته فيها من فوق الجمل ، وطرقع الصوت فى الهواء :

ـ روح ·· روح ··

تنحى عن طريق الركب الذى أفزعه ، فعاد وانتظم · نصبوا لهم الفخاخ فى كل مكان ·· ما خافوا ·· ولا تراجعوا ·· تسرب تيار من الضباب تكاثف ، وحملهم ، وما استطاعت عيون العسكر أن تراه أو تحس دبيبه ، وعرفته البنات والنساء فوق سطح الدوار ، فالتصقت أجسادهن ، وسرت فيها حرارة وهدوء لذيذ ، حتى ما عادوا يشعرون ان كن حقا ينظرون القرية من أعلى مكان فيها ، أم يعيشون فى قلبها ، ويمشون وسط الجموع فى طرقاتها ·· قفز الفلاحون فوق الفخاخ ، وعبروها ، باغتوا الحقول ، وحطوا فوق ارضها ، مستعيدين ذاكراتهم المسلوبة ، مستردين ظلمهم ·· فرحت السنابل ، وتركت النسيم يعبث بخيوطها الذهبية · ارتفعت الرايات فى الحقول ، فردت أشرعتها ، واتخذت شكل خيام بديعة فاقعة انعكست عليها ألوان الغروب الشهوانية ، غطت على فقرها ، واهتراء أنسجتها ، واضاءت فيها فرحة الانفلات الى الفضاء · بزغت فوانيس الليل فى الغيطان ، وخرج الغناء يلعلع فى سماء القمح :

من سبل الغلة ·· ما تجيب لنا يا حمام

من سبل الغلة ·· عروسة حلوة يا حمام

تستاهل اللمة ·· ومبكرة بالولد

ومفرحة العمة ·· ما تجيب لنا يا حمام

تحلقت الهجانة حول بيوت القرية الغائبة مصابيحها ، شعروا

بخيبة وهم يجوبون الشوارع والطرقات المظلمة ، يصيحون فترتد لهم صيحاتهم حزينة ، وحيدة · تمنوا أن يتحرك عن بعد واحد فيحاسبونه ، ويقطعون ضجر ليلتهم ، أو يسمعوا همسا وراء نافذة يحايل به رجل امرأته لتلين له ، أو حتى شجارا ليتدخلوا فى فضه ، لكن المنتهى كانت ملعبا للأشباح · لاحظوا أنوارا تتلألأ عن بعد · قالوا هذا سراب ترشه الطبيعة على القرى ، تؤنس به ليلها الطويل · سكنهم الملل ، والزهق ، تسرب ثلاثة منهم يخايلهم أمل لم يفصحوا عنه ، انزرعوا في الحقول أمام أهل القرية الذين هاجروا الى الأرض ، والتحفوا الندى ·

قال الفلاحون ، وهم لا يكفون عن الغناء والضم :

ـ نحن وأرضنا واحد ··

أكلت الغيرة قلوب العساكر ، وهم يسمعون الصوت الحلو يصدح دون خوف ، راودتهم رغبة فى الانضمام الى الجموع ، والقلق من ألا يذوبوا وسطهم ، تململوا من الرهبة ، تراجعوا حتى وصلوا الى الطريق الموازى للنهر ، ثم عادوا موجات كثيرة ، تشابهت ملامحهم ، وأصواتهم ·

وقفوا يصيحون أمام الغيطان ، ويفرقعون السياط الجلد المطعمة بالرصاص فى الهواء :

ـ اجمعوا

صمت الفلاحين برهة ، ردد الصدى : اجمعوا

تراجعت صيحاتهم أمام الصوت الجماعى الذى عاد للغناء ·

من سبل الحشيش ·· ما تجيب لنا يا حمام

من سبل الحشيش ·· عروسة حلوة يا سلام

تستاهل البقشيش ·· ومبكرة بالولد ·

ومفرحة العريس ·· ما تجيب لنا يا حمام

ـ اجمعوا هنا !!

ضاعت صيحاتهم فى الفضاء تحت وطأة الليل الذى غلفهم وحدهم ، واصوات المحشات فى أيدى الفلاحين تزداد سرعة ، والعيدان تنام أمام الأجسام المنحنية فوقها ، والكفوف تكبس الحزم ، والضحكات تعلو ، وتنفلت مارقة فى المدى ·

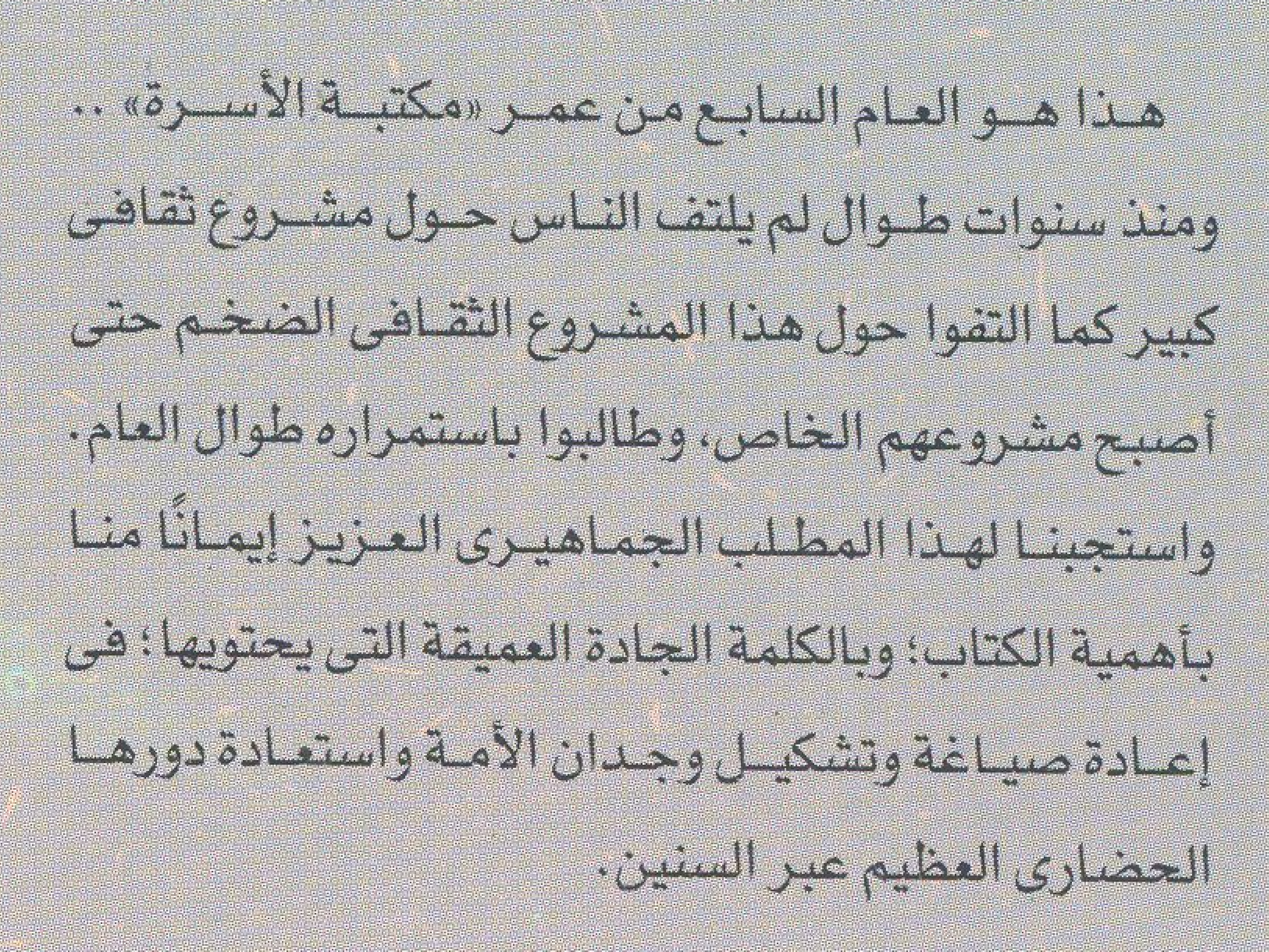
بعد أيام اكتشفتهم الشمس ، وقد داهمهم العطن !!

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٨٩٩ / ٢٠٠٠

I . S . B . N 977 - 01 - 6937 - 4





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع



١٥٠
قرش